النوارس تعود إلى بورسعيد



بقلم

حسن ريحان

النوارس تعود إلى بورسعيد

تأليف

حسن ريحان

DL

الجزء الأول

١ طلقة فى نهاية الاحتفال

تميز العيد الثالث للثورة بعودة ملك الفقر لقيادة العرض الشعبى الكبير الذى مُنع منه فى العامين السابقين لا لشىء إلاَّ لأنه كان يحمل لقب «ملك»، ويقال أن السلطات سمحت له بتقدم عرض هذا العام لأن الثورة قد قوى عودها ولم تعد تخشى الملوك لكن اشتُرط عليه ألا يلبس الطربوش أو يعلق على صدره الميداليات التى زعم أن إنجلترا وفرنسا وتركيا وألمانيا منحتها له لتميزه فى القتال فى صفوف جيوشها.

فاقت مظاهر الفرحة هذا العام مثيلتيها فى العامين السابقين. فإلى جانب رفرفة أعلام مصر الخضراء بأهلتها ونجومها البيضاء وتعليق لافتات التأييد للثورة فقد أُقيمت عشرات أقواس النصر فى الميادين والشوارع الرئيسية ورُسمت لوحات ضخمة صورت تحركات الجيش المصرى إلى قصرى عابدين ورأس التين وطرد الملك فاروق وكفاح شعب بورسعيد ضد الإنجليز، كما توهجت المدينة بأضواء أحالت ليلها إلى نهار فاختفت النجوم ولم يكن للقمر مكانته المعهودة رغم تمامه بدرًا ليلة الإحتفال.

تقرر أن تبدأ مسيرة العرض من ساحة جامع صالح سليم فى

الساعة الرابعة بعد العصر فتوافدت الفرق المشتركة منذ الساعة الثانية لكن الأطفال اتخذوا أماكنهم على الأرصفة قبل ذلك بوقت طويل. وفى الثالثة والنصف كانت كل الفرق قد وصلت واتخذت أماكنها فى الساحة استعدادًا للتحرك، وكُلف كبار موظفى المحافظة وبعض ضباط الشرطة بالإشراف على تنظيم الفرق وسيرها فى شوارع سعد زغلول ثم الجمهورية ثم ٢٣ يوليو لتصل فى النهاية إلى ميدان المحافظة حيث أقيم سرادق كبير سيجلس فى صدارته المحافظ وكبار المسؤولين والأعيان.

احتشدت الجماهير على أجناب الشوارع وفى شرفات المنازل وأسطحها وعلى قمم الأشجار الكبيرة وشخصوا بأبصارهم إلى الاتجاه الذى سيظهر منه ملك الفقر ومن ورائه الطرق الصوفية والفرق الشعبية المختلفة.

لكن الملك خرج على نص البرنامج وانطلق بفرسه الشهباء كالسهم المارق فى شوارع بورسعيد تاركًا الفرق الشعبية وراءه قبل تحركها بخمس عشرة دقيقة فهللت له الجماهير المحتشدة ولوحت بأعلامها الصغيرة تحية للرجل الذى فاجأهم ببراعته المعهودة فى ركوب الخيل وجسارته فى الركض بنفس السرعة التى كان يركض بها قبل اعتزاله غير الطوعى، وعندما وصل إلى ميدان المنشية قُوبل بتصفيق أشد وكان عليه أن يرد التحية فرفع ذراعه اليمنى ودار دورتين حول الميدان ثم أبطأ وجذب اللجام بشدة فرفعت الفرس رجليها الأماميتين ورجعت برأسها وصدرها إلى الخلف فنال الملك تهليلاً وتصفيقًا لم ينلهما فى مجده الغابر ثم عاد أدراجه إلى ساحة جامع صالح سليم لكن بعد أن أثبت

للناس أنه الملك الفارس الذى لا يبارى وأنه لن يخيب أملهم فيه رغم مرور السنين ورغم الظلم والاضطهاد اللذين تعرض لهما.

فى تمام الساعة الرابعة أعطى المسؤولون إشارة البدء فبدأت جميع الفرق سيرها وملك الفقر فى مقدمتها. تحركت فرسه ببطء هذه المرة متهاديةً يمنةً ويسرة وراقصة على دقدقة حداويها فوق الأرض الأسفلتية الصلبة وهو فوقها يرتدى طربوشه وبدلته العسكرية المرصعة بالنياشين والميداليات الذهبية مخالفًا بذلك شرط العودة إلى المشاركات الشعبية فى المدينة.

كان قويًا متماسكًا رغم أعوامه السبعين الخالية من تجاعيد الوجه وترهل الجسم وخور العزيمة. وجهه أحمر وأنفه أقنى وعيناه داكنتان يشع فيهما بريق غامض يغرى المرء بالنظر فيهما طويلاً. يتواثب جسمه المستقيم مع حركات فرسه الرشيقة ويرتفع رأسه عاليًا فوق عنقه المشدود إلى الخلف اعتدادًا بالنفس وتجسيدًا لعزة كان أهل المدينة يصبون إليها.

حُكيت عنه قصص كثيرة لكنه ظل لغزًا لمعظم الناس. لم يعرفوا أين يقيم أو مع من أو كيف يدبر قوت يومه. طوال العشرين عامًا الماضية لم يروه إلا فوق فرسه إذا ماكان هناك احتفال دينى أو قومى ثم يختفى عن الأنظار ولا يظهر إلا فى الاحتفال التالى.... كديدن الملوك. لكن أكثر الجوانب غموضًا فى حياته كانت الميداليات والنياشين التى غطت صدره. لقد قُبض عليه بعد قيام الثورة ودُهش المسؤولون الذين حققوا معه أن تنتمى ميدالياته لدول كان يحارب بعضها بعضا؛ ثلاث انجليزية وواحدة

فرنسية واثنتان نازيتان وأربع ميداليات عثمانلية. لم يعرف أحد ماذا تم في التحقيق لكنهم أطلقوا سراحه وردوا الميداليات إليه.

****

بعد ملك الفقر مباشرة جاءت الفرق الصوفية بمباخرها، تبعها عربات البمبوطية وعمال الرباط والصيادين وجامعي الفحم من قاع الميناء «الإشكاريبّه» وقدموا بانتومايم صور مهاراتهم فى حرفهم. وبعد خمسين مترًا تقريبًا جاءت مجموعة أخرى من عرباتٍ مكسوة بالزهور والورود مثلت شركات الملاحة وتموين السفن وإصلاحها، على كل عربة ثلاث فتيات أو أربع بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة يلوحن للجماهير ويلقين بالورود وشباب المدينة الذين فى مثل أعمارهن يلتقطونها ثم يردونها إليهن بقبلات مطبوعة أو بوشوشات تحمل أمنياتهم الدفينة.

كانت فترة مرور عربات الورد هادئة، ولولا تجاوب الشباب مع الفتيات الحسناوات لاتسمت بالملل، وقد انصرف بعض الناس أثناءها إلى تناول ما معهم من أطعمة أو التحدث مع بعضهم البعض أو الجلوس على الأرض للراحة لكن سماعهم أنغام السمسمية أعاد انتباههم إلى الموكب إذ ما هى إلا لحظات حتى كانت فرقتا سمسمية تمران أمامهم وتتبادلان العزف وترديد الأهازيج الشعبية البورسعيدية فتجاوبت الجماهير معهما وقفز البعض إلى وسط الشارع وقدموا نماذج من رقصات الصيادين والبمبوطية المعروفة. وبعد قليل سُمعت موسيقى البيانولا التى لم يطرب لسماعها إلا نفر قليل من هذا الجمهور الكبير. كانت البيانولا تُجر على عجلات صغيرة ويعزف عليها مهرج «لُورد» يرتدى بدلة «سموكن» وقبعة

سوداء عالية ويرقص على ألحانها ثلاثة مهرجين بوجوه ملونة وأنوف كبيرة تنتهى بكرات حمراء صغيرة وفوق رؤوسهم طراطير طويلة ويرتدون بدلاً ملتصقةً بأجسامهم مخيطًا عليها رُقع زاهية الألوان، قاموا بألعاب بهلوانية أبهجت الجماهير وعوضتهم عن عدم استمتاعهم بالموسيقى الغربية المنبعثة من البيانولا المزينة بصورة فتاة شقراء ذات صدر عارٍ ونظرة جانبية حالمة.

****

لحسن جنزير ذى الصدر الخرسانى والكتفين الفولاذيتين جمهور محدود هم الشباب الفتى الذين هم فى مرحلة الوعى بأجسامهم كجزء مهم من وعيهم الكلى بذواتهم. مر الرجل مختالاً بقامته المديدة وعضلاته المفتولة عارى الصدر والبطن حتى حزام بنطلونه «الدانجاريه» ذى الإثنى عشر جيبًا. يتقدم نحوه رجلان يقيدان جسمه قيدًا محكمًا بجنزير طويل غليظ، فترى الجماهير صراعًا مريرًا بين الجنزير والعضلات ينتهى بارتخاء الجنزير الحديدى واستسلامه للعضلات المفتولة.

****

يبدو أن منظمى العرض كانوا بورسعيديين أقحاح يعرفون كل المشاركين فيه معرفة جيدة، فقد أتبعوا فقرة حسن جنزير بفقرة نوال آكلة النار والزجاج والمسامير وهى الفتاة الى أحبها حسن جنزير حب عبادة وما فتىء طوال السنتين الماضيتين يطلب يدها للزواج لكنها ترفض لظروفهما المالية السيئة.

لم تأكل نوال الزجاج والمسامير فى هذا العرض واكتفت بابتلاع

النيران، وهذه أفضل ألعابها وأحبها عند الجماهير. بدأت نوال بقذف السيخين المشتعلين عند طرفيهما ثم التقطتهما بيديها من خلف ظهرها. قذفتهما مرة أخرى وقبل أن يسقطا رفعت فخذها اليسرى ومدت يدها من تحتها فالتقطت أحد السيخين المشتعلين ثم اعتدلت بسرعة والتقطت الآخر من تحت الفخذ اليمنى. سمعت نوال من الجماهير بعض التعليقات تغزلاً فى جمالها وليونة جسمها وتعليقات أخرى تحثها على النظر بعين العطف إلى حسن جنزير المتيم بحبها. ابتسمت نوال لهذه التعليقات وواصلت قذف شعلتيها فى الهواء.

****

استمتع الأطفال بكل فقرات المهرجان ابتداءً بفروسية ملك الفقر إلى بهلوانية نوال وبراعتها فى اللعب بالنار، لكن متعتهم كانت ستكون ناقصة نقصًا كبيرًا لو أنهم عادوا إلى منازلهم من غير أن يروا الشيخ أحمد. فإلى جانب متعة مشاهدته فى حد ذاتها كانت هناك متعة المشاركة فى ألعابه ورقصاته.

سُمعت دقات طبول عُرف على الفور أنها الطبول المصاحبة له. مال الأطفال المصطفون على حواف الأرصفة بجذوعهم إلى الأمام وأداروا رؤوسهم ناحية قدوم الفرق لعل عيونهم تلمح الفتى الذى جاءوا من أجله.

ارتفعت أصوات الطبول رويدًا رويدًا، وها هو الشيخ أحمد يظهر أمامهم بتسريحته النابليونية وخصلة شعره المنسدلة على جبهته المثلثة ولسانه الوردى وابتسامته المنغولية الآسرة، يحيط به ويمشى خلفه مئات الأطفال الذين تركوا أماكنهم على الأرصفة وانضموا إلى ركبه. قبل بدء

العرض ألبسوه تاج الهنود الحمر الريشى فوق رأسه وعُقد فُل مزدوج على صدره العارى وجونلة هايتيه كاشفة عن فخذيه، ورقص رقصاته الهندية المجنونة على دقات طبولهم السريعة وهم ملتفون حوله فى دوائر متحركة زاهية الألوان. يصيح الفتيان منهم:

يابو الريش   انشالله تعيش

وتردد الفتيات:

ونجيب لك   كيسين قراميش

فيرد الشيخ أحمد بالتعبير الصوتى الذى جادت به عليه مقدرته الكلامية لكن بحماس وقوة دلا على إدراكه معنى الموقف الذى يخوضه:

إيـــش إيـــش   إيـــش إيـــش

وبعد رقصة الهنود الحمر وضع الأطفال مقود سيارة قديم فى يديه فانطلق يعدو به ويحركه حركة دائرية أمام وجهه كمن يقود سيارة وينبه الناس أن يُفسحوا له الطريق:

بـــيب بـــيب   بـــيب بـــيب

والأطفال خلفه يمسك كل منهم فى ظهر الآخر مشكلين قطارًا بشريًا من البهجة والمرح.

****

قطع الموكب شوطًا طويلاً ووصل إلى نهاية شارع الجمهورية لينعطف يسارًا إلى شارع ٢٣ يوليو فى اتجاه المحافظة، وقبل الوصول

النهائى بنصف كيلو متر حل التعب بأفراد فرق الفنون الشعبية المترجلة وفتر حماس ممثلى البانتومايم ولم تجد الفتيات الحسناوات ورودًا يلقينها واكتفى حسن باستعراض عضلاته كما اكتفت نوال بابتلاع كرة نار كل خمسين مترًا.

لكن هذا لم يكن حال الشيخ أحمد ورفاقه الذين ما انفك حماسهم يزداد وأصوات طبولهم تعلو وإيقاعهم يزداد سرعة وعنفا ووصلت الحمى إلى أقصاها عندما أحضروا شعلة كبيرة ووضعوها فى يد زعيمهم المميز عنهم بتاجه الريشى وكروموزوماته السبعة والأربعين ودفعوه أمامهم فانطلق عدوًا تجاه مبنى المحافظة الذى أقيم أمامه سرادق فخم جلس فى صدراته المحافظ وكبار المسؤولين والأعيان.

تدخل المشرفون على تنظيم العرض بسرعة وأعادوا الشيخ أحمد والأطفال إلى مكانهم المحدد لهم حتى تصل الفرق إلى مبنى المحافظة حسب البرنامج الموضوع الذى حدَّد وصول ملك الفقر أولاً ثم الحرف الشعبية ثم عربات الورود .... إلخ. وقبل مائتى متر تقريبًا من السرادق وتحديدًا فى هذا الجزء من الشارع الواقع بين جامع لطفى شباره والكنيسة الإيطالية تلقى ملك الفقر رصاصة فيما بين عينيه. لم يسمع معظم الناس دويها. لكن الذين كانوا يشاهدونه يهتز فى خيلاء وكبرياء فوق فرسه الشهباء ويتفرسون فى عينيه استلهامًا للعزة رأوا الدم يتفجر من وجهه ويسيل على بدلته المرصعة بالميداليات الذهبية. انكفأ الملك على رقبة فرسه فارتبكت خطواتها وقفزت عدة قفزات مترنحة وندت عنها أصوات بين الصهيل والأنين.

انقلب العرض إلى فوضى شاملة. صرخ الأطفال ذعرًا وتناثرت الجماهير فى الشوارع الجانبية وهربت عربات الورد والحرف الشعبية، وسرعان ما وصلت قوات الأمن بعصِيِّهم وصداداتهم وانتشروا فى الشوارع لإعادة النظام وبث الطمأنينة فى قلوب الجماهير المذعورة وأخذوا الشعلة من يد الشيخ أحمد الذى بدا أنه لم يع الموقف الطارىء إذ استمر فى جريه وترديد أغانيه بنفس القوة والحماس:

إيش إيش　　　إيش إيش

بيب بيب　　　بيب بيب

لكن دونما رد من محبيه الأطفال.

٢ مطاردة الخنازير

ليل الخنازير مُقرف وإن صفت سماؤه أو ازدانت بقمر بدر ونجوم متلألئة. تنبعث فى أجوائه روائح كريهة مقززة ويُسمع فيها شخر الخنازير ونخرها وتمتلىء الطرقات بقذرها وبالنفايات التى تأكلها. يتحمل ابراهيم الدهشان المشى فى مثل تلك الطرقات ليصل إلى ابنه الذى يعرف أنه يرقد فى إحدى حظائرها. يمشى الرجل بطيئًا حريصا حتى لا ترتطم ساقاه بإحداها رغم الكشاف الذى ينير بعض طريقه. كان يمسك الكشاف باليد اليمنى ويضع منديلاً مبللاً بالكلونيا على أنفه وفمه ليتجنب الروائح النتنة المطبقة على المكان أو ليخفف من تأثيرها على نفسه. يفاقم من قرفه من هذه الحيوانات شعوره الدينى نحوها فيصاب بقشعريرة تسرى فى كل كيانه لمجرد احتكاكها بساقيه، لكن هذا الإحساس العدائى نحو الخنازير لا يلبث أن يزول عندما يتذكر أن ابنه يرقد الآن وسطها وربما يأكل من أكلها.

- يا أحمد. يا ولا يا احمد. إنت فين يالا ؟

وجه الكشاف إلى أول حظيرة قابلته ومكنه ضوؤه المتنقل بين كل أجزائها من رؤيتها كلها دون دخولها فجنبه ذلك الخوض فى أوساخها

والاحتكاك بخنازيرها. رأى عبر الأسوار خنزيرة تلد وأخرى راقدة وصغارها ملتصقين ببطنها يرضعون من أثدائها وخنزيرًا واطئًا أنثاه وآخر نائما بجانبهما.

– أحمد. يا ولا يا أحمد.

خطا بضع خطوات أخرى ووجه الكشاف إلى الحظيرة التالية. تناهى إلى سمعه شخير ابنه فوجه الكشاف نحوه. وجده راقدًا على ظهره ممدد الذراعين والساقين وبجانبه زوجان من الخنازير راقدين. دخل الحظيرة ولم يمش فيها كثيرًا إذ كان ابنه لحسن الحظ قريبًا من بابها. كان عاريًا إلا من الجونله الهايتيه وكان التاج الريش لا يزال مثبتًا فوق رأسه وإن كان طين الحظيرة قد لطخه كما لطخ كل جسمه.

– أحمد. إصح يا احمد. أنا أبوك يالا. قوم اصح. جبت لك شوكولاته وموز. أهم. قوم بقى، ألله!

كان الأب ينغزه برفق فى جسمه أو يربت خديه براحة اليد. توقف الشيخ أحمد عن الشخير ثم نادى أباه وهو مغمض العينين:

– بابا .. بابا.

– أيوه يا أحمد أنا أبوك. قوم تعالى معايا. يالله قوم.

ردد الشيخ أحمد أناشيد الموكب فجأة:

إيش إيش   إيش إيش

بيب بيب   بيب بيب

فقال أبوه منفعلاً:

- إيش إيه يا احمد وبيب إيه؟! ما الموكب خلص خلاص وملك الفقر راح فطيس والحمد لله إنك طلعت سليم. قوم يالله، قوم.

أنهضه الأب بصعوبة ثم اقتاده إلى خارج الحظيرة ثم إلى السيارة التى تركها فى شارع الأمين. كان الشيخ أحمد منهوك القوى من المجهود غير العادى الذى بذله فى المهرجان وعندما أجلسه أبوه فى السيارة مال إلى الخلف ليواصل نومه فقال الأب:

- قوم يا احمد خد الموزة دى، وحالاً هنوصل البيت.

التقط أصبع الموز من يد أبيه وقضم قضمة كبيرة فقال أبوه بغضب:

- قشره يا احمد. ميت مره أقول لك لما تيجى تاكل الموز تقشره وترمى قشرته. كده أهو.

قشر الرجل أصبعًا وأعطى لابنه الثمرة بدون القشرة التى رماها من نافذة السيارة المسرعة. التفت الشيخ أحمد تجاه القشرة الطائرة فى الهواء وهم بفتح الباب للقفز وراءها فمسكه الأب الذى صاح بغضب وانفعال:

- هتموّت نفسك يا غبى.

- بابا . موز.

- ماهو الموز كتير أهو. خد، كله بقشره، أهو عندك كله أهو.

إنشالله حتى تاكل الكيس الورق كمان.

- أخذ الشيخ أحمد كيس الموز من أبيه وأكل نصفه بقشره وقشر النصف الباقى قبل أن يأكله، ثم قال:

- بابا . لاته.

- أهى يا عمى الشيكولاته. مبسوط؟

فضض أوراق لوح الشيكولاته الكبير والتهمه بسرعة وقال:

- بابا. لاطه.

- مفيش تانى. لما نروح البيت تبقى تاكل وتملا بطنك بعد ما تستحم وتغير اللى انت لابسه ده. ريحتك فظيعة، الله يقرفك!!

وبعد لحظة قال الأب وهو يقرب خده من الشيخ أحمد:

- بُسنى يا أحمد.

مال الإبن بجسمه الضخم العارى القذر على أبيه وطوق عنقه بكلتا ذراعيه وقبله فى خده قبلةً طويلة مصحوبة بصوت مرتفع. ابتسم الأب ابتسامة رضى ثم قال:

- بتحبنى يا احمد؟!

لم يفه المنغولى بكلمة للرد على أبيه لكنه مال عليه مرة أخرى وقبله قبلة أطول من سابقتها وأعلى صوتًا. فقال الأب:

- كفاية يا احمد، كفاية هتخنقنى. أوعى أما أشوف إيه اللى جاى

ده. باينها الخنازير والعيال بيجروا وراها.

كان ثمة ثلاثة خنازير مقبلة بسرعة. تفاداها الرجل لكنه رأى بعد لحظة قطيعًا كبيرًا يركض بسرعة كبيرة فى الاتجاه المقابل فأيقن أنه سيشاهد مطاردة للخنازير من صبية حى العرب. وعادة ما كان يشاهد هذه المطاردة كلما جاء إلى تلك المنطقة للبحث عن ابنه(*).

تدلي لسان الفتى المنغولى خارج فمه وجحظت عيناه فى اتجاه الخنازير المطاردة وقال:

– بابا . أوتس.

– أوتس إيه يا احمد. خليك قاعد مكانك.

– بابا . أوتس.

– خليك فى حالك يا أخى!!

وضع الأب يده اليمنى عليه خشية أن يفتح الباب ويخرج لينضم إلى الخنازير. إذ كثيرًا ما رآه الأب يجرى معها وكان لا يسلم بطبيعة الحال من الحجارة الملقاة عليها وكان الصبية والحق يقال يصيحون عليه أن يترك الخنازير وينضم إليهم لكنه لم يكن يستمع إليهم وكان يستمر

(*) كان مربو الخنازير يطلقونها بعد منتصف الليل لترعى فى شوارع حى العرب. لكن الصبية ومن باب الشيطنة كانوا يطاردونها خاصة فى ليالى الصيف وكانوا يستخدمون بعض العنف ضدها كإلقائها بالحجارة أو ضربها بالعصى على ظهورها أو وخزها فى مؤخراتها. وكانوا أثناء المطاردة يطلقون صيحات غريبة غامضة مثل «أووتس» أو «تسك تسك».

فى الركض مع الحيوانات التى لم تكن لتتوقف إلا فى الحظائر وهو معهم.

وصلت السيارة إلى البيت فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وقبل أن يدخل ابراهيم الدهشان والشيخ أحمد كانت رائحة الخنازير قد سبقتهما إلى الداخل فقالت زوجة الأب:

- إف ! إيه ده ؟! الريحة فايحة زيادة المرة دى! يالله عالحمام دُغرى.

دخل الأب والأبن الحمام ومكثا فيه نصف ساعة خرج بعدها الشيخ أحمد نظيفًا، ينسدل شعره البنى المخملى فوق جبهته نديًا بالماء الساخن ولامعًا بالزيت المعطر. عيناه زرقاوان وابتسامته مشرقة فصاح أخوه الذى استيقظ منذ دقائق قليلة وقال:

- أوه ! قمر يا احمد قمر! يا سلام عليك يا احمد! كنت ملعلع النهارده. ولولا حادثة ملك الفقر دى كنت خدت الجايزة الأولى.

أخرج تيسير مشطًا من جيبه وجعل يمشط شعر أخيه وقال:

- أيوه ! كده بقت التسريحة جميلة. يالله بقى عالمطبخ. فيه فراخ وحمام ومكرونة. هتهيص النهارده.

جلس الأخوان إلي المائدة، وكان يحلو لتيسير أن يُطعم أخاه بنفسه. ويحادثه أثناء تناول الطعام:

- ما تورينى كنت بترقص إزاى فى الموكب يا احمد.

ترك الشيخ أحمد منضدة الطعام وأخذ يرقص رقصة الهنود الحمر لكن بدون التاج الريش والجونلة الهايتية اللذين رماهما الأب فى صفيحة الزبالة. غنى تيسير:

يا بو الريش   انشالله تعيش.

ونجيب لك   كيسين قراميش

ورد الشيخ أحمد وهو يرقص:

إيش إيش   إيش إيش

إيش إيش   إيش إيش

ثم قال تيسير:

- طب اقعد يا احمد كمل أكلك الأول.

فى أثناء الأكل انتقل تيسير إلى شىء محبب إلى نفس أخيه؛ وهو تسمية أعضاء الوجه والجسم. وكان تيسير فى الواقع يعتقد أنها اختبار لإدراك أخيه ولمقدرته اللغوية:

- إيه ده يا احمد؟

- بُقى.

- وإيه دى؟

- عينى.

- براڤو عليك. طب وإيه دى؟

- خيرى.

- مد تيسير يده إلى صدر أخيه وقرص حلمته وقال:

- وده ؟

- بزِّى.

- وإيه دى اللى أنت قاعد عليها ؟

- طيزى.

تدخل الأب وقال معترضًا:

- خلاص بقى يا تيسير. كفاية كده. يا أخى قلت لك ميت مرة ماتعلموش قلة الأدب دى.

لكن الشيخ أحمد استكمل التسمية دون طرح السؤال التالى المفروض أن يُطرح عليه من أخيه فأشار إلى جهة ذكره وسماه.

انفجر تيسير فى الضحك وابتسم الأب وهو يهز رأسه:

- شفت يا بابا. مش قلت لك الواد ده ذكى وعارف كل حاجة!

فى الساعة الثالثة قبيل الفجر نام كل من فى المنزل ما عدا الأخوين إذ ظل تيسير يمازح أخاه الشيخ ويحادثه حتى طلوع الفجر. كان يعرف أن أباه سيسافر به إلى القاهرة ويضعه فى أحد المراكز المتخصصة فى رعاية من هم فى مثل حالته ولم تكن المرة الأولي التى يفعل فيها الأب ذلك إذ وضعه من قبل فى ثلاثة مراكز مختلفة لكن الفتى المنغولى كان يهرب منها ويعود إلى بورسعيد.

فى الصباح ألبسه الأب والأخ ملابس جديدة وقالت زوجة أبيه وهي تضع حقيبته على الأرض.

- كل هدومه وحاجاته فيها.

ثم أردفت قائلة لإبن زوجها:

- تبقى ترميها والا تقطعها زى عوايدك يا شيخ أحمد!

فقال أبوه متفائلاً:

- لا. المرة دى هيحافظ عليها زى عينيه.... مش كده يا احمد.

فقال الشيخ أحمد بصوت مرتفع:

- أيوه.

وقال تيسير وهو يمد يده بوردة حمراء إلى أخيه.

- خد الوردة دي حطها فى عروة الجاكتة.

أطاعه الشيخ أحمد وتناول الوردة ووضعها فى العروة مقلوبة فقال أخوه:

- مش كده ! حطها كويس. مش علمتك ازاى تحطها . ورينى... أيوه . كده بقيت عريس.

وقال تيسير وهم متجهون إلى سيارة الأب.

- أحمد. ابقى اهرب. وارجع تانى، آه . إهرب بسرعة وارجع تانى.

فقال الأب متظاهرًا بالضيق:

– الله يهديك يا تيسير. يا أخى سيبه فى حاله وما تحرضوش. يعنى يرضيك عيشة الخنازير اللى بيعيشها هنا؟!

– يعنى يا بابا هو كلامى هو اللى هيخليه يرجع بصحيح؟ ما هو راجع راجع من غير ما حد يقوله. وهيهرب من الملجأ وانت عارف كده كويس.

– لأ، المرة دى مش هيقدر يهرب. عمك السيد اختار له أحسن مؤسسة، اللى البهوات والبشوات بيحطوا أولادهم فيها. حاجة فخمة وراقية جدًا. التكاليف عالية صحيح لكن انت عارف عمك ما بيتأخرش فى أى حاجة.

– طيب هتشوف يابابا. كلها أسبوع والا اتنين وهتروح تجيبه من زريبة ويصا والا من زريبة الخواجة بنايوتى..... مع السلامة يا احمد مفيش بوسه لاخوك تيسير.

فتلقى تيسير عدة قبلات متلاحقة ومرتفعة الصوت.

****

٣ «دار الحنان»

اصطحب إبراهيم الدهشان إبنه إلى دار المعوقين التى كانت فى الأصل أحد القصور القديمة. كان قصرًا منيفًا تحيط به حدائق غناء مكسوة أرضها بنجيل كثيف مشذب بعناية فتحسبه بساطًا أخضر فُرش أسفل الأشجار الوارفة الظلال. تطير فى أجوائه الرحيبة طيور جميلة مغردة، وهناك طيور أخرى أكثر جمالاً وأعذب صوتًا تحجل فى أقفاص صغيرة وتطير طيرانًا قصيرًا فى فراغها المحدود. وأقفاص أخرى كبيرة تتقافز فيها نسانيس ظريفة دُرب النزلاء على تقديم الفول السودانى لها.

النظام فى «دار الحنان» مثالى، وكذلك النظافة. يعمل فيها أطباء متمرسون وممرضات صبورات.أما النزلاء فهندامهم جميل وسلوكهم مهذب وابتساماتهم حاضرة.

لم يغادر ابراهيم الدهشان الدار إلا بعد أن اطمأن إلى تأقلم إبنه. كان طيعًا مع الطبيب الذى كشف عليه ومع الممرضة التى رافقته إلى غرفته. تناول وجبة الغداء فى المطعم العمومى ثم انطلق إلى الحدائق الغناء وقضى معظم وقته عند أقفاص القرود التى كانت تقشر الموز قبل أكله وتضع القشر فى السلال الموضوعة بأحد أركان القفص.

****

بعد أن خرج إبراهيم من «دار الحنان» توجه إلى مسكن طالبات جامعة القاهرة بالجيزة حيث قام بزيارة سريعة لسلوى إبنة أخيه ثم عاد إلى بورسعيد فى نفس اليوم فتوجه مباشرة إلى مبنى المقر الإدارى للشركات والأعمال التى يمتلكها أخوه السيد.

– حمدا لله عالسلامة يا ابراهيم. إيه الأخبار؟

– كله تمام والحمد لله.

– وإيه رأيك فى المكان؟

– رائع ! لا تقولى سميراميس ولا الكونتيننتال. فخامة ونظافة، وعناية كاملة.

– مش قلت لك؟!... وشفت الحراسة؟

– مفيش بعد كده! نظام إيه ودقة إيه! والنزلاء عمرهم ما يحسوا إن فيه قيود أو حراسة عليهم.

– نظام أوربى يا أخى ! «دار الحنان» دى معمولة على نمط واحدة تانية موجودة فى باريس. وأصحابها جابوا لها أخصائى فرنسى عشان يشرف عليها.

– صمت السيد قليلاً ثم استطرد قائلاً:

– وبكده هنضمن إنه لا هيرجع يعيش مع الخنازير ولا عيال البلد تضربه أو تضايقه. مش كده أحسن برضه؟

– أحسن بكتير!!

تذكر ابراهيم إبنة أخيه فقال:

- سلوى بتسلم عليك.

- انت برضه رحت لها!

- طبعًا . هو معقول أكون فى مصر وما أعديش عليها!

- وعامله إيه؟

- الحمد لله كويسه. وبتقول لك مش هتيجى إلا لما تخلص التدريب.

- أحسن برضه. وعلى كل حال أنا مسافر بعد أسبوع وهابقى أعدِّى عليها.

- مش تبقى طيب تعدى على نسايبنا الجداد وتاخد لهم زيارة من بورسعيد. يعنى... شوية بورى على شوية جمبرى. الحقيقة الجماعة بيعملوا الواجب لما بيزورونا. كل خيرات بلادهم بيجيبوها لنا. إيشى بط وإيشى وز. وحمام وديوك رومى وعسل نحل. برضه زيارة منك ليهم تبيض وش البنت قدامهم.

- مفيش داعى يا إبراهيم. مفيش داعى. أنا ما أروحش لحد. وما تنساش إن اللى بينا ده مجرد كلام. لا حصل كتب كتاب ولا خطوبة حتى. وبعدين هُمّ بييجوا بورسعيد مش عشان يزورونا ولا عشان يجيبوا الحاجات الى بتقول عليها دى لكن عشان يسألوا علينا ويشوفوا أصلنا وفصلنا فى البلد.

- أصلنا احنا؟! ده برضه كلام ياسيد! ده كان كفاياهم خمس دقايق بالعدد علشان يعرفوا إحنا مين وأصلنا إيه!

- مش بالبساطة دى يا ابراهيم. الناس اللى زَىّ دول النسب عندهم حاجة كبيرة قوى. زينا بالظبط ويمكن أكثر.

- وأنت عرفت ازاى انهم سألوا علينا؟

- عمك محمد الغنام قال لى، هو وعزب الجمل وخليل درباله، بطريقة غير مباشرة طبعًا.

- وسألوا عزب الجمل كمان؟!!

- أهو ده اللى حصل. يمكن ما يعرفوش العلة اللى فيه. والا يمكن لهم فلسفة فى كده. يعنى يقولوا إن مايعرفش مخابىء العلل إلا أهل العلل. المهم ان عزب وخليل وعمك محمد حلفوا لى إنهم بيضوا وشنا وقالوا لى أنهم انبهروا لما سمعوا عن مكانتنا فى البلد.

- وهو فيه غير كده ياسيد؟

لم يرد السيد على أخيه وما لبث أن عبس وجهه، ثم قال:

- تفتكر ممكن يعرفوا حاجة عن الشيخ أحمد؟

- هيعرفوا إيه يعنى؟! ولو عرفوا هيعرفوا الحاجات اللى أهل البلد كلهم عارفينها. ده تاريخ واستقر على كده.

- خايف يوصلهم حاجة بخصوصه.. يعنى إنه ابنك بصحيح!

- مفيش داعى للوساوس دى يا سيد. الولد اتعرف خلاص انه

ابنى بالتبنى، زيُّه زى سعاد بنت الحاج أمين وأسامه ابن فتحى باشا. البت سعاد أهي ماشاء الله عليها بقت عروسة والكل عارف ان اسامه مش ابن فتحى باشا والوله نفسه عارف كده، واهو ما شاء الله عليه ماسك شغل الباشا وكل حاجة فى إيده وألف بنت تتمناه. وعيال كتير غيرهم اتبناهم ناس من أهل الخير أو ناس محتاجة خلفة. ما انت عارف المواضيع دى يا سيد. يعنى مفيش داعى تشغل نفسك بموضوع الشيخ أحمد خالص.

- طب ابقى قول للواد تيسير ابنك يبطل كل شوية يقوله انه أخوه.

- الوله بيحبه يا سيد. وانت عارف انه مش هو لوحده اللى بيحبه. كل عيال البلد بتحبه. ولو تيسير كان متأكد ان أحمد يبقى أخوه كان زمانه......

بدا ان ابراهيم لم يعرف ماذا يقول فقال أخوه جازمًا.

- كان زمانه كرهه. أيوه يا ابراهيم كان هيكرهه. هو الوقت بيحبه لانه لعبة بيلعب بيها زى ما عيال البلد بتلعب بيه. لكن لو عرف انه أخوه بجد وانه من لحمه ودمه هيكرهه ويتمنى له الموت لانه فى الحالة دى هيكون عاره مش لعبته.

صمت ابراهيم ووجم فقال أخوه:

- بص يا ابراهيم. إحنا عملنا اللى علينا من ساعة ما اتولد. جبنا له أحسن دكاتره وودنياه أحسن مستشفيات، لكن أهُه . ده نصيبه ونصيبنا. وبرضه مش حسيبه وهاصرف عليه بدون حدود. لكن مجيُّه

بورسعيد تانى لأ. الناس لازم تنساه خالص وكمان تنسى انه كان ابنك حتى بالتبنى. وده مش هيتم إلا إذا اختفى من بورسعيد نهائيًا. كفاية لغاية كده يا ابراهيم. البنت على وش جواز وانت عارف ان اللى متقدم لها واحد من عيلة باشوات وبهوات وماسكين أكبر المراكز فى مصر. مش عايزين نبان إننا أقل منهم فى أى حاجة أو يمسكوا حاجة على عيلتنا. يعنى موضوع الشيخ أحمد... أقصد لو عرفوا إنه ابننا يبقى شوف صورة العيلة هتتهز أد إيه. ولو فرض انهم وافقوا على الجوازة وهُمَّ عارفين فمعنى كده انهم قبلونا على علة، وأنا مش ممكن أقبل بكده أبدًا. لازم يعرفوا ان البنت جايلهم صاغ سليم ومن عيلة زى البرلنت، لا فيها علة ولا خدش صغير. إنت فاهمنى يا ابراهيم؟

****

٤ عائلة الدهشان العريقة

السيد الدهشان رجل أعمال ثرى وله مشروعات خيرية كثيرة. وُلد ونشأ فى شارع سعد زغلول بحى العرب، وحصل على شهادة التجارة المتوسطة التى أهلته لإحدى الوظائف الحكومية وبجانب الوظيفة تولى حسابات أحد موردى الأغذية للجيش الانجليزى ولم يلبث بعد سنوات قليلة أن زاول هذه التجارة بنفسه ثم أصبح بعد وقت غير طويل من أهم الموردين. كسب أموالاً طائلة لاسيما بعد انسحاب قوات الاحتلال من القاهرة وسائر الأقاليم وتمركزهم فى منطقة القنال. وبالأموال المتوفرة لديه انتقل إلى أنشطة أخرى من أهمها تموينات السفن وصيانتها وبناء مراكب الصيد وبيعها فصار من كبار أعيان بورسعيد ولولا قيام الثورة لكان حصوله على لقب «باشا» مؤكدًا.

كان من أسرة بورسعيدية طيبة فلم يستطع الناس بعد أن أصبح ثريًا أن ينقذوا إلى شىء مشين أو مريب فيها . فأبوه كان موظفًا فى الجمرك وذا سمعة طيبة فى العمل والمدينة. حسن الهندام والمعشر. يجلس على مقهى البرنسات مع صفوة موظفى المدينة المحترمين أما جده فكان يمتلك دكانًا كبيرًا وكانت له تجارة رائجة.

للسيد أخت تدغى علية تصغره بثلاثة أعوام أما أخوه ابراهيم

فيصغره بستة أعوام. تتمتع علية لحسن الحظ بجمال وافر فتقدم للزواج بها عدد كبير من شباب المدينة، أختار السيد لها أحمد اللمعى سليل عائلة اللمعى العريقة. لم يخف السيد سعادته لتلك الصدفة التى جعلت أخته على هذا القدر من الجمال خاصةً عندما كان يتذكر رسمية إبنة الحاج محمود الغراز المقاول الثرى المعروف الذى اضطر بسبب دمامتها وبعد أن بلغت الثلاثين أن يزوجها عاملاً من عماله وسط تعاطف الناس مع البنت وشماتتهم فى أبيها. «وياسلام عالدنيا! يعنى كل الفلوس اللى لها الحاج محمود طول السنين دى هياخدها إبن المجايرى عالطبطاب».

بعد عامين من زواج عليَّة تزوج السيد بفردوس، أجمل بنات عائلة الأسمر ورزق منها بسلوى وسامى وسونيا، ولم يتبق إلا إبراهيم الذى تخرج فى كلية التجارة وعُين فى البنك الأهلى. ثم استقال بعد سنتين وعمل نائبًا لأخيه، وعندما آن أوان زواجه كان السيد فى قمة الهرم الاجتماعى فى المدينة فسهل عليه أن يزوجه آمال إبنة المستشار فاضل الغمراوى رئيس محكمة بورسعيد، وقد أضفت هذه الزيجة على الأسرة شرفًا لم يستطيعوا تجنب المباهاة به.

بعد سنة من زواجهما أنجب إبراهيم وآمال طفلاً أخذ كل صفات أمه الجميلة: البشرة الحمراء والعينان الزرقاوان والشعر البنى الناعم. وعندما زار السيد زوجة أخيه النفثاء سُر لجمال الوليد لكن ماهى إلا لحظات حتى اقشعر بدنه حين أمعن النظر ورأى شيئًا غير عادى فى نظرات الطفل الوليد.

عاود السيد الزيارة بعد ثلاثة أيام وتأكد أن الطفل كان غير طبيعى

فقرر أن يسافر به إلى القاهرة لعرضه على أطبائها. وهناك صدقت هواجسه وعرف أن الوليد كان منغوليًا.

ظل عدة أيام يواسى أخاه وزوجته، أما هو فلم يشعر أحد بخيبة أمله إلا زوجته ولم يخفف من وطأتها على نفسه إلا قراره بتطليق أخيه من إبنة المستشار. قال لإبراهيم بعد أن عادا إلى بورسعيد تاركين الطفل وأمه فى القاهرة:

- هتعمل إيه يا إبراهيم بعد كده؟

- هاعمل إيه فى إيه؟ أنا فى إيدى حاجة أعملها؟ اللى أراده ربنا عمله وأنا أمتثلت لمشيئته.

- آمنت بالله. لكن ربنا برضه عطانا عقل نفكر بيه ونشوف إيه الأحسن عشان نعمله.

صمت السيد قليلا ثم استطرد قائلا:

- انت اتجوزت بنت جميلة. ومتعلمة، وبنت ناس، وكان أملنا أن عيالك يطلعوا يشرفوا العيلة، يعنى زى عيالى وعيال أختك عليَّه. لكن أهو... أول الخلفة جت زى ما انت شايف. وانت راجل متعلم ومتنور يا ابراهيم وعارف كويس ان العرق دساس. يعنى بصراحة لو فيه عيال تانية يبقى احتمال كبير تكون زى الوله اللى إجا ده.

وجم الأب المنكوب ووضع أصابعه على عينيه ليكفكف دمعه. وقال أخوه:

- شوف الحكاية دى مسببة لنا حزن وغم أد إيه؟ عايزك بس

تتصور رد فعلها هيكون إيه فى بورسعيد بعد كده لما الناس تعرف. يرضيك نعيش فى بورسعيد واحنا تحت نظرات الشماتة دى؟ إحنا؟ عيلة الدهشان نبقى كده يا إبراهيم؟

فهم إبراهيم قصد أخيه ومع ذلك قال فى يأس وعجز:

- طب إيه اللى ممكن يتعمل؟

ولكى لا يصدم أخاه لجأ السيد إلى جوانب الموضوع الإيجابية فقال:

- ما تخافش على الوله يا ابراهيم. هيلاقى أفضل رعاية من الدكاترة والمربيات. أما من ناحية آمال فالموضوع هينتهى بالمعروف وبالتراضى وهنعطى لهم كل اللى هُمّ عايزينه. وانت قدامك بنات بورسعيد. اختار أجمل واحدة فيهم ومن أحسنها عيلة، والنهارده قبل بكرة.

واستطرد السيد قائلاً وكان أخوه لا يزال واجمًا:

- والوقت عايزين نرتب للموضوع ده بحيث يكون طبيعى ومافيهوش حاجة غريبة تخلِّى الناس تتكلم عنه كده والا كده..... معلش يا ابراهيم، إحنا ربنا ابتلانا ولازم نتحمل شوية عشان اسم العيلة ما يكونش سيرة على كل لسان. مش عايز أقولك ان حكاية الوله ده لو اتعرفت هتبقى فضيحة وهتبقى وصمة عار للعيلة وهتلزق فيها للأبد.

******

لم يتوان السيد الدهشان فى تنفيذ خطة تجنب أسرته عار العُته.

سافر إلى القاهرة مرة أخرى واستأجر لزوجة أخيه شقة فاخرة على النيل وجهزها بأثاث ومفروشات فاخرة. وقد علم الناس فى بورسعيد أن آمال زوجة ابراهيم تفضل الإقامة فى القاهرة حيث عاشت معظم فترات عمرها وحيث يعمل أبوها الآن رئيسًا لإحدى المحاكم. هذه المعلومات وغيرها مما سيجىء ذكره عرفها الناس من رجال السيد الدهشان الذين كانوا يصنعون الأخبار التى كان السيد الدهشان يريد أن يعرفها الناس ثم يروجونها بطريقتهم الخاصة. فبعد ثلاثة أشهر مثلاً أخبر السيد عوض (أحد رجال السيد الدهشان) قريبًا له أن إبن ابراهيم الدهشان الوليد مات من نزلة شعبية حادة، ولم يمض يومان حتى كانت البلد كلها قد عرفت بخبر الموت هذا. وبعد ثلاثة أشهر أخرى، أسر السيد عوض لصديقه كمال اللبودى أن ابراهيم الدهشان على خلاف مع زوجته إبنة المستشار. وبعد أسبوعين سأل كمال السيد عوض إن كان الخلاف بين ابراهيم الدهشان وزوجته قد سُوِّى فرد السيد عوض بحزن شديد بأن الخلاف بينهما قد احتدم وأن ابراهيم يفكر جديًا فى طلاقها. وبعد أسبوعين سأله عمّ تم فقال السيد عوض متكدرًا :

– أقول لك إيه يا كمال. والله أنا مهموم ومغموم من اللى حصل.

– خير إنشالله يا سيد.

– والله أنا ما عارف إن كان خير والا شر.

– ياساتر يارب ! إيه بس اللى حصل يا سيد ما تتكلم

– ابراهيم طلق مراته، تصور؟!

– معقولة ؟!!

– أهو ده اللى حصل. أخوه السيد وقف قصاده وحاول يمنعه عن حكاية الطلاق دى، لكن ابراهيم ركب راسه وصمم عليه.

– خسارة ! البنت حلوه وأصيلة وبنت ناس.

– لكن هتقول إيه؟! عين وصابته. لكن نرجع ونقول الحمدلله ان مفيش عيال بينهم. الواد اللى كان عندهم ربنا افتكره بعد ما اتولد بشهرين. كان زى القمر يا كمال. ماتشبعش من الفرجة على حلاوته.

وتزوج ابراهيم للمرة الثانية أجمل بنات عائلة حراز التى كان من الصعب اختراقها بالمصاهرة لكنهم وافقوا عليه لأن عم العروس كان على وشك الدخول شريكا مع السيد الدهشان فى مشروع تجارى ضخم.

******

كان ابراهيم مطمئنًا تمامًا إلى وضع الطفل بعد انفصاله عن أمه التى تزوجت هى الأخرى، فقد أودعه السيد الدهشان عند نبوية إبنة خالة أمه التى كانت تقيم بالقاهرة. كان الطفل قدم السعد عليها وعلى أسرتها إذ أغدق السيد الدهشان عليها الأموال والهدايا وأخبرها أنها تستحق كل هذا ليس فقط لعنايتها بالطفل لكن لكتمانها سره.

مرت عشر سنوات أنجب ابراهيم خلالها «تيسير» وميرفت» اللذين كانا طفلين جميلين وطبيعيين فأزالا تقريبًا آثار صدمة إبنه الأول. لم ينقطع إبراهيم عن زيارة إبنه المنغولى فى القاهرة التى كانت تتم مرة كل شهر تقريبًا وكم كانت دهشته كبيرة عندما اكتشف أن هذا الابن المعتوه

كان يدخل البهجة إلى نفسه مثل ابنه الطبيعى الآخر ولم يلبث مع مضى الوقت أن اكتشف أنه لم يكن مجنونًا بالمعنى الذى كان يعرفه عن الجنون ولاحتى كانت له نوبات هستيرية تجعل منه طفلاً خطيرًا يخشى منه.

أصبحت سفريات إبراهيم الدهشان إلى القاهرة أسبوعية وعندما بلغ ابنه اثنتى عشرة سنة اقترح على أخيه أن تنتقل أسرة نبوية إلى بورسعيد بدلاً من سفره المتكرر إلى القاهرة، وبعد شهر من إلحاحه واستعطافه جاءت موافقة السيد الدهشان، لكنه اشترط ألا يزور ابراهيم بيت نبوية فى بورسعيد حتى لا يشعر الناس أن هناك صلةً ما بينه وبين تلك الأسرة.

انتقلت أسرة نبوية إلى بورسعيد وسكنوا فى شارع الحميدى وأُلحق مصباح زوجها موظفًا بإحدى شركات الدهشان. ومنذ اليوم الأول تعرفت نبوية على الجيران واشتهرت أسرتها فى المنطقة بسرعة إذ كان ابنهم الأصغر صبيًا شيخًا لكنه لطيف جدًا وسرعان ما كسب عطف الناس وحبهم كما أصبح من معالم المنطقة وموضع أحاديث أهلها وتندرهم. وقد لاحظ الناس أن الصبى لا يشبه أخويه الأكبر منه لكن الحكماء منهم قالوا إن المنغولى عادة لا يشبه أخوته بقدر ما يشبه المناغلة الآخرين.

******

ترملت نبوية بعد ثلاث سنوات من إقامتها فى بورسعيد وتيتم أطفالها الثلاثة فأصبح العبء عليها ثقيلاً. استغل ابراهيم الدهشان ذلك وقرر أن يتبنى الشيخ أحمد لتخفيف العبء عن كاهل الأم، وقد شجعه

على اتخاذ هذا القرار حالات التبنى الكثيرة المعروفة فى البلد لكن السيد الدهشان ثار ثورة عارمة على أخيه:

- يا ابراهيم انت عايز تهد اللى عملته واحتط له طول الخمستاشر سنة اللى فاتم. بعد ما خلاص الناس نست جوازتك القديمة وخِلفتك منها عايز تقول لهم الوقت أن الوله ده ابنك.

- يا سيد أنا باتبناه زى ما ناس تانيه كتيره اتبنت عيال وبقوا أولادهم. وميت مرة قلت لك على أسامه ابن فتحى باشا والبت سعاد بنت الحاج أمين.

- اللى يتبنى يتبنى. لكن احنا ما نتبناش حد. وبعدين انت ماسمعتش الناس وهى بتقول ان فتحى باشا اتبنى الواد أسامه ده لأنه ابنه فعلاً من وليّه كان مرافقها فى اسماعيلية؟

واحتاج ابراهيم قدرًا كبيرًا من الشجاعة ليقول لأخيه:

- خلاص ياسيد. أنا قررت أتبناه وهاتبناه. أنا ماقدرش أسيبه عند نبوية تانى. الولية دى ما بقتش قادرة تسيطر عليه. والوله طول النهار فى الشوارع وبلغنى أنه بيروح المناخ وبيعيش مع الخنازير. وبينام معاهم كمان.

- يعنى صفية اللى معاك دى هى اللى هتراعيه؟ ابقى قابلنى!

أطرق ابراهيم برأسه وظل السيد مركزًا عينيه عليه. ولما لم يجب قال الأخ الأكبر.

– ابراهيم. بلاش تركب راسك واصرف نظر عن الموضوع ده.

لم ينبس ابراهيم وخرج من مكتب أخيه إلى مكتب أحد المحامين لبدء إجراءات التبنى.

كانت المرة الأولى التى يعارض فيها أخاه. ومن ناحيته لم ينظر السيد إلى سلوك أخيه كإهانة له بل كضعف فى شخصيته، وكعادته فى مثل هذه المواقف فإنه اعتبرها أزمة من الأزمات ورأى أن يحتويها بسرعة بدلاً من تركها لإجتهادات الناس فى تفسيرها. أمر رجاله أن يتناولوا تبنى ابراهيم لإبن نبوية كعمل انسانى بحت أقدم عليه بدافع الشفقة على تلك الأسرة المنكوبة وعلى الطفل المسكين. وقد أقسم السيد رزق لأحد العاملين فى الشركة أن السيد الدهشان هو صاحب فكرة التبنى وأنه هو الذى أراد أن يتبنى الولد لكن ابراهيم رأى أن يقوم هو بالتبنى نظرًا لكثرة أعمال أخيه ومشاغله.

****

٥ ولـد وبنــت

فردوس زوجة السيد الدهشـان هى أكثر أفراد الأسرة استمتاعًا بثروة زوجها الذي كان مهمومًا بتضخيمها والحفاظ على اسم الأسرة وكيانها. المرأة جميلة وظريفة وتعشق الحياة ولا تحمل همومها. تتغير صديقاتها كل سنتين أو ثلاث مع تغير وضع زوجها المالى، إذ تكتسب صديقات جديدات من نساء المجتمع الأرقى الذى تلجه عند ازدياد ثروة زوجها وتفقد صديقات قديمات وهى تترك الطبقة التى كانت فيها.

سميرة الصيرفى هى الصديقة الوحيدة التى احتفظت بها فردوس. كانتا زميلتى دراسة فى مدرسة بورسعيد الابتدائية للبنات وبعد حصولهما على الشهادة الابتدائية تزوجت سميرة الصيرفى وطن الشربينى وتزوجت فردوس السيد الدهشان. كان المستوى المالى للأسرتين متقاربًا آنذاك. وقد ظل ثابتًا فى أسرة وطن بينما ارتفع ارتفاعًا خياليا فى أسرة السيد الدهشان.

أنجب وطن وسميرة طفلين بينما أنجب السيد وفردوس ثلاثة. ومن حسن الحظ فإن حساسية الفقر والغنى لم تشب العلاقة بين الأسرتين، وقد شعر السيد الدهشان وزوجته فردوس أن طبيعتى وطن وسميرة لم تنطويا على ذرة حقد تجاههما كما لاحظا أن طفليهما قد ورثا نفس الطبيعة الصافية عن أبويهما، وقد واظبت سميرة وفردوس على تبادل

الزيارات واصطحاب الأطفال الذين كانوا يلعبون فى أى من البيتين بحرية تامة.

لكن ثمة علاقة خاصة نشأت بين أحمد ابن سميرة وسلوى إبنة فردوس اللذين لم يلعبا مع سائر أخوتيهما بل كانا ينزويان فى إحدى الغرف ويلعبان ألعابهما الخاصة، وكانت «بيوت وعرايس» لعبتهما المفضلة، وفيها كان أحمد وطن ذو الثامنة يقوم بدور الزوج وسلوى إبنة السادسة تقوم بدور الزوجة. كانا يندمجان فى تمثيل الدورين اندماجًا دل على درايتهما بالتزامات الزوجين تجاه البيت والأولاد وتجاه نفسيهما؛ كانت تعاقبه أحيانا لأنه تأخر فى الخارج أو لأنه لم يعطها مصاريف كافية للبيت، وكان هو يؤنبها لو تأخرت فى إعداد الطعام أو لو كان البيت غير مرتب. وفى كل الأحوال لم يكن ينسى تقبيلها عند خروجه إلى العمل أو عند رجوعه إلى البيت.

وذات صباح جنح خيالها جنوحا شديدًا إذ أخرجت دميةً من دولابها ووضعتها على بطنها من داخل الفستان وقالت لرفيقها:

– أحمد؛ أنا حبلى وهاولد الوقت. يالله ولدّنى.

ورقدت رقدة من كانت ستلد ولم يلبث الطفل أن استجاب لها فجلس على ركبتيه ليولدها وقالت وهى راقدة على ظهرها وساقاها أمام وجهه:

– أصوّت يا أحمد زى طنط سميرة، لما كانت بتولد اختك منى؟!

– أوعى! أحسن ييجوا عالصوات ويضربونا. عُضّى المخدة دى والا شدّى شعرى، ولما أسحب المولود من بطنك ابقى امسكى فى حديد السرير اللي وراك.

سحب الطفل الدمية من تحت فستان الطفلة الراقدة وحرك بأصبعه زُنبرك الصوت المثبت فئ ظهر الدمية فطفقت تصرخ. نهضت الطفلة وجلست مستندة بظهرها إلى ظهر السرير. ناولها الدمية الباكية فقبلتها وهدهدتها وما لبثت أن أرضعتها، ثم توقف صوت البكاء بتوقف الزنبرك.

*****

مرت الأيام وكبر الطفلان وأصبحا صبيين ثم دخلا دور المراهقة فبادر وطن وسميرة بمنع اختلاطهما وقال السيد الدهشان يومًا لزوجته:

- أنا ملاحظ ان احمد إبن وطن ما عادش بييجى هنا، فيه حاجة؟

- لا أبدًا مفيش

وصمتت لحظة ثم قالت مستدركة:

- هو أبوه بس حرج عليه ما يلعبش مع سلوى تانى. وسميرة كمان قالت لى أخلي البنت تقلل مرواحها عندهم. ما انت عارف ياسيد، الوله والبنت كبروا وبقوا فى مرحلة حرجة . والواحد لازم يخلى باله من الحاجات دى برضه.

هز السيد الدهشان رأسه سرورًا وقال:

- ده عشمى برضه فى وطن وسميرة! شوفي ازاى خايفين عالبنت أكثر مننا .... حتى من ابنهم!

*****

ظل أحمد وسلوى بعيدين بعضهما عن بعض لأكثر من خمس سنوات. لم ير أحدهما الآخر خلالها إلا فى وجود الآباء، وكان أحمد

الأكثر تحفظا تنفيذًا لتعليمات أبيه وأمه المشددة بأن يلزم حدوده فى كلامه وتصرفاته مع سلوى، وظلا على تلك الحال حتى بعد أن التحق الشاب بقسم الصحافة بالجامعة. لكن عندما بلغت سلوى السابعة عشرة تحررت تقريبًا من سيطرة أبويها عليها لحب أبيها الشديد لها وتدليله إياها، وفى هذه الحقبة من عمرها أصبحت فتاة ناضجة وذات شخصية قوية فى المنزل والمدرسة. كانت لها صديقات كثيرات ولم يمانع أبواها فى أن تتحدث مع الشبان داخل أسوار النادي.

قالت ذات يوم لأمها إنها قابلت أحمد إبن طنط سميرة وإنها عاتبته لأنه لم يزرهم منذ أكثر من عام ثم أضافت:

– بس أنا حاسة انه مالوش ذنب وانكوا انتوا اللى مانعينه.

– من ناحيتنا احنا مفيش حاجة، بس انت عارفه عمك وطن وتحكماته. يمكن هوَّ اللى قاله يقلل مجيه هنا.

– ياماما هو هياكلنى؟! النظرة دى اتغيرت خلاص ومفيش حد بيفكر كده دلوقت. طب ما أنا باكلم شبان فى النادي وساعات باقعد معاهم كمان. وانت عارفه ان أحمد راجل، ومؤدب عنهم كمان.

– خلاص..... أكلم طنط سميرة.

ومع ذلك ظل أحمد وطن لا يزور بيت الدهشان لمدة طويلة إلى أن ألمت بالسيد الدهشان وعكة صحية فزاره بصحبة أبيه وأمه، وعندما رأته سلوى قالت معاتبة:

– وأخيرًا إجيت! يعنى لو ماكانش مرض بابا ماكانش حد شافك.

فقال مبتسمًا ولكن بتحفظ:

- بس عمى يقوم بالسلامة وأنا آجى كل يوم.

- طيب، أما أشوف.

ثم سألته:

- إنت راجع مصر إمتى؟

- بكره إنشاء الله.

- بكره؟! يعنى مش هاشوفك تانى إلا بعد شهر؟!

- تقريبا كده.

- حيث كده، تعالى معايا عشان أوريك اللوحات بتاعتى.

*****

دخلت سلوى غرفة مكتبها وتبعها ضيفها. كانت هذه الغرفة خالية عندما كانا طفلين. أما الآن فهى مؤثثة بأثاث مكتبى حديث، وفى أحد أركانها منضدة عليها أوراق رسم وألوان وفرش وبجانبها حامل عليه لوحة لم تكتمل. على جدار هذا الركن علقت ثلاث لوحات عن الطفولة؛ واحدة عن طفل وطفلة يلعبان على شاطئ البحر والثانية عن طفلين يتشاجران والثالثة عن طفلتين تحدبان على حزمة من زهور البنفسج.

قالت سلوى وهى ترفع يدها تجاه اللوحات:

- إيه رأيك؟

– جميلة. جميلة فعلاً.. أسلوبك فى الرسم رائع ، لكن اختيارك للموضوعات هى اللى ممكن نتكلم فيها..... يعنى.... أنا كنت فاكر إنى هاشوف لوحات تعبر عن فترة الشباب اللى انت عايشاها الوقت.

– قالت مبتسمة وهى تشير إلى لوحاتها:

– والفترة دى؟.... عايزنى أنساها؟

أمعن أحمد وطن النظر فى اللوحات مرة أخرى ولم ينبس فقالت سلوى:

– دى كانت أجمل فترة في حياتى.... فاكر يا أحمد لما كنا بنلعب «بيوت وعرايس»؟

نظر إليها الشاب فرأى رفيقة طفولته وصباه تبتسم له. حدث بعض التغير فى وجهها لكن عينى طفولتها كانتا ماثلتين أمامه وكذلك الغمازة المثيرة التى تظهر فى خدها الأيسر عندما تبتسم أو تنفعل.

ابتسم أحمد هو الآخر وقال:

– فاكرها كويس. أيام ما تتنسيش. أيامها كنا بنمثل تمثيل رائع وخيالنا كان خصب جدًا.

– متهيأ لى ده ماكانش تمثيل، ولا كنا حتى بنقلد الكبار. أفعالنا وتصرفاتنا كانت بتعبر عن اللى كنا بنحسه واللى كنا عايزينه.

صمتت لحظة ثم استطردت متسائلة:

– إنت ماتتمناش الأيام دى ترجع تانى يا أحمد؟

– أتمنى ترجع تانى. لكن من الناحية الواقعية... الزمن ما بيرجعش تانى زى ما بيقولوا. يعنى أنا وانت يستحيل نرجع طفل وطفلة مرة ثانية ونمثل دور الزوج والزوجة مثلاً. الزمن بيتحرك لقدام واحنا بنكبر معاه، ولازم نعيش عمرنا اللى إحنا فيه دلوقت.

صمت الإثنان لحظة غير قصيرة ثم فاجأته بقولها:

– انت أيامها ماكنتش بتحبنى يا أحمد؟

نظر الشاب إليها طويلاً ثم قال:

– عايزه الحقيقة... أنا مش متأكد من مشاعرى زمان. إنت عارفه إن أيامها الواقع والخيال كانوا سايحين على بعض. عشان كده الأمور ما كانتش واضحة زى ماهى واضحة الوقت. أقصد إنى الوقت متأكد من مشاعرى نحوك، وممكن أقولها لك لو حبيت.

أطرقت الفتاة ثم حولت وجهها إلى لوحاتها كما لو كانت تلوذ بها هربًا من حيرة انتابتها عم يمكن أن تكون مشاعره الحالية نحوها، فمسك يدها وقال:

– سلوى . أنا الوقت قدام أجمل بنت فى الدنيا وقدام اللوحة الوحيدة الجميلة اللى ممكن تثير مشاعرى وخيالى.

رفع يديه اللتين كانتا تعرفان طريقهما إلى الجسم الذى كان دائما فى متناولهما عندما كانا طفلين ثم صبيين. واستطرد قائلا:

– أيًا كان اللى كان بينا واحنا صُغيرين، فالشىء اللى أنا متأكد منه دلوقتِ هو إنى باحبك حب عبادة.

قالت الفتاة بصوت خفيض وكانت تنظر فى عينيه:

- وأنا كما يا أحمد. وأنا كمان.

قربها الشاب منه حتى التصقا وقبلها فى شفتيها. طوقته بذراعيها وظلا متعانقين وقالت وعيناها مغلقتان:

- عندك حق ياأحمد. الواحد لازم يعيش السن اللى هو فيها.

*****

لم يجد أحمد وطن وسلوى الدهشان أى صعوبة فى سرعة استرجاع ما كان بينهما من ألفة وحميمية إذ كانت جذورهما راسخة فى تربة طفولتهما. أكثر من سفره إلى بورسعيد أثناء العام الدراسى وكان يقضى معظم وقته معها، وعندما التحقت بكلية الهندسة جامعة القاهرة توزعت لقاءاتهما ما بين القاهرة وبورسعيد.

*****

حين تسير سلوى الدهشان فى شوارع بورسعيد تسمع عبارات غزل رقيقة وأحيانا فاضحة من بعض الشبان رغم علمهم بنفوذ أبيها وسطوته فى المدينة. عرفت أوصاف وجهها وجسمها من هذه العبارات أكثر مما عرفتها من المرايا التى تنظر إليها كثيرًا؛ فعيونها عيون مها، ورموشها شباك صيد، وشفتاها ياقوتتان حمراوان وأنفها حبة نبق، وبشرتها مرمر أو حرير، وجسمها ممشوق وبض لكنه وياللخسارة يستعصى على المنال أو هو قشدة ما أحلاها عند التناول. وعندما كانت تقابل أحمد فى القاهرة أو بورسعيد كانت تُسرُّ إليه بما تسمع. وفى مرة

قالت له إن أحد الشبان قال إنها تحمل رُمانتين على صدرها، لكن هذا الشاب كان مؤدبًا بالنسبة لشاب آخر قال نفس الكلام لكنه أضاف أن الرمانتين ستملآن راحتى يديه إذا ما وضعهما عليهما. ثم قالت لأحمد وهى تضحك من أعماقها حتى دمعت:

- كان نفسى أبُص لإيديه عشان أشوف كلامه صحيح والا لأ.

لم ينبس أحمد ونظر إلى عينيها وأطال النظر ثم أحاط خصرها بذراعيه وقبلها. لم يتركها بعد القبلة الطويلة. تحسس ظهرها براحتى يديه وما لبث أن حركهما إلى ماتحت إبطيها فتحسسهما فقالت:

- إيه ده يا أحمد؟! هو أنا كنت باقولك الكلام ده عشان تعمل كده؟ أنا ماكانش قصدى والله.

صدقها، لكنه لم يرفع يديه عن جسدها وظلتا تجوبان سطحه؛ ظهرها وخصرها وصدرها ورقبتها وذراعيها. وفى زيارتها التاليه له بشقته فى الدقى تطورت علاقتهما الجسدية السطحية إلى ممارسة جنسية فعلية تُوجت بلذة مريحة لكن دون أن تفقد عذريتها حتى لا تغضب أباها أو تسبب له حرجًا.

*****

٦ عظماء بورسعيد

عندما ظهرت نتيجة الليسانس أخبر أحمد أباه أن يجد له واسطة للسيد الطناحى فقال الأب على الفور:

- بسيطة. تروح لعزب الجمل. أنا أعرف ان فيه صلة قرابة بينه وبين السيد الطناحى.

- عزب الجمل يا بابا ؟!! ما لقيتش إلا الراجل ده؟!

- هو ده اللى له صلة بيه واللى ممكن أكلمهولك .

- طب ما تكلم عم السيد. هو برضه أدرى بالمواضيع دى ومعارفه كتير.

- أكلمهولك.

وفى المساء كان وطن فى مكتب السيد الدهشان الذى صاح فى وجه صديقه عندما علم بنيته فى توسيط عزب الجمل:

- إيه يا راجل ده؟! عزب الجمل! انت عايز تضيع مستقبل الوله!

- هو مش قريب السيد الطناحى؟

- أيوه قريبه. ومش قريبه قرابه عادية كمان. ده خاله. أخو أمه لَزَم. لكن السيد الطناحى متبرى منه عشان البلوى اللى فيه. من يوم ما

أم السيد اللى هى تبقى أخت عزب الجمل ما ماتت من خمستاشر سنة والسيد الطناحى بينكر أى صلة بيه.

– خسارة. أنا افتكرت انه هيكون واسطة كويسة.

فقال السيد الدهشان:

– ما تحملش هم. عندنا محمود العياشى أخو مرات السيد الطناحى. هو اللى هيشغّلك أحمد فى المجلة.

*****

قام السيد الدهشان بمساعيه وبعد أسبوع اتصل بأحمد وطن وبشره بموافقة السيد الطناحى على عمله بالمجلة، لكن عليه أولا أن يتدرب ستة أشهر فقال الشاب والفرحة بادية فى صوته:

– طبعًا يا عمى أنا عارف إن الست أشهر الأولى لازم يكونوا تدريب.

– طب أن اعايز بقى أقولك شوية حاجات قبل ما تسافر.

– اتفضل يا عمى!

– أولاً، ماحدش يعرف انك اشتغلت بواسطة.

– طبعًا طبعًا يا عمى. مفهوم.

– ثانيًا، ما حدش فى المجلة يعرف ان فيه صلة قرابه أو حتى معرفة بين السيد الطناحى وعزب الجمل. وخلى بالك من النقطة دى.

– حاضر يا عمى، حاضر. فيه حاجة تانية يا عمى؟

- لأ ، بس كده. وربنا يوفقك.

*****

عُين أحمد وطن بعد مرور الأشهر الستة فى قسم الحوادث وبعد سنة من تعيينه استدعاه السيد الطناحى إلى مكتبه فدهش الشاب وراح يخمن عما عساه أن يكون وراء هذه الدعوة. انقبضت نفسه فجأة عندما تذكر تحذيرات السيد الدهشان له. لكنه لم يفه لأحد بأن السيد الطناحى هو الذى عينه أو أن عزب الجمل كان خاله وعندما دخل مكتب رئيس التحرير وكان لا يزال على حيرته كان السيد الطناحى يتحدث فى التليفون فما أن وقعت عيناه على أحمد وطن حتى ابتسم وأشار للشاب بيده اليسرى أن يجلس على الكرسى الملاصق لمكتبه فزالت الانقابضة عن نفس الشاب وهدأت الوساوس فى عقله.

بدا من كلام رئيس التحرير أنه كان يتحدث إلى زوجته. خشى أحمد وطن أن يبدو عليه أنه كان يتنصت على ما يقال بين رئيس التحرير وبينها فجعل يحرك رأسه إلى السقف ويديرها يمنةً ويسرة مجيلاً بصره فى كل أرجاء الغرفة مظهرًا اهتمامه باللوحات والصور فقط. وعندما وضع رئيس التحرير التليفون كان أحمد ينظر إلى صورة جمال عبد الناصر المعلقة فوق رأس رئيس التحرير ولم يلتفت إليه إلا حينما سمعه يقول:

- أهلا يا احمد.

فرد الشاب بصوت خفيض:

- أهلاً بيك يا سيد بيه.

- تعرف مين اللى كنت باكلمها الوقت؟

أحمر وجه الصحفى الشاب وقال:

- لا والله يا أستاذ سيد. أنا فى الحقيقة كنت باتفرج على اللوحات المتعلقة. لوحات رائعة وتلفت انتباه الواحد فعلاً.

- دى كانت مراتى. من بورسعيد برضه. بنت المرحوم السيد العياشى التاجر المعروف.

ظل الشاب صامتًا وعلى وجهه ابتسامة وبعض الحمرة. وقال رئيس التحرير مستطردًا:

- طبعًا انت من بورسعيد يا احمد.

- أيوه يا سيد بيه.

- وتعرف إنى من بورسعيد برضه؟

- طبعًا ياسيد بيه. وده شرف كبير لى. بس والله أنا عمرى ما قلت إنى من بورسعيد أو إنى أعرف سيادتك.

- مش مهم. مش مهم. المهم إنى هابعتك بورسعيد فى مهمة صحفية كبيرة.

التمعت عينا الشاب وانفرجت أساريره عن ابتسامة حقيقية وقال:

- أنا تحت أمرك يا سيد بيه.

- بس مالهاش دعوة بقسم الحوادث اللى انت فيه. أنا هابقى انقلك بعد كده من قسم الحوادث لقسم التحقيقات. لكن عايزك الأول

توريني همتك في المهمة اللي هاكلفك بيها.

لم ينبس أحمد وطن فقال رئيس التحرير:

– بص يا احمد. أنا عايزك تعملى تحقيق عن العظماء اللى أنجبتهم بورسعيد.

وظل رئيس التحرير ينظر إلى أحمد وطن للحظات طويلة بعد أن قال كلامه ذاك. ظن الشاب أن ليس ثمة شيء آخر يقال فنهض واقفًا وقال:

– بإذن الله هتلاقى التحقيق ده عند سيادتك فى أسرع وقت. أى خدمة تانية يا سيادة الريس.

فقال رئيس التحرير وهو يبتسم:

– إيه ده يا احمد؟ بسرعة كده عايز تمشى؟ هو أنا باقول لك هات لى خبر عن البمبوطية أو اكتب لى موضوع عن الصيادين؟ يا أخى ده أنا مكلفك بعمل تحقيق كبير وصعب. يعنى لازم نتفاهم ونتناقش ونشوف هتعمل إيه فيه. أقعد يا احمد أقعد.

وجلس أحمد على المقعد الجلدى الكبير وقال:

– كلام سيادتك صحيح يا سيد بيه. ماتفتكرش إنى مش عارف أهمية الموضوع ده. أنا قلت بس إن وقت سيادتك ثمين وأكيد عندك مشاغل تانية كتيرة.

– طريقتك فى الكلام حلوة يا احمد. وأتعشم ان طريقتك فى الكتابة تكون حلوه برضه. المهم إيه رأيك فى الموضوع ده؟

– والله ده موضوع عظيم يا افندم. وده حق بلدنا علينا. عشان كده الواحد لازم يبذل فيه كل جهده.

– انت فاكر حد من اللى أنجبتهم بورسعيد وممكن نكتب عنه؟

فقال الشاب بعد فترة صمت طويلة:

– حاليًا مش فاكر ! لكن أكيد هنلاقى لما ندوّر فى الكتب والمراجع التاريخية.

– أتعشم كده. انت ماتعرفش الموضوع ده مضايقنى أد إيه، خاصة بالنسبة لواحد فى مركزى ده. انت أكيد عارف ان فيه منافسة بين الصحفيين الكبار، لكن اللى ما تعرفوش ان فيه حاجات تانية فى نفوسهم. الواحد من دول يكون جاى من قرية والا من نجع لافيه كهرباء ولا مايه نضيفة وبعدين يتباهى انه من بلد فلان والا من بلد علان. واحد يقولك انه من القرية اللى انجبت الشيخ محمد عبده، والتانى يقول أنا من بلد رفاعه الطهطاوى وواحد يتباهى انه من بلد عرابى، وغيره يقول لك أنا قريب على باشا مبارك.

وهز الرجل رأسه آسفًا وارتسمت ابتسامة ساخرة على وجهه ثم قال:

– إنت رحت دمياط يا احمد؟

– لا والله يا سيد بيه مع ان والدتى دمياطية.

– أنا رحتها مرتين تلاته. والله تقرف تمشى فى شوارعها أو تبات فيها ليلة واحدة. ما تآخدنيش فى كلامى ده، لكن هى دى الحقيقة! وبعدين نسمع انها بلد الدكتور على باشا مشرفة وغيره من العظماء بس

أنا مش فاكرهم دلوقت. واللى غايظنى أكثر الصحفى الجديد ده اللى أصله مدرس فلسفة فى الجامعة. اسمه أنيس منصور. أكيد سمعت عنه. صاحبنا ده كل شوية يقول: أم كلثوم بلدياتى. أحمد لطفى السيد بلدياتى. أحمد حسن الزيات بلدياتى ومش عارف مين تانى بلدياتى! أنا بقى هاقول مين بلدياتى. السيد الضظوى، والاّ ديليسبس؟!!

وضحك رئيس التحرير حتى أحمر وجهه ثم قال:

- والله شر البلية ما يضحك! وياريت السيد الضظوى ده لاعب كورة محترم والاّ إنسان عِدِل. إنما ده خمورجى وبتاع نسوان ومش عارف إيه تانى! صحيح ان محمود السعدنى معجب بيه جدًا ومره قال يكفى بورسعيد فخرًا أنها أنجبت السيد الضظوى. لكن انت عارف ان السعدنى كاتب ساخر ويمكن بيتريق علينا وقصده يقول ان بورسعيد ما عندهاش حد تفتخر بيه إلا السيد الضظوى.

وتنهد الرجل تنهيدة ذات صوت مرتفع نمت عما فى صدره من ضيق وكمد ثم أضاف:

- ده حتى فى كل مدينة كِبيره والاّ صغيّرة وَلِى والاّ اتنين من أولياء الله الصالحين إلا بلدنا دى. الإسماعيلية.... الى مبنية مع بورسعيد فيها سيدى حنيدق وبيتعمل له مولد كبير والناس بتروح له من كل حتة.

فقال أحمد على الفور:

- بورسعيد برضه فيها الشيخ أبو الحسن يا سيد بيه!

فصاح رئيس التحرير مستنكرًا:

- الشيخ أبو الحسن؟!! ده هتحسبهولى ولى والا شيخ؟! ده لو كان فى طنطا ما كانوش شغلوه فراش فى جامع السيد البدوى.

ثم قال مستسلمًا بعد فترة صمت قصيرة:

- زى بعضه. ابقى شوف حكايتُهْ إيه وكان بيقول إيه واكتب عنه. هنعمل إيه؟ ماهى الكحكة فى إيد اليتيم عجبة. وأنا من رأيى تضيف له شوية كرامات وشوية كلام صوفى. ولو قدرت تخليه زى الجماعة الصوفيين المشهورين دول اللى هُمَّ يعنى زى السيد البدوى أو المرسى أبو العباس يبقى كتر خيرك. وماتخافش من النقطة دى لأن الأعمال الأصلية بتاعة الناس دى مش هى اللى نعرفها الوقت. صحيح انهم كانوا ناس طيبين وأعمالهم كانت كويسة لكن ما تستحقش الهيلمان ده كله. لكن هتقول إيه؟ الزمن وطيبة شعبنا وعبط بعض الناس بيصنعوا العجايب.

وأنهى رئيس التحرير كلامه قائلاً:

- قدامك شهر بحاله عشان تكتب لى التحقيق ده. قلِّب فى المصادر التاريخية واسأل عواجيز البلد يمكن عندهم حاجة ترشدك لشىء. وقبل أن يخرج الشاب من المكتب صاح رئيس التحرير وهو يبتسم:

- إسمع يا احمد ! عايزك تشوف لى إبليس ده أتولد فين،. ولو ماعرفتلوش مكان ولاده إبقى انسبه لبورسعيد.

فقال الشاب بعد فترة صمت غير قصيرة:

- حاضر يا سيد بيه.

*****

قضى أحمد وطن ثلاثة أسابيع فى البحث والتقصى. قرأ كتابين عن بورسعيد وتصفح الصحف والمجلات التى صدرت منذ ١٨٦٩ وكثيرًا من وثائق شركة القنال وسأل عشرات من عجائز المدينة فلم يتوصل إلى شخصية بورسعيدية يمكن أن يكون لها ثقل سياسى أو ثقافى أو عسكرى أو دينى من النوع الذى يريده السيد الطناحى. كما قرأ شذرات عن إبليس وعرف أنه لم يولد لكنه خُلق فى السماء ثم طُرد من الجنة وأُنزل به إلى الأرض ليفسدها.

ظل أحمد وطن يذرع المدينة جيئةً وذهابًا عدة مرات فى اليوم طوال هذه المدة من تمثال ديليسبس إلى الجبانة عن طريق شارع ٢٣ يوليو ورجوعًا عن طريق سعد زغلول. دخل المقاهى والبارات والكازينوهات وجالس زبائنها وزار الشركات المرتبطة بالميناء واختلط بموظفيهاوعمالها. كانوا جميعهم يتصفون بحيوية فائقة ويعرفون عدة لغات. أجسامهم فارعة مستقيمة تتحرك فى خيلاء وكبرياء ونفوسهم شفافة تنضح وداعة وطيبة لكنها تهيج هيجان الثور إذا استثيرت أقل استثارة ولا يعرفون الرياء أو المداهنة أو الجبن. تساءل أحمد لِمَ لَم يخرج من مثل هؤلاء قائد جيش أو شاعر أو وزير أو حتى وكيل وزارة! حتى السيد الطناحى نفسه لم يكن رئيس تحرير حقيقيًا، ولو لم يكن ضابط جيش لما عينته حكومة الثورة فى هذا المنصب. لا خبرة له ولا علم ولا موهبة. والآن يكلفه بهذه المهمة الصعبة حتى يذكر فلانًا أو عِلانًا فى سباق التباهى المحموم بينه وبين أقرانه ذوى المناصب الكبيرة.

*****

في نهاية الشهر قدم أحمد وطن الموضوع للسيد الطناحى وكتب له مقدمة لتوضيح مفهوم العظمة:

« مما لاشك فيه أن الشعب المصرى الذى عاش فى مصر القديمة كان يتمتع بصفات عظيمة لا حصر لها، ولا يماثله فى ذلك أى شعب آخر من الشعوب التى عاصرته أو التى جاءت من بعده، وإنَّ الآثار العظيمة الخالدة المنتشرة فى كل ربوع مصر وفى كل أنحاء المعمورة لدليل قاطع على تدفق ينابيع عبقريته. والمذهل فى الأمر أن تلك العبقرية لم تقتصر على قلة من الأفراد بل شملت أعدادًا هائلةً منهم، بل يمكن القول دون مبالغة أن كل أفراد الشعب المصرى القديم كانوا عباقرة فى الفن والعلم والهندسة والزراعة والحرب. وإن كان قد وصَلَنا بعض أسمائهم فإنها وللأسف الشديد قليلة جدًا ولا يتناسب عددها مع هذا الإنجاز الحضارى الضخم. وعليه فإنه يمكننا أن نصدر حكما فى هذا الشأن ونقرر أن العبقرية المصرية القديمة كانت عبقرية جماعية مجهولة أكثر منها عبقرية أفراد معروفين.

وفى العصر الحديث تتكرر ظاهرة العبقرية الجماعية المجهولة فى مدينة بورسعيد، فهذه المدينة الجميلة المبهرة يتصف شعبها بالقوة الجسمانية والشجاعة والجسارة وروح الإقدام والكرم الشديد والذكاء الخارق. وإن كان لم يظهر فيها عبقريات فردية فإن ذلك لا يقلل من عظمتها إذ العبقرية فيها عبقرية شعب بأسره وليست عبقرية فرد أو أفراد قلائل.

ومع ذلك لا تخلو بورسعيد من بعض الأفراد الذين وهبهم الله

ميزات خاصة فنالوا إعجاب الشعب وحبه. وسيقدم هذا التحقيق نماذج من تلك الشخصيات الشعبية وسيوضح لماذا نالت حب الناس وعطفهم. ستقرأ أيها القارىء الكريم عن ملك الفقر الذى نال أرفع الأوسمة من أعظم الدول التى كان يحارب فى صفوف جيوشها والذى اغتيل برصاص الغدر والخيانة من فترة قصيرة وستقرأ عن على باشا الشافعى خطيب المدينة المفوه وخبير السياسة العالمية والمحلية وعن نوال آكلة الحديد والنار والزجاج وعن حسن جنزير ومحمود المان وغيرهم».

بمجرد أن انتهى السيد الطناحى من قراءة المقدمة ألقى الأوراق التى كانت فى يديه على مكتبه وهب واقفًا وصارخًا فى وجه أحمد وطن الذى كان جالسًا أمامه:

– إيه ده يا حيوان اللى كتبهولى ده؟ هم دول عظماء بورسعيد وعباقرتها اللى لقيتهم لى؟ محمود المان وملك الفقر وعلى باشا الشافعى؟ انت عبيط ياله والاّ بتستعبطنى؟ أه؟! صحيح أنا غلطان إنى كلفت حمار زيك يعمل لى الموضوع ده.

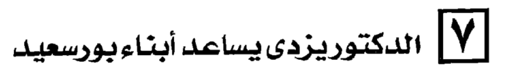
ترك السيد الطناحى مكتبه,وتوجه إلى حيث يجلس أحمد وطن الذى ذُهل بثورة السيد الطناحى عليه ونعتِهِ إياه بأحط الصفات فلم يتحرك عن مقعده. جذبه السيد الطناحى من ياقة قميصه وصرخ فيه:

– قوم فِز اطلع بره وماتورنيش وشك تانى.

نهض أحمد وطن عن كرسيه وهو ما يزال فى ذهوله وعندما استدار ليتجه نحو الباب بوغت بسبة فاحشة وبركلة قوية من حذاء السيد

الطناحى فى مؤخرته فكاد أن يقع. خرج الشاب عن وعيه ولم يدر بنفسه وهو يسدد لكمة قوية إلى وجه رئيس التحرير أوقعته على الأرض وهم بالانقضاض عليه لولا أن ثاب إليه وعيه ورشده فخرج من الغرفة بسرعة ثم من مجلة الثورة إلى الأبد.

*****



٧ الدكتور يزدى يساعد أبناء بورسعيد

عندما عاد أحمد وطن إلى بورسعيد أخبر والديه بما حدث ثم حبس نفسه داخل غرفته ولم يخرج منها إلا للضرورة القصوى. لم يسكت أبوه على ماصارت إليه حال إبنه فتوجه إلى السيد الدهشان وفاتحه فى الأمر، فأخبره السيد أن الدكتور يزدى هو الشخص الوحيد الذى يستطيع إعادته إلى الصحافة فللرجل صلات قوية بجريدة الأنباء، كما أن أحد محرريها وأحد رساميها ينتميان إلى الطائفة البهائية التى يرأسها الدكتور يزدى.

رحب الدكتور يزدى بالمساعدة وطمأنهم أن الشاب سيعمل بجريدة الأنباء الأكثر أهمية من مجلة الثورة. أخبر وطن ابنه أن يذهب إلى الدكتور ليشكره أولاً ثم ليعرف منه ماذا سيفعل بعد ذلك.

*****

خرج آخر مريض من غرفة الكشف فسمحت الممرضة لأحمد وطن بالدخول. وعندما دخل رأى الدكتور يزدى بشوشًا كعادته. قال الدكتور مرحبًا به:

- أهلاً وسهلاً. أهلاً يا احمد. اتفضل، اتفضل.

جلس أحمد صامتًا إذ عقد لسانه شعورُه الجارف بالعرفان بالجميل. فقال الدكتور:

- إيه يا احمد الكلام ده اللى أنا سمعته من السيد بيه؟

ظل الشاب صامتًا فأضاف الدكتور قائلا:

- معلش. ولا يهمك. وبإذن الله مستقبلك هيكون أحسن بكتير فى جريدة الأنباء.

انفرجت أسارير الشاب عن ابتسامة خفيفة، وقال الدكتور مستطردا:

- اسمع يا احمد. انت ممكن تشتغل فى جريدة الأنباء نفسها زى ما قلت لك، لكن كصحفى مبتدىء، وهتفضل صحفى صغيّر مدة طويلة. إنت عارف إنها جريدة كبيرة ومليانه صحفيين كبار. يعنى هيكون صعب عليك تجاريهم إلاّ بعد سنين. عشان كده أنا هاقولك على حاجة ممكن تكون فرصة كويسة لك.

- أنا تحت أمر حضرتك فى أى حاجة تقولها.

- إيه رأيك لو بقيت مراسل جريدة الأنباء فى بورسعيد. يعنى تمسك مكتب الجريدة اللى هيفتحوه هنا قُريِّب. دول أجروا شقة خلاص وبيجهزوها. وما تفتكرش ان بعادك عن مصر يعنى إنك مش هتلاقى فرصتك. بالعكس، فرصتك هنا هتكون أحسن بكتير. بورسعيد مدينة مهمة وما تستهونش بمراسل جريدة كبيرة فيها. وبعدين المكسب هنا هيكون كتير من الإعلانات، وانت وشطارتك بقى وعلاقاتك كمان مع الناس اللى هنا.

– اللى تشوفه حضرتك.

– أنا شايف إن دى هى أحسن حاجة لك. وكويس انك جيت لى فى الوقت المناسب.. وعلى فكره.... ماتحملش هم من ناحية السيد الطناحى. مش هيقدر يعمل لك حاجة طول ما انت هنا فى بورسعيد.

*****

الدكتور يزدى بهائى العقيدة إيرانى الجنسية. ترك أبوه إيران هربًا من الاضطهاد الدينى ولجأ إلى بورسعيد وفتح فيها متجرًا كبيرًا للسجاد الشيرازى والأصفهانى بينما سافر الإبن إلى الولايات المتحدة لدراسة الطب. بعد الانتهاء من دراسته سافر إلى بيروت حيث مارس الطب ودرس تعاليم البهائية وتعمق فيها، كما تزوج فتاة لبنانية وأنجب منها ابنة. وبعد سنتين انضم إلى والده فى بورسعيد وفتح عيادة فوق متجر السجاد وسرعان ماذاع صيته كطبيب نابغة فى علاج الأمراض الباطنية والقلب وكسب احترام الجميع وتقديرهم لكنه وجد مقاومة كبيرة عندما عمل على نشر المذهب البهائى. وبعد عدة سنوات لم يكن قد اعتنق هذا المذهب سوى مائتى شخص تقريبًا معظمهم فى بورسعيد والقاهرة. ويرجح أن معظمهم لم يتحول إلى البهائية اقتناعًا بمبادئها بل لصفات الدكتور يزدى الشخصية ومهارته الطبية الفائقة وقدرته على شفائهم بعد يأسهم وطول معاناتهم، بالإضافة إلى إيمانهم بالغيبيات، إذ كان الدكتور نفسه يقول لهم إنه لم يشفهم وإنما شفاهم الله، وماهو إلا أداة ليس غير. وقد صدقوه لأنهم ذهبوا لأطباء كبار قبل ذلك ولم يشفوا.

يُعزى عزوف الناس عن البهائية إلى الأفكار الغريبة التى نسبت

إليها والطقوس الشاذة التى قيل أن البهائيين كانوا يمارسونها مثل الاستنجاء باللبن وتبادل الزوجات. وكان الدكتور يزدى يدافع بقوة عن البهائية ضد تلك التهم الفظيعة. «معقول يا حاج على الواحد يستنجا باللبن؟! ده كان زمانا اتسخظنا. ومعقول الواحد يخلى مراته تنام مع واحد تانى عشان أنا أنام مع مراته؟!! ده كان زمان القيامة قامت!» ولم يفتأ يردد فى كل مناسبة أن البهائية لا تختلف كثيرًا عن الطرق الصوفية، ودائما ما كان يُذّكر الناس أن اسمه محمد وأن أباه اسمه عبدالرحيم.

لم تخل حياة الدكتور يزدى من بعض اللمسات الإنسانية التى جعلته شخصية محبوبة فى المدينة. كان يعالج الحالات المستعصية لبعض الفقراء دون مقابل ويتوسط لدى أصحاب الأعمال ومديرى الشركات من زبائنه لتشغيل من كانوا يلجأون إليه كما كانت له مساهمات كبيرة فى الأعمال الخيرية العامة. وقد لمس الناس وأقروا بتقدير وإعجاب أن الدكتور يزدى لم يهدف من أعماله تلك إلى تحقيق منفعة شخصية أو إغراء الناس باعتناق مذهبه. وأحيانا ما كانوا يهزون رؤوسهم أسفًا لأن هذا الرجل العظيم الكريم كانت فيه تلك السوءة الكبيرة.

*****

توقف الدكتور يزدى بسيارته البيويك الفاخرة أمام مقهى اللوفر حيث كان حسن جنزير يخلص جسده من الجنازير الملتفة حوله. وعندما انتهى حسن من ألعابه ناداه الدكتور من داخل سيارته. فأسرع حسن إليه وهو يرتدى قميصه. قال الدكتور:

– خلُصت يا حسن ؟

– خلصت يادكتور. أى خدمة؟

– أيوه يا حسن. حُط الحديد بتاعك فى شنطة العربية واركب.

ثم قال وهما فى السيارة:

– مكسبك كان كام النهارده يا حسن؟

أخرج حسن بعض العملات المعدنية من جيبه وقال:

– تمانية صاغ ونص. أهم . وشوف جسمى اتهرى ازاى من الحبال والجنازير؟!

– ونوال عامله إيه؟

– مسكينة والله يادكتور. بقها وجوفها اتهروا من النار والإزار. وحَمار عينيها كل مادا ما بيزيد.

– أجيب لكو بيانولا يا حسن؟ إنت ونوال.

بوغت حسن بالعرض غير أنه تمالك نفسه وقال بسرعة:

– يبقى عملت لنا خدمة العمر يا دكتور، واللى مش ممكن هننسهالك أبدًا.

– خلاص. الأسبوع الجاى تكون عندكم.

– واحنا من ناحيتنا هندفع لك تمنها على دفعات. إنت تحدد إن كانت بالشهر والأ بالأسبوع. اللى يريحك.

– لا بالشهر ولا بالأسبوع ولا فيه دفعات خالص. دى هدية منى لِكم انتو الاتنين.

- مش كده يبقى كتير يادكتور.

- مش كـتـيـر عليكو يا حـسن. انت ونوال فنانين والواحـد لازم يشـجع الفن. فى أوروبا وأمـريكا فن الأكـروبات ده من أعظم الـفنون، بس فى بلادنا مش واخد حقه.

*****

ذهب حسن إلى مقهى الاتحاد فى الساعة الرابعة بعد الظهر. فى هذه الفترة يكون مـعظم الناس فى منازلهم ومعظم المحلات مغلقة والمقاهى شبه خالية فتنتهز نوال ذلك لتأخذ قسطًا من الراحة. وأحيانا ما كان حسن يجلس بجانبها ويفاتحها مجددًا فى أمر زواجهما، لكنها لم تتراجع عن رفضـهـا . كانت تقول له: « أنا عمتى لمانى فى بيتها، وانت أصحابك لمينك معاهم. لو اتجوزنا هنعيش فين؟ فى عشة ورا زرايب الخنازير؟ والا فى زرايب الخنازير نفسها؟!

فى هذا اليوم كانت نوال جالسة على كرسى مطأطئة رأسها على صدرها ومادة ساقيها على كرسى آخر وكانت تغط فى نوم عميق بعد يوم عمل مرهق. أقبل عليها حسن برأس يمتلىء بأحلام أثارها عرض الدكتور يزدى. أيقظها ثم قال لها:

- قومى فيه موضوع عايز أكلمك فيه.

لم تتحرك عن الكرسيين وقالت وعيناها مازالتا مغلقتين:

- ما انت عارف رأيى فى موضوعاتك يا حسن.

- لأ، ده موضوع تانى خالص. موضوع فيه مستقبلك ومستقبلى. فيه مستقبلنا احنا الاتنين.

– ماهو الموضوع إياه برضه كان فيه مستقبلنا احنا الاتنين. وفيه موتنا كمان.

– موت إيه يا نوال بس ! ياشيخة قولى حاجة كويسة!

أنزلت قدميها عن الكرسى الذى كان أمامها ثم أخذت تسوى شعرها وملابسها. كانت ترتدى «بنطلون دانجريه» أزرق وقميص ساتان أصفر ومنديلاً أحمر حول عنقها وتتدلى أطرافه على صدرها. قال لها الرجل:

– اسمعى بس أما أقول لك.

– قول ياسيدى.

– بقى ياستى الدكتور يزدى الله يكرمه عرض على عرض هيكون فيه فرصة عمرنا.

– الدكتور يزدى رئيس الخمساوية؟!

– خمساوية إيه يا نوال وسبعاوية إيه؟!! إحنا مالنا إحنا ومال الحاجات دى. إنت ياستى عارفه إن الراجل معجب بينا، وعرض انه يشترى لنا أنا وأنت بيانولا جديدة. تعرفى ده معناه إيه؟ معناه ان احنا هنخلص خالص من النار والإزار والجنازير وهنشتغل فى الموسيقى والعمل النضيف. زباينا هيكونوا الخواجات والناس الكويسين اللى فى القهاوى الافرنجى والبارات، وشوفى بقى الفلوس اللى هتجيلنا هتكون أد إيه؟!

٨ مطاردة على باشا الشافعى

كان رجال الطبقة المتوسطة المحترمون ومعظمهم من الموظفين يلتقون فى مقهى البرنسات الذي لم يكن صاخبًا كغيره من المقاهى فرواده يقرأون المجلات الأسبوعية والصحف اليومية المثبتة بخيزران البامبو ويتحدثون بأصوات منخفضة تصاحبها حركات مهذبة من أيديهم، يرتدون فى الشتاء بدلاً كاملة وقمصانًا بيضاء منشاة الياقات وكرافتات كلاسيكية راقية، وفى الصيف يرتدون البدل التيل، أو البنطلونات الخفيفة مع قمصان من الحرير أو القطن اللينوه، ويُقدم لهم الشاى فى فناجيل من الصيني الفاخر موضوع سكره فى سكريات صغيرة أنيقة ويحتسونه بدون صوت من أفواههم.

على باشا الشافعى هو الزبون الوحيد الذى لم ينتم إلى تلك الطبقة لكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه ينتمى إليهم إن لم يكن بالوظيفة والمظهر فبالفكر والوجدان. لكنه رأى أن الفكر والوجدان لا يكفيان للانتماء فحاول أن يقترب منهم بالسلوك والهندام، فكان يجلس وقورًا رزينًا هادئًا ويحتسى القهوة أو الشاى بلا صوت من فمه. ورغم أميته فإنه كان يقضى وقتًا طويلاً يتصفح الجرائد والمجلات، وهو على كل حال يكون قد عرف محتواها فى الصباح الباكر إذ كان يقرأها له أحد الشبان الذين يعرفون القراءة مقابل نصفق قرش. ومنذ بعض الوقت لم يعد يرتاد

المقهى إلا بالبدلة والقميص والكرافتة حتى وإن كانت غير مكوية أو غير نظيفة.

لكن الموهبة العظيمة التى حباه الله بها هى التى جعلت للرجل قدرًا وقيمةً فى أعين زبائن البرنسات إذ كان خطيب بورسعيد المفوهركان صوته يجلجل في مقاهيها لاسيما أثناء احتدام الأزمات الى تميزت بها فترة ما بين الحرب العالمية الثانية وتأميم القنال وكان يعرف الجمهور الذى يخطب فيه فاختلفت نوع خطبه من مكان لآخر، ففى حى العرب وحى المناخ اعتبر الناس سوقى وغوغاء لا يرقون إلى فكره، وتعمد أن يخفى عنهم بعض الحقائق السياسية أو بعض أفكاره الخاصة التى كونها عن زعماء العالم إذ كان يعرف أن إدراكهم سيقصر عن استيعاب هذه أو تلك. لم تكن خطبه فيهم مريحة له أو تبعث على أمل فى قرب إصلاحهم يشهد على ذلك كثرة مقاطعتهم إياه وسخريتهم منه. لكن الرجل كان له هدف لن يتركه ورسالة هيهات أن يتقاعس عن أدائها وسيمضى فى جلد وصبر ومثابرة فى بث الوعى التدريجى فيهم وعندما يصبح كل بورسعيدى على مستوى الأحداث القومية والدولية سيلقى بأسلحته ويأوى إلى واحته.

أما خطبه فى مقهى البرنسات فدلت على دراية الرجل بالكثير مما كان يجرى في مصر والعالم وكان الأفندية يصفقون له تصفيقًا هادئًا مريحًا ويغفرون له وقوعه فى الأخطاء التاريخية كما غفروا له شفافية عقله ونفسه التى قربته كثيرًا من تلقائية الغُبط، مع العلم أنه اعتبر تلك الشفافية حقًا خالصًا لجمهور البرنسات دون جمهور العرب والمناخ.

كانت خطبة على باشا الشافعى تستغرق حوالى ربع ساعة. كان

يتناول فيها شؤون العالم مع التركيز على الصراع بين أمريكا والاتحاد السوفيتيى ولم تخل أى خطبة له من أسماء مشاهير العالم آنذاك أمثال ستالين وبيريا وتشرتشل وماوتسى تونج وشان كاى تشيك وآيزنهاور ودالاس ومحمد صلاح الدين الذى ظل شخصيته المفضلة حتى بعد اعتزاله. وفى الحقيقة فالفضل يرجع إليه فى بث بعض الوعى فى جماهير العرب والمناخ وتعريفهم بالتكتلات الدولية التى تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية وبتلك الشخصيات المشهورة التى كان يحدد موقفه الشخصى من كل منها فيلعنها ويصب عليها جام غضبه أو يرفعها إلى عنان السماء.

*****

كان على باشا الشافعى يكسب قوت يومه من عدة أنشطة متنوعة. كان يبيع الفجل والجرجير والليمون والفول النابت صباحًا فى أسواق العرب والمناخ البعيدة عن مقهى البرنسات وبذلك تجنب الحرج من أن يراه أحد زبائن المقهى الراقى، وفى العصر يقف أمام منضدة صغيرة فى سوق العصر ويدير لعبة الثلاث ورقات، وإذا ضاقت به الحال سرق دراجة أو حمارًا أو عنزة أو خنزيرًا وقد فضل السرقة على استجداء الناس مثلما يفعل محمد المصرى وحسن جنزير ونوال، أو على أن يمارس القوادة مثل السيد شلاطة أو السيد فوده، ويفضل الموت على أخذ أى شىء من صلوحه إبنه الذى يمتلك عربتين نقل ومخزنًا كبيرًا وعمارة جديدة من خمسة طوابق وستة آلاف جنيه في البنك.

*****

كثيرًا ما نصح الناس صلوحة بعد أن أصبح ثريًا واقترب من أن

يكون عينًا من أعيان المدينة أن «يلم» أباه ويساعده ماليا حتى يتوقف عن بيع الفجل ولعب الثلاث ورقات والسرقة وغير ذلك من الأشياء المشينة التى ستؤثر حتما على سمعته ومكانته الممتازة التى حققها فى الآونة الأخيرة ففوجئوا بأن صلوحة لم يُبال البتة بما كان أبوه يفعله وقد ظل خمس دقائق يضحك ضحكًا متواصلاً عندما أخبروه ذات يوم أن أباه يكسب قوته من لعبة الثلاث ورقات «مش باقول لكم انه راجل بتاع الثلاث ورقات. وبكره هيلعب بالبيضه والحجر كمان». وعندما أخبروه أنه توجد شبهة أن أباه سرق كشك «عم عجيب» قال جازمًا: «ده أكيد هو اللى سرقه. ده على الشافعى والأجر على الله. شيخ منسر وماحدش يعرفه زيى» كما أخبروه فى مرات تالية أنه حاول اغتصاب نوال وهى راجعة إلى بيت عمتها ليلاً، وأنه فى يوم آخر توجه إلى ڤيلا عزب بك الجمل ليضاجعه مثلما يفعل شباب المدينة لكن عزب الجمل طرده شر طردة لأنه يدوبك بيسند طوله» مش باقول لكم. راجل مِلقَّط وفلاتى ويعمل حاجات ماتخطرش على بالكم».

كان صلوحة فى بداية الأمر صبى بمبوطى عند الريس على علوان وكان أبرع من تحدث اللغة النرويجية فى بورسعيد رغم شفته الأرنبية، كانت تلك ميزة كبرى فى ذلك الوقت إذ كانت ناقلات البترول النرويجية من أكثر السفن وصولاً إلى الميناء كما أن النرويجيين كانوا الأكثر شراءً وكرمًا مع المصريين. لذلك لم يعتبره الريس على مجرد صبى، وأجره كغيره من البمبوطية الكبار وإن لم يستطع استخراج رخصة بمبوطى له لصغر سنه فاصطحبه معه إلى السفن بتصريح مؤقت لكنه وعده أنه لن يسكت حتى يستخرج له الرخصة.

لكن الفتى انفصل فجأة عن الريس على وانضم لزمرة «النطَّاطه»

الذين كانوا يبيعون السلع الممنوعة كالخمرة وصور «الكارت الراكب» وكانوا يحققون مكاسب خيالية فبضاعتهم كانت رائجة جدًا ولم يدقق البحارة فى الأثمان الى عُرضت بها. فالصور كانت تهيج خيالهم لاستحضار زوجاتهم أو عشيقاتهم وتحفزهم إلى العادة السرية حفزًا كما أن قليلاً من الطافية بعد ذلك كان يعتم هذا الخيال أو يطمسه كما كان يُعجِّل بنومهم.

ويُعتبر صلوحة «النطَّاط» الوحيد الذي كون ثروة من عمله، وقد تخلى عنه بعد سنة واحدة بل إنه ترك الميناء كله واتجه إلى المدينة وبدأ تجارة لم تفتأ تكبر وأرباحه منها تزداد إلى أن أصبح من متوسطى أثرياء المدينة.

كان صلوحة سعيدًا غاية السعادة أن أباه لم يطرق بابه يومًا يسأل حاجةً أو يطلب نقودًا. ولكى يطمئن إلى أن أباه لم يكن يفكر فى ثروته بعين طامعة فإنه كان يرسل إليه عامله محمود مرسال يسأله، جسًا للنبض، إن كان يريد نقودًا أو أى شىء آخر فيرد الأب بأن عنده ما يكفيه وأنه لا يأخذ صدقة من أحد. وآخر رد سمعه محمود مرسال من على باشا الشافعى كان حادًا وقاسيًا إذ قال: « قول لصلوحة النتن إن الباشوات ما بيحتاجوش للصعاليك. ويا محمود يامرسال ماتبقاش تخلى الواد ده يبعتك لى تانى. فاهم؟!» فيضحك صلوحة من أعماقه عندما يسمع هذا الكلام ويقول « شفت بقى ياعم محمود! أهى دى عيلتنا بصحيح! ماتلاقيش عزة نفس زى اللى فيها أبدًا!»

*****

لكن محمود مرسال حمل ذات يوم أخبارًا سيئة لصلوحة الشافعى:

– عندى أخبار وحشه عن أبوك يا ريس صلوحه.

ضحك صلوحه مقدمًا متوقعًا أن يسمع نادرة من نوادر أبيه فقال:

– وأنت يعنى جبت لى خبر كويس عنه قبل كده؟ المهم إيه اللى عندك النهارده. سرقة والا نصب والا اغتصاب؟ والاّ يمكن قتل المره دى!! على الله ياخد له تأبيده، وإلاّ إعدام حتى.

– المرة دى هتزعل بجد. أنا نفسى زعلان ومتنكد. وماكنتش عايز أقول لك. لكن قلت انك لازم تعرف عشان تشوف لك صرفه معاه.

تغيرت ملامح وجه صلوحه إذ أوجس شرًا فى كلام محمود مرسال فقال وهو ممتعض الوجه:

– هو الراجل ده هيفضل الدمل اللى بيوجعنى. يعنى مش هارتاح بقى منه؟ أنا المفروض كنت اتبرى منه من زمان من عمايله السوده ومن سمعته اللى زى الزفت. لكن أنا أخدت الأمور ببساطة وبضحك. وعلى يدك حاولت معاه كتير لكن مخه وسخ وزى الجزمه. هاعمل إيه؟ نصيبى كده ياعم محمود!... إيه بقى حكايته المرة دى؟

– أبوك بقى خمساوى ياريس صلوحه.

– أه ؟!!!

– باقولك بقى خمساوى . يعنى بيستنجى باللبن وبينام مع حريم الخمساوية اللى زيه.

وإزاء صمت صلوحه الطويل وتحديقه فى وجه محمود مرسال قال الرجل محاولاً تخفيف الصدمة عنه وتعزيته:

– يعنى الحمد لله ان الست والدتك ماتت من عشر سنين. كانت هتبقى مصيبة لو كانت عايشه.

فقال صلوحه ولما يزل فى ذهوله:

– خمساوى إيه ياعم محمود؟!! انت عايزنى أصدق ان الدكتور يزدى يقبل واحد أهبل زى ده فى طايفته. ده يعرها ياعم محمود! لا ! لا! الدكتور يزدى راجل عاقل ويستحيل يقبله. وبعدين ما انت عارف ان أهل البلد دى بيقولوا حكايات غريبة عن أبويا عشان يتسلوا بيها.

وصمت صلوحة برهة ثم انفجر صائحًا:

– أبويا أنا خمساوى؟!! ده أنا كنت أدبحه ابن الكلب ده.

– والله يابنى يا صلوحه أنا ما جيتلكش على طول لما سمعت الكلام ده. أنا برضه أطقست فى الأول وبعدين عرفت انه بيقعد مع البهائية وبيتكلم معاهم، كمان بيحضر البتاع ده اللى بيقولوا عليه المحفل البهائى.

– طب يا عم محمود أنا هاشوف حكايته إيه ابن الكلب ده، وهاعرف كل حاجة عنه.

*****

راقب صلوحه أباه أسبوعًا كاملاً وتأكد من صحة ما قيل عنه فذهب إلى مسكنه في المناخ الذى لم تطأه قدماه منذ عشر سنوات. كان

متأففًا من الحى ومن الحارة التى يسكن فيها أبوه ومن مسكنه. نقر على الباب وعندما فتح الأب فوجىء بابنه واقفًا أمامه. نظر إليه من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى ثم تركه دون أن يأذن له بالدخول. لكن صلوحه دخل ووقف وسط الغرفة بينما تظاهر أبوه بترتيب البدل المعلقة فى الدولاب وكانت قديمة جدًا ويفوح منها رائحة عرق عتيق. قال صلوحة وهو لا يزال واقفاً:

– إيه يابا ؟! مفيش اتفضل والاً أهلاً وسهلاً؟!

– إلاّ صحيح انت جاى ليه؟!

– جاى ليه؟! وده سؤال برضه؟! جاى عشان أزورك طبعًا.

- جاى عشان تزورنى؟! .... بعد عشر سنين؟!... طب وإيه المناسبة؟

– لأ ... بقى . ده فيه مناسبة، ومناسبة حلوة كمان. ياسيدى العمارة بتاعتى كملت. خمس تدوار، وكل دور شقتين، ولك شقة فيها.

– أنا لى شقة فيها؟!!

– أيوه يابا أمال إيه؟ انت مش أبويا والا إيه؟

– مش أبوك؟!!

– أيوه أُمال! هو انت فاكر إنى كنت هاسيبك كده على طول؟ أنى بس كنت مستنى لما العمارة تكمل. وأهى كملت أهى والحمد لله والشقة محجوزة لك. وكمان عندي لك مفاجأة تانية. أحلى من مفاجأة الشقة. تعرف إيه هى يابا؟ عروسه. عروسه حلوه واللى خلقك يابا، وشابه كمان. هو أنا مش عارفك يابا؟ شباب والله وأشد من الشُبان كمان. شوف

البرطمان ده. عنبر حر. لأ وكمان محطوط له هليل التمساح. هيخليك تعمل العجب. هَدّهُولك ليلة جوازك، إيه رأيك؟ وقبل ما يخلص هتلاقى غيره عندك.

– أنا ما باستعملش الحاجات دى.

– مش باقولك؟ شباب وأشد من الشباب!

– ولا هاتجوز.

– على الكلام ده يابا؟ أُمال كنت بتجرى ورا البت نوال ليه؟ ورحت ليه مره عند عزب الجمل؟ هو أنا بيخفى علىّ حاجة؟ حتى بالأماره طردك وكان رجالته هيضربوك. مش الجواز أحسن لك، ويحميك من المعاصى دى؟... ياسيدى لو مش عايز تتجوز بلاش تتجوز، لكن تعال عندي فى العمارة وعيش فى شقتك مبسوط أربعة وعشرين قيراط.

– شقتك دى ماتلزمنيش. الحاج عطيه النشوقاتى هيدينى أوضه بمنافعها فى بيته اللى فى العرب.

– عطيه النشوقاتى ده خمساوى يابا. إزاى تقبل منه حاجة؟

صمت الأب فقال الإبن:

– آبا. أنا سمعت انك علي اتصال بالجماعة دول؟

– طب وإيه يعنى لما أكون على اتصال بيهم؟ هو الواحد مننا مش لازم يعرف كل حاجة فى الدنيا دى؟ انت فاكرنى حمار زيك، أعيش جاهل وأموت جاهل؟ أنا تقربت منهم عشان أعرف دول عايشين ازاى وبيفكروا ازاى وبيقولوا إيه. الواحد لازم يتثقف ويطلع على كل حاجة.

– يتثقف إيه يابا ويطلّع إيه. دول جماعه مشبوهين واللى يتصل بيهم ويحضر اجتماعاتهم يبقى زيهم. يعنى انت أكيد بقيت زيهم.

ثم أضاف الإبن وهو يحدق مذعورًا فى أبيه:

– آبا. انت بتستنجى باللبن؟!!

فضحك الأب وقال:

– ياخويا اتنيل، هو أنا لاقى أشربه!

– يعنى ماباقتش خمساوى يابا؟!

– هو الخمساوى لازم يستنجى باللبن؟ ده كان زمانه اتسخط قرد.

– مسيرهم هيتسخطوا قرود. ربنا مابيعاقبش على طول. ده بيهمل ولا يمهل.

ضحك على باشا وقال:

– بيهمل ولا يمهل؟!! والله انت حمار ومش عارف عملت الفلوس دى كلها ازاى! أحب اعرفك يابتاع يهمل ولا يمهل ان الكلام اللى بتقوله عن الجماعه دول مش صحيح. لاعندهم استنجا باللبن ولا.... ولا الكلام الفارغ التانى ده بتاع الستات اللى بتنام مع رجالة غيرها. انت عارف بلدنا الوسخة دى لما ما يعجبهاش حاجة، تقعد تطلع عليه كلام، ويكون كله كذب وافترا. وبعدين الناس دول أسمهم البهائيين مش الخمساوية.

– طب ولازمته إيه وجع القلب ده يابا؟ ما الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح وبلاش نجيب لنفسنا سمعه وسخه زى دى. والنبي يابا تبعد عنهم وتخليك فى حالك أحسن.

– بس أنا عاجباني أفكارهم يا أخى. وبعدين دى قُريبه من أفكار الطريقة الشاذلية والطريقة الخاتمية والطريقة الإدريسية. وكمان يزيد عليها أنهم بيقولوا إن الإمام هينزل عشان يخلص الناس من الظلم ويعدل فى الأرض. وحش لما يجى واحد يعدل فى الأرض؟!!

– يابا ده كلام فارغ.

– لأ مش كلام فارغ يا بو شفه مشقوقه.

– بتعايرنى يابا؟ الله يسامحك.

لم يتأثر على باشا بالحزن الذى سببه لإبنه واستطرد قائلاً:

– وإذا كان اللى بيقولوه كلام فارغ فدى بالذات مش كلام فارغ، لأن الإمام موجود وهيخلص الناس من الظلم وهينشر العدل على الأرض. تعرف ياصلوحه مين بقى هو الإمام؟ ..... أنا..... أنا يا صلوحه هو الإمام اللى هيخلصكم من الظلم واللى هينشر العدل بينكم.

بدا أن الأب قد أضاف نادرة من نوادره السابقة التى كان صلوحه يسمعها من عم محمود مرسال إذ انفجر ضاحكًا ضحكةً عالية فاقت كل ضحكاته السابقة وقال وهو لايزال يضحك:

– إنت يابا الإمام بتاعهم؟! يعنى يا صلوحة أبوك مش خمساوى وبس. لأ ده كمان إمام الخمساوية كلهم. إتفوه عليك راجل ابن كلب وسخ. طب والله لانا مبلغ عنك وعن جنانك ده. والله لأوديك السرايا الصفرا ياراجل يافاجر يا مجنون.

خرج صلوحه يسب أباه ويلعنه وفكر وهو فى السيارة ما الذى

ينبغى عليه فعله «أروح للبوليس وابلّغ عنه؟ هتبقى فضيحة وجُرسه. وكمان البوليس عارف انه راجل هجاص ومجنون. وعشان كده ماكانوش بيكلموه لما كان بيتكلم حتى ضد الحكومة فى خطبه على القهاوى. بالعكس، دول يمكن الوقت يتبسطوا لما يعرفوا انه ساب السياسة ومسك فى الدين، خصوصًا إذا كان دين هايف زى البهائية».

شرد صلوحة قليلاً ثم استطرد قائلا فى نفسه:« هايف والا مش هايف، أهو دين والسلام..... بقى أنا أبويا يطلع من دينه ويخش دين تانى؟!! والناس لما تشوفنى تقول فى سرها «إبن الخمساوى أهو». ومين يعرف؟ يمكن بكره والاً بعده يعايرونى فى وشى ويقولولى « يابن الخمساوى». معقول ده يا صلوحه؟! يعنى مش هاقدر أرفع وشى فى وش حد تانى؟!. طيب أنا هاعرف شغلى معاك ياوسخ يابن الكلب».

*****

قرر على باشا الشافعى أن يُقصر إلقاء خطبه على غرز المناخ ومقاهى العرب المتواضعة فمرتادو هذه الأماكن هم أحوج الناس إلى أفكاره الجديدة التى ستخلصهم حتمًا من فقرهم وبؤسهم وذلهم. اقتصرت خطبه على الدين وتَرَك السياسة وأساطينها بمن فيهم الدكتور محمد صلاح الدين.

أصغى الناس إليه فى البداية. لم يقاطعوه بأصواتهم المستهجنة أو بحركاتهم المعيبة كما تعودوا أن يفعلوا فى خطبه السياسية. لكن وكأى مصلح اجتماعى أو دينى فإنه لاقى عنتًا وصدًا كبيرين من هؤلاء الذين يحاول إصلاح حالهم.

«.... أنا اتبحرت فى السياسة.... الدولية والمصرية... وجربت

الأحزاب وعرفت كل الكلام اللى بيقولوه. لكن لقيت ان كله كلام فارغ. بعد عشرين سنة من التفكير والتأمل في الكون والناس اهتديت للحل، والحل الوحيد يا إخوانى هو الله. الحل الوحيد عند الله.

ورفع سبابته تجاه السماء وهو يردد:

- أيوه الحل عند الله. وعشان أنا توصلت للحل ده واهتديت إليه فربنا سبحانه وتعالى كافأنى واختارنى عشان أخلصكم من اللى انتوا فيه.

توقف فجأة وران صمت على الجميع لم يلبث أن كسره أحد الجالسين عندما نهض واقفًا وصاح:

- الله يخرب بيتك ياعلى. إنت آخدها جد يا مجنون؟! اختارك إيه وهببك إيه! ربنا هيختارك انت عشان تصلّح أحوالنا؟! ليه، هو اتـ ......

واستدرك الرجل الخطأ الشنيع الذى كاد أن يقع فيه فقال:

- أستغفر الله العظيم يارب. كنت هاتخلينى أكفر يا ابن الكلب.

- الله يسامحك يا بُرهُم. أنا برضه كنت متوقع ان واحد والاَّ اتنين هيعترضوا على ويصدونى. لكن بكره كلكم هتعرفوا انى على حق. عشان كده لازم أصبر واتحمل لغاية ما أقوم بالمهمة اللى كلفنى بيها المولى سبحانه وتعالى. وأنا من هنا ورايح ما اسميش على باشا الشافعى. من هنا ورايح أنا اسمى الإمام على الشافعى اللى هيملالكوا الدنيا عدل وبركه.

نهض هيما القزعة عن مقعده ولم يكن ارتفاعه وهو واقف يزيد عن

ارتفاع الآخرين وهُم جلوس وقد واتته اليوم شجاعة فائقة للوقوف أمام على باشا الشافعى ذي القامة المديدة والطلعة المهيبة وقال صائحا:

- مش باقول لكم الراجل ده خمساوى وبيقول كلام الخمساوية.

ثم وقف فاروق الجرابعى فتوة المناخ وأيقن الحاضرون أن نهار على باشا الشافعى سيكون أسود من تربة أبيه، وقال الفتوة وهو يتجه إليه ببطء وعضلات صدغيه وفوديه تتحرك بشدة ونظرات عينيه تنم عما ينتويه من شر نحوه:

- يبقى ابن الشرموطه ده عايز له علقة سخنة وإلاَّ لأ يا جدعان؟

فقال على:

- الله يسامحك يافاروق.

ثم أطلق لساقيه العنان قبل أن تطاله يدا فاروق الجرابعى.

*****

ساعد الدكتور يزدى نوال وحسن جنزير بالبيانولا، واشترى لمحمود المان آلة خياطة حديثة وأعطى نقودًا لعلى باشا لتكون له تجارة مستقرة فى السوق. لم يكن يهدف إلى ضم هؤلاء إلى طائفة البهائيين بل إلى كسب شعبية فى أوساط شعب بورسعيد. لكن على باشا الشافعى أساء فهم الهدف واعتقد أن الدكتور الحويط كان يهدف في الواقع إلى زرع حب البهائية فى نفوسهم ومن ثم اعتناقها، فأخذ يجلس مع الحاج عطية النشوقاتى والحاج حسن رسلان وسمع منهما الكثير عن البهائية وقد راقت له كثيرًا فكرة المهدى المنتظر ولم يلبث أن اقتنع أنه المهدى المنتظر نفسه.

استدعاه الدكتور يزدى بعد خطبته الأخيرة فى حي المناخ وأبدى له إعجابه بغيرته على المذهب البهائى وتحمسه لنشر أفكاره، لكنه أنبه إذ اعتقد أنه المهدي المنتظر:

- ياعلى إحنا إمامنا معروف. وموجود فى مكان تانى غير مصر مفيش داعى تعرفه. ونصيحتى لك تبطل الكلام الفارغ اللى بتقوله للناس عن البهائية لأنك بكده هتشوهها، وكفاية عليك الكلام عن الاتحاد السوفيتى وستالين ومجلس الأمن ومحمد صلاح الدين. فاهم يا على!

خرج على باشا الشافعى من مكتب الدكتور يزدى غير متزحزح قيد شعره عن اعتقاده الراسخ بأنه الإمام. لم يجد أمامه الآن إلاَّ مقهى البرنسات ليتحدث إلى الناس الذين يفهمونه ويقدرونه. تحدث إليهم فى الإمامه والعدالة فقال بعد أن أعتذر لهم عن طول غيابه:

- أنا مش جايلكم عشان أنشر العدل بينكم لأنكم ناس محترمين ومفيش حد منكم مستنى كلامى عشان يبقى كويس. إنما أنا جايلكم عشان تساعدونى وتقفوا جنبى وأنا باخلُّص الناس الغلابه اللى فى المناخ والعرب من العذاب اللى هم فيه وللأسف الناس دى مش عارفه مصلحتها كويس . أنا عايزكم تتكاتفوا معايا وتوضحولهم أفكارى اللى من غيرها عمر حالهم ما هينصلح. الإمام على الشافعى مش هيقدر ينشر العدل لوحده. ومفيش حد هيقدر يساعدنى إلاَّ الناس المتنوره اللِّى زيكم.

قاطعه ابن صاحب المقهى قائلاً:

- كفاية كده يا على. إنت طوّلت قوى النهارده.

– أنا طولت يا يسرى؟

– أيوه طولت. وبصراحه دمك كان تقيل والناس زهقت منك. إيه الكلام الفارغ اللى بتقوله ده؟ إمام إيه وعدل إيه؟ انت عايز تشبه القهوة؟

– الله يسامحك يا يسرى. الناس اللى بتقول زهقت منى كانت قاعده بتسمعنى كويس، وفاهمه كل كلمة باقولها.

– طب اتكل علي الله يا على. وما تجيش هنا تانى. فاهم؟

*****

كانت عمارة صلوحة الشافعى قد اكتملت قبل أسبوع واحد من لقائه بأبيه الذى رفض طلب إبنه أن يأخذ شقة من شققها ويترك أفكاره ومعتقداته البهائية. لم تدم فرحة الإبن طويلاً بالعمارة الجديدة وشعر بغم هائل لوصمة العار الشديدة التى لابد ستلحق به لكفر أبيه البين. كان الناس يعرفون أن للأب أفعالاً غريبة بل مشينة تنم عن جنون حقيقى لكنها لم تكن تؤثر فى الإبن. لكن خمساوى؟ لا!! يستحيل أن يعيش فى بورسعيد ويقال فى وجهه أو حتى من وراء ظهره إنه ابن خمساوى. « الله يلعنك يابا. كنت زمان باضحك لما يقولولى انك مهرج والا حتى حرامى. لكن ازاى أقدر أضحك الوقت لو قالوا لى إنك خمساوى؟ وحتى لو ضحكت وضحكوا هُمَّ معايا عشان يجارونى فأكيد عندهم كلام مش عايزين يقولوه لى فى وشى وأكيد هيلعنونى فى سرهم لأنى برضه فى نظرهم بقيت ابن خمساوى».

لجأ صلوحة إلى بعض آليات الدفاع عن النفس ليبعد تهمة البهائية أوشبهتها عنه هو شخصيًا. فإذا كان أبوه المجنون بهائيًا فإنه متمسك

بدينه الإسلامى وحريص على مناسكه. تعاقد فى الحال مع مقاول ليحول له دكاكين عمارته الجديدة التى كانت ستدر عليه دخلاً كبيرًا إلى مسجد فسيح. وبعد أن انتهى المقاول من ذلك فرش صلوحه المسجد بسجاجيد وليس بحصر كما كانت تفرش معظم المساجد، وفى يوم الافتتاح ذبح أربعة عجول ووزع لحومها على الفقراء ودعا إلى هذه المناسبة بعض مشايخ المدينة ووعاظها وعلى رأسهم الشيخ متولى شحاته، ومن ناحية أخرى فإنه توقف عن ارتياد بار روبيللو والانضمام إلى مجموعة الأصدقاء الظرفاء الذين اعتادوا أن يجتمعوا هناك كل مساء، وكانت تلك متعة حياته الوحيدة خارج بيته وها هو ذا يُحرم منها بسبب أبيه الذى زلزل حياته وسود أيامه.

*****

لم يعد على باشا الشافعى يجلس مع الحاج عطية النشوقاتى أو الحاج حسن رسلان، أو يحضر المحفل البهائى الروحانى، أو يزور الدكتور يزدى. لم يعد فى الحقيقة يحفل بالأفكار البهائية باستثناء فكرة المهدى المنتظر التى ما فتئت تملك عليه عقله ووجدانه فازداد نشاطه للترويج لها رغم سخرية الناس منه ومضايقاتهم الشديدة له ولم يلبث أن تعرض لمطاردات الصبية الذين تحولوا موقتًا من مطاردة الخنازير الكافرة إلي مطاردة المرتد الأثيم. وكانت مطاردتهم له أعنف من مطاردتهم الخنازير إذ كانوا يلقون عليه الحجارة الكبيرة والعلب الصفيح والزجاجات الفارغة. لم يستسلم على باشا بل كان يلتقط بعضًا مما كان يُلقى عليه ويقذف به فى التجاه المضاد فلم يزدد الصبية إلا شراسة.

تصادف وجود الشيخ أحمد فى إحدى تلك المطاردات فلم يسعه إلا

أن ينضم كدأبه إلى صف المُطارد وقد أصيب رأسه بحجر فشجه وبآخر فى ظهره فتوقف الصبية عن إلقاء الحجارة واتبعوا طريقة الانبطاح أمام المطاردين حتى يتمكنوا منهما. انبطح أحد الصبية أمام الشيخ أحمد فوقع وسرعان ما أمسك به صبيان آخران بينما انبطح صبى آخر أمام على باشا الشافعى فتعثرت قدماه لكنه لم يقع وما كان منه إلا أن انقض على الصبى ومسكه ورفعه للفتك به لكن الباشا فوجىء بصغر حجم الطفل وهزاله فلم يضربه واكتفى بإلقائه على الأرض. أسرع الصبية إلى زميلهم وجروه بعيدًا عن الباشا وما لبث كل واحد منهم أن رماه بما فى يده. رفع الرجل ذراعيه حول وجهه ورأسه لحمايتهما من الحجارة والعلب الصفيح وقطع الزجاج. أخذ الصبية المتحلقون حوله يقتربون منه رويدًا رويدًا ومالبثوا أن انقضوا عليه جميعا ومرة واحدة فأشبعوا وجهه لكمًا وركلاً، وعندما تركوه كان ممددًا على ظهره، ووجهه يتجه نحو السماء التى لم يرها بعينيه المغلقتين بسبب الأورام التى أحاطت بهما والدماء التى غشيتهما.

لم يلن على باشا ولم يلن الصبية وازداد إيمان صلوحة. كثر تصدقه على الفقراء وشوهد وهو يوزع النقود والكساء والأطعمة على بعض صبية العرب والمناخ. وفى أحد الأيام استدعاه مأمور قسم ثالث وأخبره أن أباه وُجد مقتولاً خلف حظائر الخنازير وأن الوفاة سببها نزيف حاد في المخ لكسور متعددة فى الجمجمة. قال صلوحة على الفور:

- يستاهل. أهو كلب وراح.

فقال المأمور:

- إيه ده يا صلوحة، غريبة إنك بتقول كده على أبوك.... مايكونش لك مصلحة فى موته؟

فقال صلوحة:

– أنا لا لى مصلحة ولا حاجة يا سعادة المأمور. أنا راجل غنى وعندى أملاك. وهو ما يحتكمش على مليم أحمر. يبقى لى مصلحة فى إيه؟ ياالله. الله يرحمه ويحسن إليه. عايزنى فى حاجة تانية يا حضرة المأمور؟

– أيوه. وكيل النيابة هيستدعيك عشان ياخد أقوالك.

– أنا تحت الأمر يا حضرة المأمور.

*****

أخذت النيابة أقوال الإبن والجيران وحفظت القضية ضد مجهول. وكان على صلوحة أن يتسلم الجثة من المشرحة بعد أخذ إذن الدفن من النيابة. فكر أول الأمر أن يرفض استلامها حتى يعرف الناس أنه متبرىء من أبيه فى مماته كما كان متبرئًا منه فى حياته لكنه تراجع واستلمها حتى لا يثير الريبة حول مقتله.

فى هدوء وتكتم تامين أخذ صلوحة سيارة نقل موتى واتجه إلى المشرحة بصحبة اثنين من عماله. أخذوا الصندوق ووضعوه فى السيارة التى اتجهت رأسًا إلى رأس العش وهناك دفن صلوحه أباه، بعيدًا عن مدفن الأسرة فى بورسعيد حتى لا يدنس ثرى أمه الطاهرة.

٩ عزب بك الجمل وشباب المدينة

عدد كبير من الناس يصلون فى مسجد عزب بك الجمل الكائن بشارع اسماعيل. المسجد صغير ويشغل الدور الأرضى من العمارة لكنه اكتسب مساحة إضافية كبيرة من أرض البواكي الممتدة أمامه كما أن الرجل عهد إلي الشيخ سعيد العتمة صاحب مخازن الفراشة بفرش الشارع كل جمعة بالحصر والبسط وإقامة مظلة كبيرة لاستيعاب الأعداد الكبيرة التى تفد لأداء المشاعر.

كانت هناك عيوب جسيمة فى شُغل الشيخ سعيد العتمة يوم الجمعة الماضى فهناك نقص فى البسط المفروشة وكانت بعض الحصر متآكلة وبالمظلة عدة ثقوب نفذت منها أشعة الشمس وضايقت المصلين فتوجه إليه عزب بك فى اليوم التالى ورفع عقيرته عليه:

- .... يا شيخ سعيد خلى فى قلبك رحمة وتقوى. ده انت حاجج بيت الله مرتين. مصليين دول اللى احنا بنخدمهم والا خمورجية. وبعدين أنا قصرت معاك فى الفلوس؟!! وحتى يا أخى لو كنت بتعمل الحاجات دى ببلاش فلازم برضه تعملها كويس.

- خلاص بقى يا عزب بيه. حقك علىَّ. والله لأربيلك العيال ولاد الكلب اللى عملوا شغل الجمعة اللى فاتت ولو لقيت بعد كده أى غلطه يبقى ما تدفعش أى حاجة. ياولَه يا عبده. وله يا سيد. تعالو لى هنا.

*****

لا يوفر عزب بك الجمل الراحة للمصلين فقط بل يُحضر أفضل خطباء المدينة لإلقاء الخطب والمواعظ فى مسجده وأحيانا ما يذهب إلى القاهرة ليتعاقد مع مشاهير القراء والخطباء مما أكسب المسجد شهرة كبيرة جعلت الناس يفدون إليه من العرب والمناخ لأداء صلاة الجمعة فيه. ويعرف الجميع مقرئين وخطباء ومصلين نقيصة عزب بك الجمل لكنهم تغاضوا عنها لأن الله جلت حكمته سخر هذا الإنسان الشاذ لخدمة المسلمين كما سخر لهم الكفار والمشركين بمخترعاتهم وكشوفهم العلمية لينعموا بها فى الأرض كما أنهم يعرفون أن أموال الرجل كلها حلال فأعماله وتجارته كلها مشروعه ويعمل فيها ويترزق منها عشرات الرجال الذين يعُولون أسرًا ويطعمون أفواهًا.

*****

عندما حوّل صلوحة الشافعى دكاكينه إلى مسجد كان يُقلد عزب بك الجمل الذى اكتسب حب جماهير بورسعيد رغم شذوذه الجنسى. فكر صلوحة أن هذا المسجد الذى بناه سيمحو بالتأكيد شبهة البهائية عنه مثلما حيَّد مسجد عزب بك شذوذ الرجل. لكن الحقيقة أن عزب بك الجمل لم يُقم المسجد ذرًا للرماد فى العيون مثلما فعل صلوحة بل لأنه كان رجلاً خيرًا فعلاً وابن مدينته وجاء بناء المسجد تعبيرًا عن هويته وليس تغطيةً لعاره.

*****

يدير عزب بك الجمل أعماله بحزم واقتدار. لا يعرف المجاملات أو يقبل تقاعس العمال أو أعذارهم عن أخطائهم. أما فى غير العمل فيتميز بالسماحة والظرف وخفة الدم وعندما يمشى في الشوارع أو يرتاد الأسواق يحييه الناس والباعة باحترام شديد.

لم تأت شعبية عزب بك الجمل من فراغ. فإلى جانب بنائه المسجد والأعمال الخيرية الكثيرة المعروفة حالياً فإن له أعمالاً جليلة جعلت منه شخصية وطنية ذات تاريخ مشرف، منها قراره بعدم التعاون مع الجيش الانجليزى فى أزمة ١٩٥١ وإلغاء توريد الأغذية لهم، ثم قراره بتشغيل العمال المصريين بعد أن قررت حكومة الوفد سحبهم من معسكرات الجيش الانجليزى. كما لا ينسى الناس قيامه بنفسه بالمساعدة فى عزل المصابين بالكوليرا، واستقباله الفلسطينيين وإيوائهم عام ١٩٤٨ وأخيرًا تصديه للدكتور يزدى وتقويض محاولاته فى نشر البهائية فى بورسعيد، ففى مسجدَه خُصصت ثلاث خطب فى ثلاثة جمع متتالية لمهاجمة «أحد الأطباء الأجانب الذى يحاول نشر أفكار وتعاليم وطقوس غريبة فى أوساط الشبع البورسعيدى المتمسك بإسلامه».

*****

لعزب بك الجمل قريبان هما إبنا أختيه. أحدهما مقيم فى بورسعيد واسمه السيد الديب ويعمل بإحدى شركات الرباط والآخر هو السيد الطناحى رئيس تحرير مجلة الثورة الذى وضع تعتيمًا كثيفًا على قرابته لعزب بك. أما أقرب الناس إليه وإن لم يكن من ذوى قرباه فهو السيد زرمبه الذى يدير ڤيلته ويرعى شؤونه الخاصة ومنها جلب الشباب الذى يقضى عزب بك معهم أوقاتًا سعيدة. قال عزب للسيد زرمبه ذات يوم:

– إيه رأيك فى الوله محمود المان يا سيد؟

– ما انت عارف الوله ده يا عزب يا خويا، زى ما كل البلد عارفاه. بنوته خالص وبيتكسف من خياله.

- متهيألى فيه حد مرافقه من عيال البلد؟!

- لا يا عزب بيه! مفيش حد سمع كده عنه.

- طب إسمع. أنا عايزك تجيبهولى هنا. أنا لى مزاج فى الواد ده.

عندما يأمر عزب الجمل السيد زرمبه بعمل شىء فإنه ينفذه فى الحال مهما كانت صعوبته. وكان إحضار محمود المان إلى ڤيلا عزب الجمل أمرًا صعبًا للغاية بل كاد أن يكون مستحيلاً ولولا براعة السيد زرمبه وتحايله بالإغراء تارة وبالكذب تارة أخرى لما حضر محمود المان إلى الڤيلا.

خرج عزب بك من الحمام فى أبهى زينته، يرتدى بيجامة حريرية ويتطيب بعطر نفاذ سبقه إلى الصالة حيث كان يجلس المان على كنبة كبيرة. أقبل عليه عزب بك وهو يردد عبارات الترحيب بلهجة قاهرية ناعمة ممدودة حروف علتها بشكل ملحوظ:

- أهلاً وسهلاً. أهلاً يا حُووده. إزيك يا حبيبى.

- الحمد لله يا سعادة البيه.

- وعامل إيه فى الشغل؟

-كويس يا عزب بيه.

جلس عزب بك بجانب محمود على الكنبه ثم أخذ يقترب منه رويدًا رويدًا حتى التصق به تمامًا وما لبث أن وضع ذراعه على كتفه فاحمَّر وجهه. تزحزح محمود المان بعيدًا فما كان من عزب بك إلا أن تحرك وراءه حتى التصق به ثانيًا، وقال:

- انت مكسوف والا إيه يا حووده؟

- لا أبدًا يابيه.

لكن وجهه كان يطفح بحمرة شديدة. أحنى رأسه على صدره ووضع كلتا يديه مضمومتين على بطنه فظهر جسمه منحنيًا منكمشًا بجانب مضيفه الذى وضع يده على فخذ الشاب وقال:

- ياراجل ما تتكسفش كده وافرد نفسك. ده انت ماشاء الله عليك طول بعرض وعليك عضلات مش على أى شاب فى بورسعيد. يبقى هتتكسف ليه؟ ورينى صدرك وعضلاتك كده يا حُوده.

تحسس عزب بك عضلات الشاب الخجول بدءًا من كتفيه إلى ساعديه ثم صدره، ثم نزل بيده إلى بطنه ثم إلى مابين فخذيه فصاح مذعورًا:

- يا ابن الكلب!! الله يخرب بيتك يا محمود! إيه ده كله ياله؟! وعامل لى بنوته؟!

انكمش محمود أكثر فقال عزب بك وهو ينهض عن الكنبة:

- قوم يا لله معايا يا أبو طه:

فقال محمود وهو مازال منكمشًا وعيناه فى الأرض:

- أقوم فين يابيه؟!

- نطلع فوق. قوم ياالله قوم. ده أنا هابسطك وهاغرقك فلوس.

ازدادت حمرة وجه الشاب حدة وتسمر فى الكنبة فقال عزب بك:

- أنا هاتحايل عليك. ما تقوم أُمَّال.

- أرجوك يا سعادة البيه. سبنى أروّح. عمتى ما تعرفش إنى هنا.

- عمتك؟! إيه ياختى البلاوى دى؟

وإزاء إصرار المان على عدم التحرك عن الكنبه نادى عزب بك السيد زرمبه وقال له:- إيه يا سيد الواد ده اللى جايبهولى. انت ماقلتلوش هو جاى ليه؟

فقال السيد زرمبه لمحمود المان:

- ماتوافق بقى يا محمود وماتحرجنيش. ده البيه هيبسطك وينغنغك.

نهض المان فجأة وقال مخاطبًا السيد زرمبه بحزم:

- أنا مش قاعد هنا دقيقة واحدة. وصلّنى للباب لو سمحت.

وكاد السيد زرمبه أن يواصل إقناعه للشاب العنيد لولا أن قال عزب بيه:

- خلاص يا سيد. خليه يروح فى داهيه.

*****

أعطى الدكتور يزدى بعض النقود لمحمود المان ونصحه بفتح كشكٍ لبيع السجائر والحلويات والمرطبات. لكن المان فضل شراء آلة خياطة سنجر من النوع الحديث الذى يصنع العراوى ويسرفل القماش إلى جانب الخياطة. وبجانب شغل الخياطة والتطريز كان المان يقضى طلبات عمته من شراء الزراير والخيوط والإبر إلى شراء لوازم البيت من لحم وخضار وفاكهة وبعد العصر كان يصحب البنات العاملات فى مشغل

عمته حتي منازلهن وقد اطمأن أولياء أمورهن لتلك الصحبة الآمنة إذ كانت البنات وهن معه يتمتعن بحماية تامة لامتناع شبان المدينة عن معاكستهن وهن بصحبة الشاب الخجول. وأثناء سيره مع البنات كان يسمع تعليقات لطيفه من الشبان مثل « والله أنت قمر عنهم يا محمود» أو«مساء الخير ياجميل ياللى ماشى مع البنات الوحشين» فيبتسم دون أن يلتفت إليهم ويمضى فى طريقه مسرعًا الخطى ووجهه المحمر متجه إلى الأرض القريبة من قدميه بينما البنات يتغامزن فى صمت وسعادة.

تعرض محمود المان لحادثة مؤسفة عندما كان يصطحب إحدي بنات المشغل إلى منزلها الكائن خلف وابور النور. كان الوقت يقترب من المساء والجو عاصف والشوارع خالية من المارة فى تلك المنطقة. وبالقرب من معسكرات الجولف القديمة سمع محمود والفتاة صوت شخص خلفهما:

– ثريا. ثريا.

التفتت ثريا خلفها لكن المان لم يلتفت، وقال وهو ماض فى طريقه:

– إنت تعرفى الواد ده يا ثريا؟

– أبدًا والله يا محمود. أنا لا أعرفه ولا شفته قبل كده.

أسرع الشخص نحوهما فاقترب منهما كثيرًا وقال للفتاة:

– ماتسيبك منه يا ثريا وتيجى أوصلك أنا.

فقال المان بانفعال لكن دون أن يلتفت وراءه:

– أرجوك يا أخ ابعد عننا. إنت عايز إيه دلوقتى؟!!

قال الشاب فى تحد ووقاحة:

– عايزها يامان. إرجع انت على بيتك وخلينى أنا أوصلها.

توقف المان والتفت وراءه فرأى فاروق السنبارى المعروف بشراسته والذى لا يتورع عن فعل أى شىء، ومع ذلك قال له المان:

– إلزم حدودك لو تسمح، وإلاَّ هازعَّق وألم عليك الناس. ياالله يا ثريا.

مضى المان فى طريقه وقد أمسك بيد الفتاة وكانت المرة الأولى فى حياته التى يمسك فيها يد فتاة من الفتيات اللاتى كان يصطحبهن. غير أن فاروق السنبارى مسك ذراع الفتاة بيد ودفع المان بقوة باليد الأخرى وقال:

– باقولك رَوَّحْ إنت يامان وإلا هيكون يومك أسود.

فقال المان وهو يبدى مقاومة محاولاً إبعاد الشاب المتهور عن الفتاة:

– أرجوك سيبنا وابعد وبلاش الوحشية دى.

– لأ مش باعد، وخُد.

تلقى المان لكمة في وجهه. ترنح للخلف لكنه لم يقع بينما طوق فاروق السنبارى بذراعه اليمنى خصر الفتاة المذعورة التى حاولت الفكاك منه لكنها لم تستطع. خطا المان نحو فاروق السنبارى وبدون وعي منه سدد إلى وجهه لكمة قوية أفقدته توازنه وأوقعته على الأرض أتبعها محمود بركلة قوية فى بطنه فصرخ الشاب صرخة هائلة. انحنى محمود عليه وكال له عدة لكمات فى وجهه وبطنه فصرخت الفتاة قائلة:

– سيبه يا محمود. هتموته!

لم يتوقف محمود إلا عندما جذبته الفتاة بكل قوتها من عنقه بينما ظل فاروق السنبارى مستلقيًا على ظهره والدماء تسيل من عينيه وأنفه.

*****

عرف الناس بتفاصيل الحادثة فى اليوم التالى. دهشوا أولاً، ثم سعدوا أيما سعادة لأن محمود المان الخجول ضرب فاروق السنبارى الماجن المتهور ضربًا مبرحًا كاد أن يقتله وأدركواأن نفسه الهادئة المتسامحة لتنطوى على قوة وشجاعة فائقتين لم يكن لهما أن تظهرا لولا تلك الحادثة العارضة كما سرت همهمات حول فحولته غير العادية بعد زيارته لڤيلا عزب بك الجمل فطمست الإشاعات القديمة عن خنوثته التى يوحى بها فى الحقيقة خجله الشديد وسلوكه الأنثوى الرقيق، وبدأ المان منذ تلك الحادثة يسمع عبارات ثناء كثيرة عن شجاعته وقوته وحتى فحولته فلا يلبث أن يمضى فى طريقه خافض الرأس أحمر الوجه تداعب أساريره ابتسامةٌ خفيفة يحاول الشاب إخفاءها بزيادة خفض رأسه نحو الأرض.

*****

يعيش فاوق السنبارى مع جدته لأمه منذ أن كان فى الثالثة من عمره بعد انفصال أبويه وزواج كل منهما بآخر. كانت الجدة تبتز الأبوين وتقسم للواحد أن الآخر لا يعطيها شيئًا واتبع فاروق عندما شب عن الطوق أسلوب جدته فى الابتزاز خاصة بعد أن بدأ يشرب الخمر ويتعاطى الحشيش وكان قد طُرد أيضا من المدرسة التجارية لسوء سلوكه وفى الآونة الأخيرة كان يبتز جدته نفسها ويهددها إذا لم تعطه ما

يطلب منها أن يخبر أباه وأمه بملاعيبها، ولم يسلم زوج أمه من أذاه. ذهب فاروق إلى أمه يومًا ورائحة الخمر تفوح من فمه وطلب منها عشرة جنيهات وعندما رفضت لوى ذراعها وانتزع كردانها الذهبى من عنقها على مرأى من زوجها الذى لم يعد يتدخل لدفع الأذى عن زوجته حتى لا يتعرض لأذى أشد وأصبح يكتفى فى مثل هذه المواقف بـ «عيب يا فاروق.. دى أمك».

يبلغ فاروق العشرين من عمره. ورث عن أمه بسطة جسم لم تفده على أى حال فى معركته مع محمود المان. شراسته وعراكه المستمر مع الناس أزالا ملاحة وجهه التى كان يُحسد عليها فى طفولته وصباه. يقضى أوقاته خارج البيت ما بين غرز الحشيش والخمارات الشعبية ومواخير المناخ ومقاهى القمار، وبقيت له موبقتان لم يفعلهما: تفريش فتاة ومضاجعة عزب بك الجمل.

ولتحقيق رغبته الأولى وضع عينيه على فتيات مشغل عمة محمود المان لكنه فشل، فما كان منه إلا أن أغرى طماطم إبنة عفيفة المومس بعُقد أمه فوافقت. وتقابلا تحت سلم بيت عفيفة نفسها فى منتصف الليل وهو وقت مناسب جدًا إذ تكون الأم عندئذ منهمكة فى عملها مع زبائنها. رقدت البنت على ظهرها وقبل أن يُشلحها الشاب أطبقت الأم عليه وشدته من دبره وهى ترسل صرخات استغاثة للجيران الذين تجمهروا فى الحوش بينما صوتُ الأم يجلجل بشتائم مقذعة نحو الشاب الذى يريد مس عفة إبنتها.

- إنت فاكر بنتى إيه ياوسخ. دى أشرف من أمك اللى سابت أبوك عشان عشيقها. بنتى دى اللى انت اتهجمت عليها عمرها ما هتنكشف إلا على جوزها.

وبادرت عفيفة بلكمه ومالبث أن تبعها الجيران الذين لم يتركوه إلا بعد أن أخذ نصيبًا وافرًا من الضرب المبرح.

*****

بعد يومين شرب فاروق السنبارى زجاجتين طافية فسكر سُكر القرود وتوجه إلى ڤيلا عزب بك الجمل ليضاجعه لكن البواب منعه من الدخول عندما رأى سكره البين. أحدث الشاب جلبةً سمعها عزب بك فنزل ورأى الشاب السكير المتهور فقال عزب على الفور:

– خدوا إبن الكلب ده وارموه بعيد.

فى عصر اليوم التالى كان عزب بيه يتجول بحنطوره فى المدينة كعادته. يحييه الناس فيبتسم ابتسامته المشرقة ويرد تحياتهم بأحسن منها وفجأة سمع من يصيح بأعلى صوته قائلا:

– ياعزب بيه يا ابن الكلب. ياعزب بيه يا.....

ونعته بالألفاظ المعبرة عن شذوذه الجنسى.

التفت عزب بيه تجاه الشخص الذى وجه له هذه الألفاظ فرأى الشاب الذى أحدث الجلبة فى اليوم السابق أمام ڤيلته. ابتعد الشاب عن الحنطور وما لبث أن اقترب كثيرًا وكرر الشتائم. قال بعض المارة الذين ساءهم أن يهان عزب بيه على هذا النحو:

– نجرى لك وراه ياعزب بيه ونمسكه.

بدا أن عزب بيه لم يكن مكترثًا إذ قال والابتسامة على وجهه:

– لا .. ماتتعبوش نفسكم. عيل. هانعمله إيه؟ الله يسامحه.

*****

فى اليوم التالى مباشرة خرج عزب بيه الجمل بصحبة السيد زرمبه فى سيارته إلى طريق دمياط وتوقفا عند الجميل. كان الظلام حالكًا والرياح تعوى والأمواج عالية صاخبة فطال رذاذها السيارة الواقفة على بعد أمتار كثيرة من البحر. وصلت سيارة أخرى بعد دقائق قليلة ففتح عزب بيه أنوار سيارته. نزل من السيارة الأخرى إثنان من أعوانه يصحبان فاروق السنبارى مقيدًا وكان واضحًا أنه ضُرب ضربًا مبرحًا.

- إنت جيت ياشرموط؟!

تقدم عزب بيه منه ثم صفعه صفعة قوية أطاحت به وقال:

- تشتمنى الشتيمة دى قدام الخلق؟ ... طب ماهى كل الناس عارفه كده. يبقى إيه بقى اللى انت جبته من عندك؟ أه؟

صفعه صفعة أخرى وقال:

- أنا عارف إنى شرفى ضايع؛ والناس عارفه كده، وانتهوا من الحكاية دى وخلاص. يعنى ماكانش فيه داعى لشوشرتك اللي عملتها والشتايم اللى شتمتها لى، أه!

صفعه صفعة ثالثة ثم قال:

- طيب يا ابن الكلب. أنا بقى اللى هاضيع لك شرفك زي ما أنا شرفى ضايع وبعدين هافضحك قدام الخلق.

ثم قال للرجلين المسكين بفاروق:

- زين. جمعه. عليكوا بابن الكلب ده.

اشـتـد عـواء الريـح وتسـاقـط المطر رذاذًا على المكان ، وعلى ضـوء كشـافات السيارتين تناوب الرجلان مضـاجعة الشـاب المبتل وكانا يكيلان له اللكمات إذا ما أبدي مقاومة. وعندما انتهيا أمرهما عزب بيه أن يأخذاه ويلقيا به في وسط بورسـعيد. وقد أذيع في صبـاح اليوم التـالي أن بعض الناس رأوا رجلين يضـاجـعـان فـاروق السـنبـاري في أول طريق دمـيـاط وانتشرت الواقعة في كل بورسعيد. وعندمـا خـرج فـاروق من بيت جدته بعد ثلاثة أيام سمع تعليقات الناس على الواقعة. قال أحدهم:

– أمال عاملي بتاع بنات وبتاع نسوان وانت بتتنيل زيهم.

وقال آخر:

– صباحية مباركة يا رُوقة

بينما قال ثالث:

– أخوك موسى مستعد لأي خدمة. أنا برضـه أعجبك وأقدر برضـه أسدّ عن اتنين وتلاته.

في عـصـر هذا اليـوم وبينمـا كـان عـزب بيـه الجـمل يركـب حنطوره متجولاً في شـوارع المدينة قفز فـاروق السنباري إلى الحنطور عند تقـاطع سـعد زغلول والمشـرق أمـام مكتبـة المصـري وانقض علي عـزب بيه وطعنه عدة طعنات في جسمه ورقبته.

*****

على العكس من جـريمتي قتل ملك الفـقـر وعلى بـاشـا الشـافـعي اللتين اكتنفهمـا الغموض الشـديد ولم يحل لغزاهمـا حتى الآن فـإن ملامح جـريمة قتل عزب بيه الجـمل كانت واضـحـة تمامًا. فـالقـاتل مـعـروف وقد

قبض عليه متلبسًا وعلى مرأى كثير من الشهود. كما عُرفت دوافع الجريمة وظروف القاتل الاجتماعية وحالته النفسية.... إلخ... إلخ. وعندما صرح وكيل النائب العام بدفن الجثة اتصل السيد الديب بالسيد الطناحى وطلب منه مفتاح مدفن الأسرة لدفن خالهم. فقال السيد الطناحى بغضب شديد:

- إوعى يا سيد تدفنه عندنا. الجثة النجسة دى مش لازم تندفن في مدفن العيلة. تاويه فى أى خراره بعيد؛ فى مدافن الصدقة لوفيه فى بورسعيد مدافن صدقة. والا أقول لك، إدفنه فى رأس العش بعيد عننا خالص. فاهم يا سيد.

ولم يكتف الطناحى بهذا الأمر بل كلف رجلين لحراسة المدفن لمنع دفن الميت النجس فيه. امتثل السيد الديب لأوامر ابن خالته فأخذ جثة خاله فى سيارة دفن الموتى وتوجه فى جنح الظلام إلى رأس العش ودفنها هناك.

*****

احتار أحمد وطن فيما ينبغى كتابته عن جريمة قتل عزب الجمل فأهل بورسعيد منقسمون علي أنفسهم حولها، بعضهم ارتاح لموت الرجل الذى جلب العار لبورسعيد وأساء إلي سمعتها خاصة فى الإسماعيلية ودمياط اللتين دأبتا على السخرية من بورسعيد التى ينال فيها مثل هذا الرجل الشاذ مثل تلك الشعبية الكبيرة رغم أنهما لا يخلوان من الشواذ الذين هم على شاكلة عزب الجمل أو الذين يضاجعون الماعز والصبية والحمير. أما القسم الآخر فرأوا فيه رجل خير طالما ساعد المدينة فى

أزماتها وحاجوا بأن كثيرين غيره من مشاهير المدينة لم يكونوا بغير خطيئة. قرر أحمد وطن أخيرًا أن يكتفى بإرسال الخبر التالى، على أن يكتب بعد ذلك موضوعًا موسعًا عن ظاهرة جرائم القتل التى اجتاحت بورسعيد في الآونة الأخيرة:

« وقعت عصر أمس جريمة قتل بشعة فى قلب مدينة بورسعيد. فبينما كان رجل الأعمال عزب الجمل يتنزه فى حنطوره انقض عليه شاب يُدعى فاروق السنبارى وطعنه عدة طعنات في البطن والصدر والرقبة وقد تم نقله على الفور إلى المستشفى لكنه مات متأثرًا بجراحه قبل وصوله. وقد تم القبض على الجانى في موقع الحادث وبدأت النيابة تحقيقاتها ».

وبعد تردد أضاف أحمد وطن هذه الفقرة:

«وعزب الجمل من أعيان المدينة وهو خال الزميل الصحفى المعروف الأستاذ السيد الطناحى رئيس تحرير مجلة الثورة».

وقد فوجىء أحمد وطن أن رئيس التحرير لم يحذف الفقرة الأخيرة.

*****

١٠ مطاردة الشيخ أحمد

بعد عشرين يومًا فقط استطاع الشيخ أحمد الهروب من دار الحنان رغم الحراسة المشددة عليها. ومن هناك ذهب إلى محطة السكة الحديد سيرًا على الأقدام ثم ركب قطارًا تصادف أنه كان قطار الإسكندرية. بعد قيام القطار بربع ساعة مر المحصل ومساعده فى الدهليز لفحص التذاكر وكان الشيخ أحمد عندئذٍ يشاهد البقر والجاموس والحمير فى الحقول وقد أخرج رأسه وكتفيه وصدره حتى وسطه من النافذة. قال له المحصل:

- إنت رايح فين ياابنى؟

لم يرد الفتى فوضع المحصل يده على كتفه وجذبه برفق نحوه فرأى منغوليته. فقال لمساعده:

- الواد ده شيخ يا بسيونى، وباين عليه شارد من أهله.

- يبقى ننزله بنها وهم يرجعوه تانى.

*****

أُعيد الشيخ أحمد إلى القاهرة وسُلم إلى الاستعلامات، فسأله الموظف المختص بعض الأسئلة للحصول على بعض المعلومات التى قد تفيد فى إعادته إلى أهله. لكن بدا أن الموظف كان يمازحه أيضا ويتسلى بالحديث معه:

– إنت اسمك إيه ياشيخ؟... تعرف إسمك؟

– أحمد.

– أحمد؟ طب ما انت كويس أهه يا شيخ أحمد!... وأبوك اسمه إيه؟

– هيم.

– طب أمك اسمها إيه؟

– هيم.

– برضه؟! بقولك امك اسمها إيه؟ أمك مش أبوك؟

– هيم.

– طيب ماشى. وانت بقى منين؟.... بلدك اسمها إيه.

– سعيد.

– الصعيد؟

– لأ. سعيد.

– بورسعيد؟

– أيوه.

فقال الموظف لرئيسه إنه سيأخذه إلى قطار بورسعيد الذى سيقوم بعد نصف ساعة لعل ركابه يعرفونه. وأضاف مستدركًا أنهم سيعرفونه بالتأكيد. وعندما صعد به إلى العربة الأخيرة من القطار صاح جميع ركابها فى وقت واحد وقد رفعوا أياديهم وتهللت أساريرهم:

- شيخ أحمد؟!! .... معقولة؟!

ثم قال أحدهم:

- إنت هنا بتعمل إيه يا احمد؟

وقال آخر:

- إنت كنت بتتفسح فى مصر ، والا كنت فى المعرض؟

سألهم الموظف إن كانوا يعرفون أهله ويمكنهم توصيله إليهم فرد أحد الركاب:

- يا افندى الشيخ أحمد ده أشهر من نار على علم فى بورسعيد.

فرفع الموظف يده وقال:

- كويس قوى. يبقى تاخدوه معاكم وتوصلوه لأهله الله يسترها معاكم.

- ما تحملش هم. سيبوا معانا واتكل انت على الله.

وذهب أحد الركاب إلى شباك التذاكر واشترى تذكرة للشيخ أحمد، وكانت رحلة مسلية جدًا لركاب تلك العربة.

*****

تيسير هو الوحيد الذى فرح لعودة الشيخ أحمد، وقال لأبيه وهو يداعب شعر أخيه البنى الناعم:

- مش قلت لك يابابا إنه راجع. عشان كده أنا باقول لكوا ماتتعبوش نفسكوا تانى وخلوه هنا على طول. يعنى سيبكوا من حكاية دار الحنان دى.

لم يرد الأب عليه إذ كان يفكر فى رد فعل أخيه السيد حين يعلم بهروبه. لذلك قرر أن يصحو مبكرًا و،يسافر به سرًا إلى القاهرة ليعيده إلى الدار من غير أن يخبره.

استيقظ فى الساعة السادسة صباحًا لكنه لم يجد الفتى فتملكه الغضب وقال فى نفسه:

– ياسلام عليك يا احمد! هادُوخ أنا النهارده عشان الاقيك.

كان يعلم أنه لن يعود إلى البيت من تلقاء نفسه، وعليه أن يبحث عنه ويجده ثم يعيده، وعادةً لم يكن يجده إلا بعد منتصف الليل أثناء رعيه النفايات مع الخنازير أو عندما كان الصبية يطاردون القطيع وهو فى وسطه.

فى الساعة التاسعة صباحًا توجه إلى مقر الشركة ولم يخبر أخاه بهروب ابنه لكنه أوجس أن أحد عمال الشركة ربما سيراه فى العرب أو المناخ وعندئذ سيخبر السيد الدهشان.

*****

بعد منتصف الليل توجه ابراهيم بسيارته إلى مناطق رعى الخنازير. قابل أول مجموعة منها عند سوق السمك لكنه لم ير إبنه فيها فواصل سيره ببطء تجاه المناخ. اجتاز تقاطع شارعى الدقهلية والشرقية وقبل أن يصل إلى التقاطع التالى تناهى إلى سمعه أصوات الصبية مطاردى الخنازير. توقف وأوقف المحرك فسمع دبيب الخنازير على الشارع الأسفلتى وأدرك من شدته أن عددها كان كبيرًا. وماهى إلا لحظةً حتى رآها تمر أمامه وكان إبنه يجرى معها وقطع الحجارة والعلب

الصفيح الفارغة تلقى عليه وعلى الخنازير من الصبية المطاردين الذين كان عددهم هذه المرة ضعف عددهم فى أى مرة سابقة وكانوا يصيحون صيحاتهم العالية التقليدية « أوتس.... أوتس. سِك سِك».

تبعهم إبراهيم بسيارته وأمل أن يتمكن الصبية من اللحاق بإبنه ويوقعوه أرضا ويمسكوه فيأخذه منهم. لكنه سار مسافة طويلة دون أن يلحقوا به فأسرع بسيارته وسطهم وقال لإثنين منهم كانا فى المقدمة وكان يجريان بسرعة فائقة:

– هاديكم جنيه بحاله لو مسكتم الشيخ أحمد. بس أوعوا يحصل له حاجة. فاهمين؟

أطلق الصبيان لسيقانهما العنان واستطاع أحدهما اللحاق به وإيقاعه على الأرض، ثم ارتمى كلاهما بجسميهما عليه لكنه دفعهما بكتفيه وذراعيه ونهض ثم جرى بسرعة ليلحق بالخنازير. لم يستسلم الصبيان وعديا خلفه حتى أدركاه ثانيةً. طرحاه أرضًا وارتميا عليه وتشبثا به بقوة. جلس الأكبر جسمًا على صدره بينما جلس الآخر على ساقيه وقالا له مازحين:

– مش هتقدر تفلت مننا المرة دى ياشيخ أحمد. وهنشوف بقى مين فينا الأجدع... إحنا والا انت؟ ياشيخ أحمد ده احنا هنقبض جنيه بحاله عشان..... آه!!!!

ندت صرخة هائلة عن الصبى الكبير الجسم إذ عضه الشيخ أحمد عضة شرسة فى مؤخرته فانتفض واقفًا، وارتاع الصبى الآخر فأرخى يديه عن جسم الشيخ أحمد الذى استطاع عندئذٍ أن يدفعه عنه

ويستأنف عدوه ليلحق بالخنازير. وصاح الصبى المعضوض وهو يحك مكان العضة:

– آه ياوسخ يا احمد. طب والله لأكون ضاربك زى الخنازير. يالله ياصبرى. وهات عصايتك دى عشان أغزها فى طيزه الوسخ ده.

*****

دخل الشيخ أحمد والخنازير زمام المناخ فتوقف الصبية عن المطاردة. ترك إبراهيم سيارته فى شارع الأمين وتوجه إلى الزرايب وبحث عن ابنه فيها وعثر عليه فى إحداها. كان راقدًا وكان يئن أنينًا خافتًا. انحنى عليه الأب ورآه مصابًا بعدة كدمات فى رأسه وجسمه وبجرح فى عينه اليسرى وبآخر فى شفته السفلى. مسح إبراهيم الدم بمنديله لكنه لم يستطع إزالة الطين الذى غطى وجهه وجسمه.

– كده يا احمد؟! مابينوبكش غير الضرب والبهدلة! قوم يالله معايا.

لكن الفتى لم يستطع النهوض فاضُطر الأب إلى جلب ثلاثة رجال قاموا بحمل الجسم الثقيل إلى السيارة وأدخلوه فيها. وقال الأب بعد أن انطلقت السيارة:

– طب خُد لوح الشيكولاته ده...... شوف أد إيه؟!

لم يأخذ الفتى لوح الشيكولاته أيضا. وقال بصوت واهن متقطع:

– بابا.... أوتس. بابا..... أوتس.

هز إبراهيم رأسه اسىً على حال إبنه ثم قال:

– ماعلش يا احمد ماتزعلش. أنا عارف انك اتبهدلت جامد النهارده.شوف وشك متشلفط إزاى؟!.... وهُوَّ كان لازم يعنى تعافر مع العيال دى؟! ما انت كل مرة كنت بتقع وماكنتش بتقوم تانى وبتنتهى الحكاية على خير. إشمعنى النهارده قاومتهم وعافرتهم جامد كده؟ أهو شوف بقى إيه اللى جرى لك؟! ياالله!!.... على كل حال هنوصل البيت حالاً وهاتاخد لك حمام سخن يفوقك، وبعدها تاخد لك نومه كبيرة عشان ترتاح من اللى جرى لك، ولو إنى عارف إن الملعون التانى مش هيخليك تنام الليلة....... وأنا برضه والله باين علىَّ ماهيجيلى نوم أنا كمان. مش عارف هاقول إيه لعمك السيد..... ياترى هيعمل إيه لما يعرف إنك هربت! لو أقدر بس أخدك من سكات وارجعك تانى مصر قبل ما يعرف!!!!

توقف المونولوج عندما وصل إلى البيت، وكان تيسير واقفًا أمام الباب فساعد أباه فى جر أخيه إلى الداخل. وقال الأب وهو يلهث تحت وزن الجسم الكبير:

– عالحمام عِدل يا تيسير. هاحميه وهو قاعد عالكرسى. مش هيقدر يستحمُّ وهو واقف.

وبعد أن أجلساه قال تيسير وهو ينظر فى وجهه:

– الله !!! إيه ده يا احمد؟! إنت كنت بتلاكم چو لويس؟!

فقال الأب:

– خلاص يا تيسير اخرج انت بقى عشان أقلَّعَهُ وأحمِّيه.

أفاق الشيخ أحمد قليلاً بعد الحمام الساخن وعادت إليه بعض عافيته. ذهب مع تيسير إلى المطبخ وأكل دجاجة كاملة وطبقين مكرونة

اسباجتى بالشوكة وبأصابعه معًا وقد حاول تيسير استدراجه إلى بعض المشاهد الفكاهية لكن النوم كان أقوى. نهض الشيخ عن كرسيه ورقد على الأرض متوسدًا ذراعه اليمنى فقال تيسير:

- إيه ده يا احمد؟ هتنام فى المطبخ؟ قوم قوم. ياالله على سريرك.

وعندما استيقظ تيسير فى الصباح كان الشيخ أحمد لايزال نائما. ذهب تيسير إلى المدرسة وكان يعرف أنه لن يجد أخاه عند عودته إذ سيكون عندئذ قد خرج من البيت إلى المناخ وسيتغيب هناك ليلة أو ليلتين قبل أن يعيده الأب مضروبًا وملطخًا بالطين.

*****

توجه إبراهيم إلى مبنى الشركة حاملاً هم مواجهة أخيه. وقد عدل عن تنفيذ خطته فى إخفاء عودة الشيخ أحمد والتوجه به سرًا إلى القاهرة وإعادته إلى دار الحنان. كان السيد الدهشان لحسن الحظ معتدل المزاج عندما دخل إبراهيم مكتبه، وقال لإبراهيم وهو يبتسم:

- إيه يا ابراهيم؟.... شكلك كده بيقول إن فيه حاجة.

- هاقول لك إيه بس يا سيد!

- فيه إيه... ما تقول؟

- الوله هرب من دار الحنان.

فضحك السيد وقال:

- ما انا عارف إنه هرب وإنه رجع تانى بورسعيد. وهو فيه حاجة يا ابراهيم بتخفى عليَّ فى البلد دى؟ حتى بالأماره خد له علقه سخنه امبارح فى المناخ. مش كده؟

هز ابراهيم رأسه أسفًا فقال السيد:

- الله ! وهو ده بقى اللى مزعلك؟ ما احنا يا أخى آخدين على كده من زمان.

وأضاف عندما رأى وجه أخيه مازال متكدرًا:

يا راجل فكها وماتاخدهاش جد وتنكد على نفسك بالشكل ده..... إطمِّن، كل شىء هيرجع زى ما كان. أنا هاخلى رجالتى يرجعهولك دار الحنان تانى، والنهارده كمان. وهابقى اتصل بيهم هناك وأشدد عليهم يخلوا بالهم منه أكتر.

ارتاح إبراهيم قليلاً لكنه قال لأخيه:

- هو مش أنا اللى هاخده وأوصله بنفسى؟

- لا ، لا . السيد رزق وعوض زرمبه عندهم مأمورية فى مصر. ياخدوه معاهم بالمره ويوصلوه لغاية الدار، إنت لازم تكون موجود فى الشركة النهارده لأنى هاكون بره طول النهار. عندى اجتماع مجلس إدارة المبره، وكمان عندى ميعاد مع مدير شركة كورى. ثم قال:

- هو الوله فين دلوقتِ؟

- أنا سايبه نايم فى البيت.

- طب الحقه قبل ما يهرب زى عوايده. عوض والسيد مجهِّزين العربية. روح معاهم واديهلهم وانت ارجع لى على طول عشان ما اتأخرش على اجتماع المبره. ولما يرجعوا الليلة بإذن الله هابقى أديلك خبر.

وقبل أن يخرج إبراهيم استوقفه السيد وقال:

- باقولك إيه يا ابراهيم. إيه رأيك فى البدلة والكرافته دول؟

- تحفة... وماشيين مع بعض.

- اجتماع المبرة معظمه ستات والواحد مابيسلمش من عينهم.

ونهض عن مقعده وتوجه إلى مرآة كبيرة من السقف إلى الأرض فظهر فيها كاملاً. ركز على الياقة والكرافته ثم نظر إلى شعره وقال:

- وإيه رأيك فى التسريحة.

- جميلة.

فقال السيد وهو يمعن النظر فى شعره:

- هنعمل إيه؟ الواحد لازم يبان Perfect قدام الناس، عشان مايلسنوش عليّ بكلمة كده والا كده.

- إنت طول عمرك أبو الأناقة وأبو الذوق ياسيد ومفيش حد فى البلد يقدر يجاريك فيهم.

فابتسم السيد وقال لأخيه:

- طب يا ابراهيم. روح انت بقى وارجع لى على طول بعدما تعطيهم الوله. أنا مش هاخرج إلا لما تيجى.

*****

انتهت موجة أمطار غزيرة على المدينة أعقبها جو مشمس دافىء وسماء زرقاء صافية فكان سطح البحر والبحيرة والقنال ساكنًا تمامًا

اللهم إلا إذا شقته باخرة أو قارب فكان عندئذٍ يفتُّر عن مويجات خفيفة ذات زبد قليل وصوت هامس.

خرجت من بورسعيد سيارة دودج سوداء يقودها عوض زرمبه وبجانبه السيد رزق وكان الشيخ أحمد يجلس على الكنبة الخلفية وعلى حجره قطعتان شيكولاته وكيس موز كبير، ويتنقل ما بين النافذتين ليشاهد بواخر القنال أو قوارب البحيرة.

مرت باخرة ضخمة من الاتجاه المقابل وكان ينبعث منها أنغام موسيقية شوهد ركابها يرقصون عليها. أخذ الشيخ أحمد هو الآخر يتمايل عليها ولم يتوقف إلا بعد أن تلاشت تمامًا، فراح يقضم فى لوح الشيكولاته وينظر إلى الطيور المحلقة فى سماء البحيرة، فقال له السيد رزق:

- حلوه الشيكولاته يا شيخ أحمد؟

- حلوه.

- ماكلتش موز ليه؟

- لاته حلوه.

- بالهنا والشفا يا شيخ أحمد.

*****

السيد رزق وعوض رزمبه هما أخلص رجال السيد الدهشان له. وقد كلفهما بقتل الشيخ أحمد بإغراقه أو باحراقه أو حتى بدفنه حيا.

قال السيد رزق لعوض زرمبه بعد أن اجتازا القنطرة:

– باقول لك إيه يا عوض.

– أيوه ياسيد، فيه حاجة؟

– هو مش المهم أن الوله ده مايرجعش تانى بورسعيد؟

– إنت بتسأل السؤال ده ليه؟ أمال احنا آخدينه ليه؟

– أصل أنا يعنى فكرت فى حاجة كده ماتخليهوش يرجع بورسعيد تانى ولا حتى يعتبها، بس من غير حكاية القتل دى.

– سيد ! إنت جرى لك إيه؟! إنت ماشفتش السيد الدهشان كان شكله ازاى وهو بيأكد علينا نحرقه والا نغرقه والا حتى ندفنه وهو حى. إحنا لو عملنا غير كده ولو الوله ده رجع بورسعيد تانى، يبقى ياويلنا منه.

– بس الوله ده قتله صعب يا عوض. أصله فيه حاجة كده لله وأنا خايف يعنى لو مسناه..... مش عارف أقولها لك إزاى....

وظل صامتًا فترة طويلة لكنه قال قبيل مفرق القاهرة والاسماعيلية:

– إسمع يا عوض. خد شمال واطلع بينا عالاسماعيلية

– هنعمل إيه هناك؟

– هنحطه فى زرايب الخنازير اللى هناك، دى بقى هى اللى مش هتخليه يرجع تانى بورسعيد. إنت عارف إنه مابيحبش يعيش إلا فيها ومش ممكن يسيبها حتى لو انطبقت السما على الأرض. إبراهيم الدهشان المسكين داخ بسبب زرايب الخنازير دى. كل مايجيبُه منها يرجع لها تانى ولا يسيبهاش إلا لما ياخده منها تانى، وبعدين لما ودُوه مصر فى أحسن مستشفى هرب منها ورجع للزرايب تانى.

– طب ماهو ممكن يسيب زرايب الاسماعيلية ويرجع بورسعيد تانى.

– أبدًا. لأن زرايب الاسماعيلية زى زرايب بورسعيد بالضبط. مفيش أى فرق بينهم ومش هيعرف انها زرايب تانيه، لأن الخنازير هى هى والوساخة هى هى. وبعدين ده بيتعامل مع جنس الخنازير كله، مش مع خنازير بلد بعينها.

– إزاى يعنى؟!

– أقصد إن لو فيه خنزير معين فى زرايب بورسعيد بيحبه والا مصاحبه، كنت أقول آه ده ممكن يرجع عشانه. لكن دول كلهم عنده سواء. يعنى بالنسبة له الخنازير اللى فى زريبة بنايوتى زيها زى الخنازير اللى فى زريبة ويصا، وخنازير بورسعيد زيها زى خنازير الاسماعيلية بالضبط.

– وانت عرفت ازاى الكلام ده؟

– الحكاية واضحة يا عوض. الوله ده ماكانش له زريبة معينه بيروح لها والا ينام فيها. أيام كان بيبات فى زريبة بنايوتى وأيام تانيه فى زريبة ويصا وساعات كان بينام فى زريبة مانولى. كده يعنى.

لم يحر عوض جوابًا فاستطرد السيد رزق قائلاً بحماس وثقة:

– إتكِل على الله بس يا عوض. أنا لوفيه احتمال نُص فى الميه انه هيرجع والله ما كنت كلمتك. هو أنا مش عارف السيد الدهشان هيعمل إيه فينا لو شافُه تانى!

*****

عندما اقتربت السيارة من أول زريبة ورؤيت الخنازير أخذ الفتى يتقافز على مقعد السيارة وما لبث أن أخرج رأسه وكتفيه وصدره من النافذة وجعل يصيح ويلوح للخنازير بذراعيه الإثنتين:

- أوتس، أوتس. أوتس ، أوتس.

ابتسم السيد رزق وقال:

- جالك كلامى يا عوض. أهى الفرحة مش سايعاه لما شاف أهله ابن العبيطه. أقعد يا شيخ أحمد. أقعد ياوله. الوقت هانِّزلك، استنى شويه. وقف له ياعوض عند البوابه المفتوحة دى.

توقفت السيارة وخرج السيد رزق منها وفتح بابها الخلفى فقفز الشيخ أحمد خارجها. وقال السيد وهو يمسكه من يده:

- استنى يا احمد. خد كيس الشيكولاته ده، باقى فيه لوحين. وخد كيس الموز ده كمان. فرقُّه على اخواتك دول اللى مستنيينك.

اندفع الشيخ أحمد إلى داخل الحظيرة واتجه إلى القطيع. تفرقت الخنازير عندما اقترب منها وما لبثت أن تجمعت حوله مرة أخرى عندما أخرج الموز من الكيس وراح يقدمه لها إصبعًا إصبعًا.

قال السيد رزق بثقة:

- إيه رأيك بقى ياعوض؟! أفتكر احنا كده ممكن نرجع واحنا مطمنين عالآخر. يالله بينا.

فقال عوض وهو يهز رأسه اندهاشًا:

- غريبه قوى الحكاية دى ياسيد . دول لو كانوا أهله ماكانش حن عليهم بالشكل ده.

– الله ! دول أكتر من أهله يا أخى. أو قول ان دول هُمّ أهله الحقيقيين. تعرف تقول لى هُمّ مين أهل الواحد؟ مش اللى بتحس معاهم بالأمان وتألف لهم وترتاح معاهم؟!

*****

قبل رحلة العودة إلى بورسعيد عرج السيد رزق وعوض زرمبه على أحد أسواق الإسماعيلية واشتريا كميات من المانجه لأسرتيهما ولبعض المعارف والأصدقاء وعلى رأسهم السيد الدهشان ثم تغديا كفته وكباب فى أحد مطاعم السوق. وعلى طريق العودة إلى بورسعيد جلسا فى مقهى ريفى تحت شجرة ضخمة وارفة الظلال وطلبا فنجالى قهوة وشيشتين. لم يتغير الجو عما كان عليه هذا الصباح، فالشمس مازالت مشرقة، والجو صافٍ وهادىء لم يُسمع فيه إلا كركرة الشيشة وتغريد العصافير.

*****

اقتربت سيارة أوستن صغيرة من المقهى ثم توقفت على بعد أمتار قليلة من الشجرة الضخمة. خرج منها رجل وزوجته وأولادهما وجلسوا إلى منضدة تحت الشجرة. وقال عوض زرمبه وهو يمد ساقيه فى استرخاء:

– هاخد كمان حجر. الجو جميل والقاعدة هنا حلوه.

– زى بعضه. هات يابنى حجرين كمان.

أحضر العامل حجرين وقطعًا من الفحم المشتعل. قرفص أمام شيشة عوض زرمبه ورفع الحجر القديم عنها ووضع مكانه أحد

الحجرين الجديدين ثم راح يرُصّ قطع الفحم عليه بينما راح عوض يشد الأنفاس لإذكاء جذوة الفحم المشتعل. وفجأة نزع المبسم عن فمه ثم ترك اللَّيّ من يده وانتفض عن كرسيه وشخص ببصره إلى الطريق الأسفلتى وقال:

– سيد! بص هناك!!

نظر السيد رزق إلى حيث أشار رفيقه فرأى الشيخ أحمد يعدو فوق الطريق الأسفلتى عدوًا محمومًا وكأن صبية العرب يطاردونه للإمساك به. قال رب الأسرة معلقًا:

– أنا مش عارف الوله ده جاى منين والاَّ رايح على فين. أنا عديت عليه من شويه وهو بيجرى زى المجنون زى ما انتوا شايفينه كده ولما قربت منه ضربت كلاكس عشان ياخد جنب. لما المسكين سمعنى ماخدش جنب لكن جرى جامد زى ما يكون خايف لامسكه.

فقال عوض لرب الأسرة:

– والله ده ممكن أى عربية ماشية بسرعة تدوسه تحت عجلها.

فقال رب الأسرة:

– ماتخافش على اللى زيه، لأنه ربنا بيسترها معاهم.

لم يكمل عوض والسيد حجريهما. دفعا الحساب وركبا السيارة وانصرفا. وقال عوض وهما على الطريق:

– مفيش فايده يا شيخ أحمد. قضاك حل وساعتك إجت.

لم ينبس السيد رزق، وشخص ببصره إلى الطريق. كان الشيخ

أحمد يجرى على بعد نصف كيلومتر تقريبًا من سيارتهما فى اتجاه بورسعيد. كانت السيارة أسرع منه فلم تفتأ تقترب منه حتى باتت على بعد خمسين مترًا. عندئذٍ قال عوض زرمبه:

– الوقت مناسب والفرصه مفيش أحسن منها. لافيه عربيات رايحه ولاعربيات جايه. المكان زى ما انت شايف ـ هُس ماتسمعش فيه صريخ ابن يومين.

وأخذ عوض يحرك مقود السيارة إلى أن ضبط جسم الشيخ أحمد على منتصف مقدمتها. وعندما أصبح على بعد أمتار داس على ذراع البنزين بقوة فانطلقت بسرعة كبيرة. أغمض السيد رزق عينيه لكنه شعر بعد ثوان قليلة بارتطام قوى أسفل السيارة. أوقف عوض السيارة ونظر الإثنان خلفهما فرأيا جسم الفتى ملقى فى منتصف الطريق. رجع عوض بسرعة إلى الخلف وداس عليه مرة أخرى فقال السيد رزق:

– مش كفايه كده ياعوض؟!

– لأ لسه. ده بسبع ترواح ولازم نخلص عليه خالص.

كان الجسم على بعد عشرة أمتار فقط أمامهما فواصل عوض رجوعه بالسيارة حتى ازدادت المسافة إلى خمسين مترًا. نظر فى كل اتجاه وعندما تأكد من عدم وجود سيارات قادمه انطلق بأقصى سرعة وداس على الجسم للمرة الثالثة. ثم توقف وخرج من السيارة وجرى إلى الجسم وفحصه ثم عاد بسرعة وقال للسيد وهو يبتسم:

– خلاص، انتهينا. يا باى!!

*****

عند وصول عوض زرمبه والسيد رزق إلى بورسعيد توجها مباشرة إلى مبنى الشركة وأخبرا السيد الدهشان وهما يعطيانه المانجو كيف قتلا الشيخ أحمد وأكدا له أن مقتله سيبدو نتيجة حادث دهس عادى، فقال السيد الدهشان بصوت هادىء:

– طب روحوا الوقت على مكاتبكم، وما حدش يروَّح إلا لما أقول له.

استدعى السيد الدهشان أخاه إلى مكتبه وأخبره أن الشيخ أحمد غافل عوض والسيد وهما يتناولان طعام الغداء فى أحد مطاعم الإسماعيلية وهرب منهما، وأنهما بحثا عنه فى كل مكان بالاسماعيلية بما فى ذلك زرايب الخنازير لكنهما لم يعثرا عليه. ثم أضاف قائلا:

– لكن ما تشغلش بالك يا إبراهيم. إطمَّن. وهو يعنى هيروح فين؟! أنا هاخلى شرف بيه يتصل بحكمدار الإسماعيلية عشان يعملوا اللازم. وأنا كمان هابعت تلاته أربعة من رجالتى للاسماعيلية عشان يدوَّروا عليه.

فى المساء اتصل شرف بيه بالسيد الدهشان وأخبره أن الشخص المفقود الذى حدد أوصافه قد عُثِر على جثته ملقاةً على الطريق بين الإسماعيلية والقنطرة وأضاف أنه من الواضح أن سيارة مجهولة دهسته وهربت وأن الجثة الآن فى مشرحة الإسماعيلية.

تصادف أن ابراهيم الدهشان كان فى مكتب أخيه أثناء المكالمة. أصاخ السمع إذ شعر أنها تتعلق بإبنه وعندما أنهى السيد الدهشان المكالمة ووضع السماعة نظر إلى أخيه الذى بدا أنه فهم فحوى المكالمة فوجم وجهه ومالبث أن اكتسى بعلائم الحزن فقال السيد:

– البقية فى حياتك يا ابراهيم. الشيخ أحمد تعيش انت. عربية

دهسته بعد القنطرة وهربت. وظل صامتًا فترة ثم أضاف:

– يالله يا ابراهيم . هتعمل إيه؟! ربنا يخلى لك تيسير وميرفت.

لم ينبس ابراهيم فقال السيد:

– على فكره ما تحملش هم إجراءات نقله ودفنه. أنا هابعت عوض زرمبه والسيد رزق يستلموه من مشرحة الاسماعيلية. وفى نفس الوقت هابعت الشيخ صالح راس العش عشان يرتب دفنه هناك.

رفع إبراهيم رأسه ونظر إلى أخيه مندهشًا ثم قال:

– هو احنا مش هندفنه هنا؟!!

– ندفنه هنا؟! فى بورسعيد؟! إنت بتقول إيه يا ابراهيم؟! ندفنه فى مدفن العيلة؟! يبقى بكده انت عايز تفهِّم الناس انه كان ابننا فعلاً. إبراهيم!! شيل الحكاية دى من دماغك خالص. الوله ده لازم يندفن بره بورسعيد عشان صلته بينا تنقطع للأبد.

وضع السيد كلتا ذراعيه على المكتب ثم قال بعد أن هدأ قليلاً:

– أعذرنى يا ابراهيم. البت على وش جواز ومش عايز أى كلام يتقال علينا لما الناس تشوف الوله ده وهو بيندفن عندنا. والا انت عايز نسايبنا الجداد يعرفوا إنه كان له صله بينا؟ شفت عيلة العريس شكلها إيه؟ حسب ونسب ومناصب عاليه ! وبصراحه لو عرفوا ان فى عيلتنا واحد زيُّه كده ممكن يتراجعوا والجوازه دى تبوظ.

لم يردّ إبراهيم وظل مطرقًا برأسه لبعض الوقت فنهض السيد وقال بنبرة لينة وهو يضع يده على كتف أخيه:

- الوله مات وخلاص يا ابراهيم. وهى كلها أرض الله. ومش هتفرق يعنى لو اندفن هنا والا هنا.

فقال ابراهيم وهو لايزال مطرقًا برأسه:

- اللى تشوفه ياسيد. سلوى بنتى، وعشان خاطرها أنا أوافق على أى حاجة.

*****

أرسل السيد الدهشان عوض زُرُمبه والسيد رزق إلى الإسماعيلية لاستلام الجثة والعودة بها إلى رأس العش لتدفن هناك بينما أرسل الشيخ صالح لترتيب عملية الدفن. عرف اللحاد من الشيخ صالح أن المتوفى كان شابًا معتوهًا صدمته سيارة مسرعة وهربت ولم يُستدل على أهله أو يُعرف اسمه، وأن السيد الدهشان كدأبه فى عمل الخير تكفل بدفنه على وجه السرعة فى رأس العش بدلاً من حفظ جثته أيامًا بالمشرحة. ومد الشيخ صالح يده إلى اللحاد وأعطاه ثلاثين جنيها. نظر اللحاد إلى الورقات بعينين جاحظتين وفم مفتوح ثم أخذها من الشيخ صالح وطواها بعناية ووضعها فى جيب صدارته الداخلى. وقبل أن يبدأ الحفر سأل الشيخ صالح عن موعد وصول الجثة فأجاب:

- ساعة والا اتنين بالكتير. أحفر انت بس، وقبل ما تخلّص يكونوا إجوا.

كانت السماء لا تزال صحوًا والشمس مشرقة والنسمات خفيفة ولطيفة. وقال اللحاد لنفسه وهو يمسك الفأس ليبدأ الحفر:

- الجو حلو وحظك أحلى يا سويلم. كده الواحد يقدر يشتغل

بنفس وبمزاج رايق. والله واحلّو الشغل فيك يا راس العش. سنين وأنا بادفن فى أهلك لكن عمرى ما أخدت أكتر من خمسين قرش على أحسنها ميت فيك. وفى ظرف شهر واحد يجينى تلاته من بورسعيد فيهم الخير كله. واحد بعشرة جنيه والتانى بخمستاشر والتالت بكام يا سويلم؟! بتلاتين جنيه ياسويلم! معقوله دى؟! ده لو كان كنز وطلبوا منى أخبيهلهم ماكانوش ادونى المبلغ ده! طب وإيه بقى أهم من تخبية كنز إلا تخبية العار يا سويلم؟! طب وهو دفن الوله الأهبل ده هنا فيه تخبية عار؟! ده لا هو بنت ولا هو مره ! يبقى العار هيجى منين؟ وإلا يمكن هبل العيال بقى عار زى عار البنات الأيام دى!!

ما انفك سويلم يحفر بهمة غير عادية حتى أدركه التعب فترك أدوات الحفر وجلس على كومة تراب. رأى دودة تتحرك فأخذها بأصابعه وأعادها إلى الحفرة وألقى عليها مِلء كفيه ترابًا فوريت.

كان حلمه أن يترك رأس العش ويعمل تُربيًا فى بورسعيد حيث الموتى كُثُر والناس أغنياء. كشف عن أمنيته تلك لباتعة زوجته فشجعته على تحقيقها . توجه إلى بورسعيد وتقرب من موظفى الصحة المسئولين عن الدفن واتفق معهم على إعطائهم نسبة عن كل ميت يدفنه. لكن تُربية بورسعيد ضربوه ضربًا مبرحًا بعد أولِعملية له فعاد إلى رأس العش ولم يبرحها منذئذٍ.

– ياسلام على ترتيبك يارب. أهم أموات بورسعيد هُمَّ اللى إجونى لغاية عندى.

فكر سويلم فى زوجته وفى الجلباب الجديد الذى اشتراه لها من الجنيهات العشرة التى أخذها مقابل دفن على الشافعى الذى رفض إبنه

دفنه في بورسـعيـد لأنه خـمـسـاوى وطلع من دين الإسـلام، وبعـد ذلك بأسبوعين اشترى لها غويشة ذهبًا من الخمسة عشر جنيها التى أخذها مقابل دفن عزب الجمل الذى رفض ابن اخته دفنه فى بورسعيد لشذوذه «وأدى التالت هيدفنوه هنا عشان أهبل وعبيط. يعنى على كده لو كل واحد فى بورسعيد مارضاش يدفن أبوه والا أخوه والا قريبه هناك عشان عِلَّة فيه مش عاجباه يبقى يا سعدك يا سويلم وياهناك ياباتعة».

تناول جرعة ماء ثم أضاف:

– إيه ياربى! خلى كونك ماشى على ده الحال، وخلى النفوس والطبايع على ماهى عليه وماتغيرهاش. على الأقل سنتين تلاته كمان، إنت أدرى بعبدك الغلبان. يالله يا سويلم اضرب بفاسك لتحت وغوط الحفرة وسيب الدود فيها ما تطلعوش. خليه يسمن تحت ومراتك تربرب فوق وانشاء الله إيديها الاتنين هتتصيّغ من هنا لهنا.

١١ مدينة الأحلام

بورسعيد هى مدينة الأحلام، أو بالأحرى مدينة تحقيق الأحلام. كثير من أهلها حلموا بالثروة، ثم مالبثوا أن وجدوها فى أيديهم بغير عناء وبسرعة كبيرة، مما حد بالباقين أن يحلموا نفس الأحلام مع توقع تحقيقها فى أى لحظة قريبة.

تفاوتت الأحلام من حى إلى آخر، فسكان المناخ حلموا بتحقيق قليل من المال يمكنهم من الانتقال إلى العرب، وسكان العرب راودهم حلم الانتقال إلى الإفرنج. أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها تحققت أحلام هؤلاء وأولئك بسرعة ملحوظة، بل إن بعض سكان المناخ المعدمين جاوزوا أحلامهم وحققوا ثروات كبيرة فانتقلوا قفزًا إلى حى الإفرنج الراقى وأصبحوا من سكانه. لكن ينبغى أن يُستثنى من ظاهرة الإثراء السريع تلك أصحاب سفن الصيد وبعض التجار الكبار الذين كونوا ثرواتهم على مدى سنوات كثيرة وبجهد ومثابرة.

ووسائل الإثراء السريع (المشروعة وغير المشروعة) كانت كثيرة ومتنوعة وشملت صفقات مخلفات السفن، وتوريد البضائع والأغذية للجيش الإنجليزى، واستخلاف الأجانب فى البارات ومحلات البقالة الكبيرة، وتهريب المخدرات أو الاتجار فيها، والسطو على معسكرات

الجيش الانجليزى وسرقة أى شىء فيها بما فى ذلك البضائع و الأغذية التى وُردت إليها من قبل من قِبَل البورسعيديين أنفسهم.

والأغرب من الثراء السريع فى مدينتنا هو زوال الثروة بسرعة أكبر. والمثل الإنجليزى Easy come, Easy go يصدق هنا فى بورسعيد أكثر مما يصدق فى انجلترا. فمعظم الذين أثروا فجأةً وانتقلوا إلى حى الإفرنج لم يمر عليهم أشهر أو حتى أسابيع إلا وقد تبددت ثرواتهم اللقيطة ووجدوا أنفسهم بنقود قليلة لم تكن كافية للإقامة فى الحى الراقى فانتقلوا إلى حى العرب، أو كانوا مفلسين تمامًا فعادوا إلى المناخ لكن فى غير يأس من أن يبدأوا من جديد، فالأحلام لن تلبث أن تداعب رؤوسهم وسيسهل تحقيقها فى مدينة مليئة بالعمل والفرص السهلة.

كانت أماكن تبديد الثروة كثيرة ومتنوعة. فغرز الحشيش والخمارات المتواضعة ومواخير المحطة كانت منتشرة بأعداد كبيرة، لكنها لم تستحوذ إلا على جزء بسيط من الثروة المبددة، أما الجزء الأكبر فكان يُنفق فى كباريهات الإفرنج وباراته الراقية. فإلى جانب فرقعات زجاجات الويسكى والكونياك والشمبانيا على موائد عامرة بأغلى الأطعمة كانت أوراق البنكنوت تُحرق زُلفى لآلهة الحظ والمسرات، وبعضٌ من هؤلاء القاصفين لم تكن لهم تلك العقلية الميتافيزيقية فكانوا يحرقون البنكنوت لأغراض عملية، مثلاً لإشعال سيجارة، أو كانوا يدسونها ـ بعد طيها ـ فى مفارق أثداء رفيقات الكأس توطئةً لتحقيق لذةٍ أعظم فى مكان آخر.

وبعض المومسات رأين أنه يمكنهن حيازة قدر أكبر من الأموال المعروضة أمام أعينهن فى ساحة المتعة الرحيبة فانسلخن عن المحطة

ومواخيرها وارتقين من حضيض البغاء الشعبى الرخيص إلى مملكة العشيقات الخصوصيات حيث عرضن الجنس مغلفًا بعاطفة حب مشبوبة سببت تباريح غرام للزبون العاشق لم يكن يشفى منها إلا بعد نضوب جيبه نضوبًا تامًا.

نفرٌ قليل من أبناء الثراء السريع هم الذين ما إن وطئت أقدامهم أرض الحى الراقى حتى تشبثوا به ولم ينقصوا على أعقابهم إلى أوحال أزقة المناخ. لقد أنقذتهم الحكمة والرشاد والقدرة على التحكم فى الشهوات من عمى النفوس ومن ثم من الوقوع فى الحفرة العميقة المظلمة التى وقع فيها الآخرون، ولم يمض وقت طويل حتى كانت لهم ڤيلاتهم وعماراتهم فى المناطق الراقية التى انتقلوا إليها، كما أقاموا مشروعاتهم الصناعية والتجارية فكانت بمثابة جذورهم فى الحى الجديد، وحينما وجدوا أنهم أصبحوا فعلاً من طبقة الأعيان كان عليهم (حتى تكتمل الصورة) أن يتخلقوا بخلاق أعيان المدينة المتبدية فى تقوى الله وحب الناس وعدم التعالى على العامة والفقراء والتسابق إلى فعل الخير، إلخ... إلخ...

وقد عزا الخبثاء أريحية بعض الأغنياء وكرمهم الزائد إلى خوف كامن فى نفوسهم من احتمال كشف المستور ومعايرة الناس لهم على أصولهم المتواضعة التى لا تتناسب مع المستويات العالية التى وصلوا إليها. فالناس؛ وبفضل الليبرالية السياسية السائدة منذ عشرات السنين وما تولد عنها من ليبرالية اجتماعية، يتكلمون فى بور سعيد بحرية تامة عن أى شىء ودونما خوف خاصة لو تناول الكلام تاريخ البشر

وأصولهم. ولقد طالت المعايرة بالفعل أسماء أشخاص مرموقين فى المدينة لم يخطر على بال أشد ذى النية سوءًا أن يكون لهم ماض تشوبه شائبة. فمن كان يصدق مثلاً أن الحاج حسن البياع كان «حرامى كُنُبَه» ؟!! أو أن المعلم فتحى عبد ربه كان صبى عالمه؟!! أو أن الريس مسعد غراز كان شحاتًا يوم أن قدم إلى بورسعيد من العجيره من أربعين سنة مصحوبًا بأخيه السيد الأعور؟! وفى أحد مجالس مقهى الاتحاد ذُهل الحاضرون يومًا عندما سمعوا فاروق المحلاوى يقول: «طب إيه رأيكم بقى إن الحاجة أم ياقوت كانت ولا مؤاخذه واحده من بتوع المحطة؟!!» عند ذاك هب الجميع فى وجهه وأخرسوه قبل أن يسترسل فى كلامه القذر، ورفع محمد حندوقه عقيرته عليه وقال بانفعال شديد و هو يشد إحدى أذنيه: « مش عيب تقول الكلام الوسخ ده؟ وعايزنا نصدق كلمه واحده منه؟! طب والله العظيم ما انت قاعد معانا. ولو عتبت القهوة دى لأكون كاسر لك رجلك!!» ولم يتمالك عدلى الطوابرى نفسه فنهض عن كرسيه واندفع نحو فاروق المحلاوى ووجه إلى وجهه لكمةً أطاحت به، ثم جذبه من ياقة قميصه وكاد أن يوجه إليه لكمةً أخرى لولا أن منعه رواد المقهى الجالسون.

لكل شىء حدود. وفاروق المحلاوى جاوز حدوده فنال جزاءه بالضرب والطرد والنبذ. ومع ذلك لم يكن ثمة مفر من أن يكون كلامه عن أُم ياقوت إضافة مهمة إلى تراث المعايرة فى مدينتنا حتى انه لم يمض يوم واحد حتى كان عدلى الطوابرى نفسه يهمس وهو متأثر غاية التأثر فى أذن العربى إبن عمه بما سمعه فى مقهى الاتحاد عن أم ياقوت.

*****

وبحكم نشأته البورسعيدية فقد رأى السيد الدهشان نظرات ذل وأسى فى عيون بعض أثرياء المدينة إذ كانت أصوات المعايرة بأصولهم العائلية تتردد فى المدينة وكانت هذه الأصوات تتناهى إلى أسماعهم فى آخر المطاف لكن كهمهمات ومع ذلك فقد فهموها وفهموا مغازيها. وكان السيد الدهشان مطمئنًا من هذه الناحية فلم تصله أى همسة عن ماضى أسرته كما أن حاضرها لا يشوبه شائبة والبورسعيديون لا ينفكون يتحدثون عن مآثر أبيه وجده وعراقة محتدهما وسلامة سلالتهما وهاهى كريمته المهندسة سلوى ستزف قريبًا جدًا إلى الدكتور المهندس على خاطر سليل أسرة خاطر الشهيرة التى تعج بالمناصب الكبرى وتمتلك مئات الأفدنة فى الشرقية والقليوبية.

*****

١٢ ألف ليلة وليلة

اتصل السيد الدهشان بالمهندس على خاطر وأبلغه أنه حدد العشرين من مارس لخطبة سلوى والدكتور رأفت. وقد أجمع الناس بعد ذلك أنه منذ زواج الملك فاروق وناريمان لم تشهد بورسعيد احتفالاً مثل الاحتفال بخطوبة سلوى الدهشان وأنه سيظل موضع أحاديثهم ومضرب أمثالهم لسنوات عديدة مقبلة.

ما حدث لم يكن حفلة خطوبة عادية تقيمها أسرة لإحدى بناتها وإنما بدا مناسبةً قومية كبرى ساهمت فيها الشركات والمؤسسات والمصالح الحكومية مساهمات سخية مجاملة للرجل الذى كانت له معهم مصالح عديدة. أُقيمت أقواس ضخمة فى شوارع المدينة الرئيسية وميادينها علتها صور العروس الحسناء فى أُطر مذهبة وعُلقت أعداد كبيرة من الأعلام على واجهات المحلات وفى شرفات المنازل. وفى المساء سطعت المدينة بكشافات قوية وازدانت بمصابيح ملونة عُلقت بأحبال عبر الشوارع ونُثرت داخل الأشجار.

وزع جيانولا ورُويال والغزل الجاتوه والجيلاتى مجانًا على جماهير المدينة، واستُؤجر من الإسماعيلية ودمياط عدد من الجزارين الذين شاركوا فى ذبح أربعين عجلاً، وانتُدب من فنادق العاصمة بعض الطباخين لتجهيز الولائم التى أقيمت فى الشوارع المحيطة بڤيلا السيد الدهشان كما طُلبت كميات إضافية من الخمور والبيرة، أما كميات

الحشيش التى كانت فى حوزة التجار والباعة المحليين فكانت كافية لاستهلاك المحتفلين فى تلك الليلة.

تبادلت فرقتا موسيقى البوليس والملجأ عزف المقطوعات العالمية والشرقية حتى التاسعة مساءً أمام ڤيلا السيد الدهشان، وفى التاسعة والنصف بدأ الحفل الكبير فى سينما فريال وشارك فى إحيائه عدد كبير من الفنانين من الجنسين، واستغرقت فقرة على زوبة وحدها ساعة كاملة ولم تستطع مجاراته الراقصتان اللتان أحضرهما عوض زرمبة من القاهرة على نفقته الخاصة مجاملةً لولى نعمته، ولم ينافس على زُوبه فى نيل رضا الجمهور واستحسانه سوى الفنانة زينب بغدادى التى أطربت الحاضرين بكل مستوياتهم لاسيما بهذا المقطع البديع من أغنيتها الاستعراضية المبهرة:

البــحــر نايم نايم والله لأنط واخــد أطه

واطرح شــبكتى عليــه وأقــول له يتــغطى

يااللــى الســـمك جـــواه بيلعب نطه

ولقد شاء السيد الدهشان أن يجعل يوم خطبة إبنته يومًا مذكورًا يؤرخ له كما يؤرخ للأحداث الكبرى فكان أن جعله آخر يوم فى الحياة الفنية الحافلة لكل من على زوبه وزينب بغدادى.

استدعاهما إلى مكتبه فى اليوم التالى للخطبة وأخبر على زوبه أنه وفر له وظيفة محترمة فى شركة القنال مقابل خمسين جنيها شهريًا لكن عليه أن يتوقف نهائيا عن الرقص ويتفرغ لوظيفته، وعرض على زينب دكانًا كبيرًا فى إحدى عماراته ولها أن تختار التجارة التى تناسبها، فكان العرضان مغريين فلم يترددا فى قبولهما. وفى نهاية لقائه بهما

وبعد موافقتهما السريعة كتب لكل منهما شيكًا بمائتى جنيه لأداء فريضة الحج.

بدا أن الجماهير راودها إحساس تنبؤى أن هذا اليوم سيكون الأخير فى مشوار على وزينب الفنى إذ ألحت بالهتاف والتصفيق والصفير أن يواصلا عرضهما لأكثر من ضعف الوقت المقرر لهما، وأُخذت عشرات الصور التذكارية معهما وألقيت عليهما «نُقطة» لم يجمعا مثلها فى سنة كاملة. وتجمع الآلاف فى الشوارع المحيطة بالسينما واستمعوا إلى صوت زينب يصدح من الميكرفونات المثبتة بالأعمدة. وهؤلاء لم يشاهدوا على زوبة لكنهم رقصوا على أنغام الفرقة الموسيقية التى كان يرقص عليها.

الآلاف من سكان العرب والمناخ توافدوا فى تلك الليلة إلى حى الإفرنج. شاهدوا الفنانين واستمتعوا بأطايب اللحم وقطع الجاتوه والچيلاتى وشربوا البيرة ودخنوا الحشيش حتى مطلع الفجر. وحرص أصحاب الحظائر ألا يطلقوا الخنازير ليلاً فى شوارع المدينة خشية أن يقتلها الصبية الذين شوهدوا يجرعون البيرة بكميات كبيرة.

كُلف عوض زُرمبه والسيد رزق أن يقوما بعدة مهام فى هذا اليوم كان أهمها نثر عملات فضية فئة الريال والعشرة قروش على جماهير أسواق السمك والخضار وتوزيع جنيهات ورقية على كبار السن الذين لن يستطيعوا مزاحمة الشباب فى التقاط العملات المتطايرة فى الهواء أو الملقاة على الأرض.

وحتى تبلغ الإثارة أقصى مدى لها ويُسجل أن بورسعيد لم تشهد مثل هذا اليوم فى تاريخها فقد أُعلن من أحد مكبرات الصوت أن السيد بك الدهشان وضع صندوقًا فى إحدى الأشجار القريبة من فيلته ووضع

داخل الصندوق صورة للعروس ومن سيجد هذا الصندوق ويسلمه إليه قبل الساعة الثانية عشرة مساءً فى كازينو بالاس سيأخذ خمسين جنيها ذهبيًا.

انتشر الخبر فى المدينة انتشار النار فى الهشيم واندفع الناس اندفاعًا محمومًا نحو الأشجار المحيطة بالڤيلا. لم يكن تسلُّقها صعبًا وكانت الأنوار كافية لكشف فروعها وأغصانها وأى شىء فيها. ومع ذلك استعان المتسلقون بحبال وكشافات وكلوبات. وعقدوا اتفاقيات ثلاثية ورباعية على أن تقسم الجنيهات الخمسون فيما بينهم عند عثور أحدهم على الصندوق، بينما تغلب الطمع على البعض فلم يشارك فى تلك الاتفاقيات.

لم يُعرف إن كان محمد المصرى قد حضر صدفةً أم اتفاقًا، إذ ها هو يقبل نحو الأشجار الممتلئة بالناس محتضنًا قربته السوداء بشراشيبها الحمراء ينفخ فيها فتصدح موسيقاها الاسكتلندية الحادة التى أججت حُمى البحث عن الصندوق الثمين فى صدور الملهوفين إلى الجنيهات الذهبية. وعلى هذه الموسيقى الصاخبة نزعت فروع الأشجار وأغصانها وتناثرت أوراقها على أرض الشوارع وجرحت أيدى الباحثين ووجوههم وفرت العصافير وهُدمت أعشاشها وتهشم بيضها، وجرت معارك عديدة بين المتسابقين حول أشجار معينة ظُن أن الصندوق كان بها، ولم ينته هذا التناحر إلا عندما أعلن من نفس مكبر الصوت أن الصندوق عُثر عليه وأن الفائز وصل فعلاً إلى كازينو بالاس لاستلام الجائزة من السيد بك الدهشان، وعلى المتسابقين أن يكفوا عن البحث ويعودوا إلى موائدهم.

أُقيم الحفل الرسمى فى كازينو بالاس ولم يُدْع إليه إلا علية القوم.

وكان السيد الدهشان قد نبه على إدارة الفندق أنه عند حضور الفائز الذى رجح أن يكون من المناخ أو العرب فينبغى عليهم عندئذٍ أن يحمموه ويلبسوه ملابس لائقة قبل أن يتقدم لاستلام الجائزة. لكن الإدارة فوجئت أن الفائز كان نظيفًا للغاية ومرتديًا ملابس أنيقة وراقية بل فوجئت أنه واحد من المدعُوين الأساسيين. وعندما تقدم وتسلم الجائزة من السيد الدهشان صفق له الحاضرون طويلاً إعجابًا بإنجازه العظيم، وكتمت العروس صيحة لو انطلقت لوشت بما فى نفسها نحو الفائز الشاب، وكانت تلك هى المرة الأولى التى تكبت فيها شعورًا يثار فى قلبها نحو أحمد وطن.

سرت همسات بين المدعوين أن أحمد وطن لم يفُز إلا بالموالسة، وكذب آخرون ذلك إذ من غير المعقول أن يفسد السيد الدهشان هذه المسابقة المثيرة ويوالس من أجل قريب أو صديق، ولو أراد لأحمد وطن أن يحصل على خمسين جنيهاً ذهبًا أو حتى مائة لأعطاها إياه بعيدًا عن المسابقة.

لم تصل تلك الهمسات إلى أسماع السيد الدهشان، وعلى أى حال لم يكن هو فى الواقع الذى وضع الصندوق فى الشجرة. أما أحمد وطن فلم يعرف هو الآخر أين خُبِىء الصندوق، وقد حجم فى بادىء الأمر عن الاشتراك فى المسابقة حتى يفوز بالجائزة أحد شبان المدينة من غير أقارب العروس أو معارفها فيتحقق الهدف منها وهو جعل الخطبة مناسبة بورسعيدية عامة. غير أنه تراجع عن احجامه عندما تذكر فجأة تلك الشجرة القريبة من ڤيلا السيد الدهشان التى صعدها منذ سنتين مع سلوى حبيبته آنذاك وحفرا على أحد أغصانها قلبًا يضم الحرفين الأولين من إسميهما. أخذ حبلاً وكشافًا وتوجه إلى ڤيلا السيد الدهشان

وهناك رأى المتسابقين فى حومة البحث عن الصندوق وسط الموسيقى الزاعقة المتفجرة من قربة محمد المصرى. واصل سيره إلى منطقة بعيدة لم يصل المتسابقون إليها بعد، ووقف أسفل الشجرة الضخمة التى صعدها منذ سنتين مع سلوى ثم ألقى بحبله إليها وتسلقها. تذكر مرة أخرى كيف تسلقها مع فتاته منذ سنتين. يومها أحنى جسمه لها فامتطت ظهره ثم وقفت على كتفيه ثم مسكت بأحد الفروع فدفعها بقوة إلى أعلى فإذا بها وسط الشجرة الكبيرة محاطة بفروعها وأوراقها ولم تمض ثوان حتى لحق بها وجلس الإثنان على فرعين متقابلين وتبادلا القبلات عبر فرعٍ آخر وعلى هذا الفرع حفرا القلب والحرفين.

وهاهو يصعد الشجرة بعد مرور عامين ويجد على نفس الفرع - الذى تبادل القبلات عبره مع سلوى - الصندوق الجائزة مكسوًا بمخمل أحمر ومربوطًا بشريط ساتان أزرق. فك الشريط ورفع الصندوق عن الفرع فرأى القلب والحرفين.

*****

حضر العريس ووالداه وحوالى عشرين من أقاربهم إلى بورسعيد فى ست سيارات فارهة، وتوقعوا أن يكونوا أعلى الحاضرين مقامًا لكنهم فوجئوا عند دخولهم الكازينو بحضور وزير التجارة والصناعة ووزير الصحة ومحافِظى القاهرة والاسكندرية والقنال كما حضر عشرة قباطنة وثمانية من مرشدى شركة القنال بملابسهم الرسمية.

على بعد منضدتين من الكوشة جلس وطن السرجانى وزوجته ثم انضم إليهما السيد الدهشان وزوجته التى كانت أكثر نساء الحفلة جمالاً وجاذبية. كانت فردوس تتمتع بجمال طبيعى لم تفتأ منذ شبابها المبكر تصقله وتبرزه بالماكياچات والملابس والمجوهرات ولكنها كانت تعتقد أن

نعومة بشرتها وصفاءها هما سر جمالها وجوهره لذلك لم تتوان فى عمل أى شىء للحفاظ على تلك النعومة من تقلبات الجو وتقدم العمر. ورغم توفر أدوات المكياج ومساحيقه الحديثة فإنها لم تجد أفضل من الحلاوة المصنوعة فى المنزل، ومن حسن حظها كانت سميرة صديقتها تجيد صنعها والنتف بها فى كل أنحاء الجسم دون إحداث أى الام أو التهابات. كانت سميرة تصنعها فى بيتها مرة كل أسبوع وتتوجه بها إلى منزل صديقتها التى لم تتحرج أن تتطلب منها ذات يوم زيادة الكمية لأن السيد «بيحبها موت» ويقول إنها لذيذة جدًا سيما لو أضيف إليها بعض المكسرات.

*****

سُرَّ وطن أيما سرور عندما رأى سلوى سعيدة بجانب خطيبها ولم تغب الابتسامة عن وجهها أو تكف عن الحديث معه أو مع صديقاتها اللاتى أقبلن يهنئنها ويداعبنها جهرًا وهمسًا وتضحك من أعماق قلبها. لذلك لم يفسر وطن وهج عينيها عند استلام إبنه الجائزة إلا كتعبير عن اغتباط عادى بفوزه مثلها فى ذلك مثل باقى المدعوين وليس تعبيرًا عن شىء خاص تجاهه. ومع ذلك لم تزايله الهواجس أن ابنه قد ينهار فى أى لحظة فيقوم بعمل متهور وعندئذ سينكشف أمره ويعرف السيد الدهشان حقيقة مشاعره تجاه ابنته فتكون الطامة الكبرى. لكن الوقت يمضى والحفلة توشك على الانتهاء ومازال أحمد يتحرك بهمة ونشاط، ينتقل بين المناضد لتلبية طلبات المدعوين ويحرك السفرجية ويستدعى المسؤولين عن الحفل لإنجاز عمل أو تلافى خطأ. ولم يخل تحركه المستمر من مداعبة فتاة أو ممازحة صديق. بدا أن الأمر بينه وبين سلوى قد انتهى تمامًا. بل هاهو يقف مع ياسمين يزدى، يتحدثان ويطيلان الحديث الذى تتخلله

الابتسامات وإطالة النظرات. قال وطن لزوجته بعد أن استأذن منهما السيد الدهشان وفردوس:

- واخده بالك ياسميره؟! الوله أحمد بقالُه ربع ساعه واقف مع ياسمينه بنت الدكتور يزدى.

- أيوه واخده بالى. وفيها إيه يعنى؟ ما هو بيتكلم مع كل الناس ومع كل البنات.

- هو أنا متضايق ياسميره؟ بالعكس، ده أنا مبسوط قوى. أهى على الأقل تشغله عن التفكير فى حاجات مش عايزينه يفكر فيها.

- تقصد سلوى؟

لم يرد وطن فقالت زوجته:

- أنا نفسى قلت كده لما شفتهم بيكلمو مع بعض.

وجه وطن عينيه إلى أحمد وياسمين مرة أخرى وقال:

- الواد ده أمره غريب ياسميره. مايقعش إلاَّ مع واحده ماتنفعلوش! آدى انت شفتِ سلوى وشفتِ كانوا متفاهمين أد إيه وبيحبو بعض أد إيه لكن كانوا مستحيل يتجوزو بعض وأهم متجوزوش بعض فعلاً. وبعدين أديه أهو مع ياسمينه، قاعدين يكلموا مع بعض ومنسجمين خالص لكن مش ممكن يتجوزها. أبوها خمساوى وامها مارونيه والاَّ هى مارونيه، مش عارف بيسموهم إيه فى لبنان.

- يعنى ياوطن لقيتهم هيتجوزو خلاص!!

- مانتيش شايفاهم ياسميره؟ الابتسامات شغاله ونظراتهم لبعض

مـابطلتش. شـوفى كـمـان بيـعـمل إيه؟ شـايفـه؟ الوله عـايز يديهـا صندوق الدهب اللى كسبه!!

– هى ناقصه دهب يا وطن؟! ده أبوها يجيب لها قناطير مقنطرة.

– مش قصدى. قصدى أقول لك شوفى الحكاية بينهم وصلت لإيه؟

– ياأخى يمكن عايز يخلى الصندوق معاها لغاية ما الحفلة تنتهى.

– ليه؟... مستودع أمانات؟! ما احنا جنبه أهو.

– طب استنى بقى أما أشوف مُنى وهى بتظبط طرحة سلوى.

نظرت سـميرة بسـعادة وفـخر إلى ابنتـهـا الجميلة وهى تثبت شعر سلوى بالدبابيس وتضبط طرحتها، لكن زوجها استطرد قائلاً:

– أهو يمكن يقـعـد له سنتـين تلاته مع البنت دى ويعـدين الحكاية هتنتهى طبعًا على مفيش، وبعدين مـاتعرفيش إن كـان هيتلم بعد كده على واحـده عِدله تناسب له والا برضـه هيـقـع فى واحـدة زى سلوى والاّ زى صاحبتنا الجديدة دى.

*****

اخـتـار الدكتـور يزدى وزوجتـه منضـدة متطرفـة بعيـدة عن صـخب الفرقة الموسيقية. توجه أحمد وطن إليهما وقال:

– اتفضلوا جنب الكوشة. فيه ترابيزة فاضية هناك.

فقال الدكتور: خلينا هنا أحسن، بعيد عن الدوشة.

وقالت زوجته: هون مليح كتير. Merci يا احمد.

فقال الشـاب:

- على راحتك يامدام.... أمال فين مدمازيل ياسمين؟ هى ماجاتش معاكم؟

- بلى إچت. عم بتحكى مع رفيقاتها هونيك. هَلأ تچى. اتفضل اچلس، أحمد.

- شكرًا جزيلاً يامدام. كان بودى أتشرف بالجلوس معاكم لكن أعذرينى، لازم أكون فوق راس السفرجية والعمال.

- بخاطرك حبيبى.

تجول أحمد بين المناضد واستمع إلى طلبات المدعوين وأحيانا ما كان يقف فى مكان يستطيع منه أن يكشف الكازينو أو معظمه. رأى ياسمين مقبلة عليه وهى تبتسم. كانت جميلة مشرقة الوجه، ومع اقترابها رأى جسمها ينضح أنوثة. كانت سلوى قد عرفتْه بها منذ سنتين وهما زميلتان فى مدرسة الليسيه. رآها عدة مرات معها منذئذ وتبادل معها التحية فقط. قالت له عندما توقفت أمامه:

- إزيك يا احمد.

- الله يسلمك يا ياسمين.

- مبروك عليك الجايزه.

- الله يبارك فيك. مِرسيه جدًا.

- سمعت انك كنت هايل فى صعود الشجر والبحث عن الصندوق.

- شكرًا عالمجاملة.

ظلا صامتين ثم قال وهو ينظر فى عينيها النجلاوين:

- عقبالك.

- عقبالى لما اتخطب زى سلوى؟ والا لما آخد جايزه زيك.

ضحك ثم قال وقد تحرر من الجمود الذى تلبسه فى الدقيقة المنصرمة:

- لما تتخطبى طبعًا. وياريتك تبقى تعملى مسابقة بجايزة كبيرة زى دى لأن ساعتها ماحدش هيكسبها برضه غيرى.

- هيكون صعب عليك يا احمد تكسبها عشان مش هتعرف الشجرة اللى هاكون مخبية الصندوق فيها.

- احمر وجهه لكنه ابتسم وقال:

- أنا عارف قصدك، لكن والله مافيه حد دلنى عالشجرة دى، وكنت زى الناس التانيين بالظبط. لكن يمكن ربنا هو اللى هدانى ليها.

ابتسمت بدلال وهى تقول:

- خلاص. مصدقاك. ومبروك عليك الجايزة مرة تانية.

ونظرت إلى الصندوق وقالت:

- الصندوق شكله جميل قوى.

- واللى جواه أجمل. شوفى حتى.

فتح الصندوق فظهرت الجنيهات الذهبية البراقة. وقالت:

- ممكن آخد واحد.

نظر إلى وجهها المبتسم ثم أمعن النظر فى عينيها وقال وهو يمد الصندوق إليها:

– الصندوق باللى فيه كله لِكِ، مش جنيه واحد بس. اعتبريه عربون صداقتنا الجديدة.

مرت لحظات صمت ثم قال مستدركًا:

– مش عربون بالظبط. كلمة عربون دى مش مظبوطه، متهيألى بتوحى بصفقه والا عملية بيع وشرا.

فقالت وهى تلتقط واحدًا من الجنيهات الذهبية من الصندوق:

– عشان كده أنا هاكتفى بالجنيه ده. وفى الحاله دى مش هيكون عربون لكن تذكار أو رمز.

– رمز لعلاقة عاطفية؟

اتسعت عينا الفتاة وفغر فاها لجرأته وقالت:

– علاقة عاطفية مرة واحدة؟!

فقال متظاهرًا بالمرح:

– انت اتجعزتى كده ليه يا ياسمين؟! ده كان مجرد هزار.

– إذا كان هزار يبقى معلش.

– طب وإذا كان جد؟

أحمر وجهها ثم ابتسمت وقالت:

– أوه يا احمد. إنت جرىء قوى.

– بالعكس . أنا خجول جدًا والله يا ياسمين، وماكانش ممكن أقول الكلام ده لأى حد. لكن وانت جايه علىَّ من شوية بصيت فى عينيك فشعرت لحظتها بأشياء غير عادية . يعنى.. كان كيانى كله بيتهز من جوه

وتفكيرى اتشلّ ودوشة الكازينو دى كلها اتمحت من ودانى وكل الناس دى اختفت من عينى ومابقاش فيه حاجة فى الوجود إلا أنت.

اختفت الابتسامة من عينى الفتاة وقالت بنبرة جادة:

– أنا ماكنتش أعرف انك رومانسى كده يا أحمد.

– صدقينى أنا ماشعرتش فى أى يوم إنى رومانسى، وعمرى ما حسيت الإحساس ده، ولا عمرى قلت كلام زى ده.

أطرقت الفتاة وصمتت للحظات ثم رفعت وجهها المكتسى الآن بحمرة زائدة وقالت:

– طب عن إذنك يا أحمد. البنات مستنينى هناك. وأنا اتأخرت عليهم.

لم تخطُ ياسمين إلا خطوات قليلة عندما ناداها أحمد فوقفت فاقترب منها وقال:

– أنا أسف يا ياسمين. الإنسان بيخرج عن وعيه أحيانا فيقول كلام أو يعمل حاجات مش دارى بيها. أرجوك تسامحينى عاللى قلته.

– لأ مفيش حاجة يا أحمد. Take it easy.

– شكرًا يا ياسمين.

وافترقا.

*****

١٣ الموت حرقًا

شَغَلَ مكتب جريدة الأنباء شقة صغيرة في عمارة حديثة بناصية شارعى سعد زغلول وإسماعيل فى الجهة المقابلة للكنيسة اليونانية. لم يمض أشهر قليلة على افتتاحه حتى كان نجم أحمد وطن قد سطع فى سماء الجريدة بالقاهرة إذ استطاع في تلك الفترة الوجيزة تسويق إعلانات بألوف الجنيهات من تجار بورسعيد وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى السيد الدهشان والدكتور يزدى اللذين حثا التجار على التعامل مع جريدة الأنباء المعبرة عن مصالحهم. وجاءت خطوبة سلوى الدهشان لتزيد من حصيلة الإعلانات كما ازداد توزيع الجريدة في المدينة بشكل ملحوظ.

ومكافأةً لأحمد وطن على ذلك نشر رئيس التحرير كل الأخبار التى بعث بها وكل التحقيقات التى كتبها وقد لفت الانتباه إليه بموضوعاته الجريئة والخطيرة عن بورسعيد والتى اتصفت أيضا بطابعها القومى والعالمى. ومنها على سبيل المثال تحقيقه الطريف عن القوات الإنجليزية فى منطقة القنال بعد اتفاقية الجلاء والاسترخاء الذى حل بهذه القوات والثراء الذى نعم به ضباطها من بيع معدات المعسكرات وأصبحوا يتجولون الآن فى المدينة كسياح أكثر منهم جنود احتلال. وفى نهاية التحقيق أثار أحمد وطن الرأى العام إذ قال إنهم يحتفظون بكميات

ضـخـمـة من الأسلحـة والذخـائر فى مـخـازن سـرية تحت الأرض لحين عودتهم التى هم منها متأكدون.

ومن الموضـوعـات الأخـرى التى لفتت إليـه الأنظار مـوضـوعـه عن مـرشدى شـركة القنال وقد أورد فـيه إحصـائية أظهرت أن عدد المرشـدين المصـريين ضـئيل جـدًا بالنسـبة لعدد المرشـدين الأجـانب وقال إنه حـان الوقت لكى تضـغط الحكومة المصـرية على الشركة لزيادة عـدد المرشـدين الوطنيين لاسيما وأنها ستسترد القنال بعد اثنتى عشرة سنة فقط.

*****

بعد شم النسـيم كلفـه رئيس التحرير بكتـابة تحـقيق حـول مـقتل حسن جنزير حرقًا فى أحد نيران بورسعيد التى يُقيمها أبناء المدينة ليلة هذا العيد، وكان للطريقة المرعبة والغامضة التى قُتِل بها الرجل أثر بالغ في نفوس أهل المدينة وفى نفوس القراء الذين قرؤا الخبر في الجريدة.

كتب أحمد وطن وصفًا تفصيليًا لعملية الحرق التى شاهدها بنفسه فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل مع غيره من المواطنين الذين تجمعوا قبل ذلك بساعتين حول النار التى أُقيمت أمام سينما مصر ليشاهدوا ألسنة النار تعلو فى السماء وتحرق ألنبى عدو الشعب.

عُرِف قبل إشعال الحرائق أن حارة «أبو قوره» عندها من الأقفاص والقش ما يُغذى نارًا تستمر عشر ساعات بارتفاع خمسة طوابق. لكن أحمد وطن فضل مشاهدة نار سينما مصر لأن الأولاد هناك يواكبون الأحداث الجارية بصنع دُمى السياسيين المعاصرين المكروهين من

الشعب، وقد صنعوا هذا العام دمية لدالاس وأخرى لحرمه تجولوا بهما في شوارع المدينة بعد صلاة العصر فى حنطور المرحوم عزب بيك الجمل بإذن من ورثته.

كان حسن جنزير ينتظر ليلة شم النسيم بفارغ الصبر إذ كان دخله فيها يعادل دخله فى شهر كامل وذلك بعد عرضٍ لم يكن يستغرق سوى دقائق قليلة كانت الأعناق خلاله تشرئب إليه وتنحبس الأنفاس وتخفق القلوب وهم يشاهدونه يثب وثبة الموت عبر نار مزمجرة عالية.

تدرب حسن تدريبًا متواصلاً خلال الأسبوعين السابقين على شم النسيم. جرى مسافات طويلة وقفز عوائق عالية وشد حبالاً ضد ثلاثة رجال أو أربعة أو خمسة. سأل الناس نوال وهى تلعب البيانولا بمفردها إن كان زوجها سيعود إلى ألعاب النار والحديد فأجابتهم أنه يتدرب ليقفز آخر قفزاته ليلة شم النسيم. لم يصدقها محمود الطاعون الذي اجتر أمل انفصال نوال عن حسن جنزير، فقال لها:

– إذا كنت ناوية خلاص تسيبيه أنا مستعد أبعده عنك.

– مش ناويه أسيبه يا محمود يا طاعون.

– يانوال أنا اتغنيت قوى، وبالعب بالفلوس لعب.

– فلوس الحشيش؟!

– مش أحسن من فلوس الشحاته بتاعته؟ علي الأقل فلوس الحشيش زى الرز، لكن فلوس الشحاته ملاليم ورايحه زي الريح...... وبعدين ده خمساوى. خمساوى والاً لأ يانوال؟ مش الدكتور يزدى هو

اللي عطاله البيانولا دى؟

– طب ما يبقى أنا خمساوية زيه. مش الدكتور عطانا البيانولا أنا وهو؟

– بعد الشر عنك يانوال.

– فضها سيرة بقى يا محمود وخليني أشوف رزقى.

– طب روحى يا نوال. بس أنا مش هاسكت إلاّ لما أخـــدك من الوسخ ده.

*****

بدأ الحريق فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل بهرم مدرج من الأقفاص المملوءة بالقش المسكوب عليه بعض الكيروسين. ارتفعت النار قليلاً فتقافز الصبية عليها. أضيفت أقفاص أخرى فوق الأقفاص المحترقة وواصل الصبية قفزهم ولم يتوقفوا إلا عندما وسعت دائرة النيران وزاد ارتفاعها بإضافة أعداد أخرى من الأقفاص فقفز فوقها شباب فى الخامسة عشرة أو أكثر.

ظهر حسن جنزير فى الساعة الثانية والنصف وكان يرتدى بنطلونه الدانجاريه وسويتر أسود من الجلد الطبيعى وحذائين جلديين برقبتين. جرى حول النار عدة مرات ثم أعطى إشارة لمساعديه فأحضرا أكثر من عشرين قفصًا كبيرًا مملوًّا بالقش وُضعت دفعة واحدة على النار المشتعلة وألقى عليها عشرة لترات كيروسين فأصبحت سعيرًا. ابتعد الجمهور عنها كثيرًا فاتسعت الحلقة المحيطة بها. وقف حسن على

بُعد عشرين مترًا منها ورفع يديه إشارةً لاستعداده للقفزة الكبرى فحيته الجماهير القريبة منه والجماهير الأخرى البعيدة عنه وقد ظهر الرجل واضحًا فى ضوء النيران التى سيقفز فيها. انطلق عدوًا بأقصى سرعته وقبل النار بثلاثة أمتار قفز قفزة هائلة رفعته في الهواء أمتارًا وها هو يطير وسط ألسنة اللهب التى ارتفعت إلى الطابق الثالث من المنازل المحيطة. يجتاز الرجل النيران ويهبط فى الناحية الأخرى لكن وياللمفاجئة المفجعة وسط أقفاص متأججة الاشتعال ووسط صرخات الجماهير المدوية التى أدركت هلاك الرجل المحتوم، إذ ما إن بدأ حسن عدوه ليقفز حتى رأت الجماهير المحتشدة ستة ملثمين وقد أسرعوا إلى دائرة النار وجذبوا بأسياخ حديدية طويلة عددًا كبيرًا من الأقفاص المشتعلة ووضعوها فى المكان الذى سيهبط فيه الرجل، وعندما هبط وجد نفسه وسط النيران فاستغاث بصرخات ونداءات عالية وفرفر كدجاجة مذبوحة وسط الأقفاص التى أحاطت به وغطته، وكانت النيران أقوى من أن يقترب منها أحد لنجدته، كما أن الملثمين الستة جذبوا عددًا آخر من الأقفاص المشتعلة ودفعوها نحو الجماهير فبثوا الذعر فيهم ومنعوا وصولهم إلى الجسم المحترق، وبعد أن تأكدوا من هلاكه لاذوا بالفرار دون أن يتعرف عليهم أحد.

التقط أحمد وطن ثلاث صور؛ إحداها لحسن وهو طائر فوق ألسنة اللهب وأخرى لجثته المحترقة بعد انتشالها من رماد الأقفاص وصورة للملثمين وهم يجرُّون الأقفاص المشتعلة بأسياخهم الطويلة.

*****

فى الشهور الثلاثة التالية لم يكتب أحمد وطن شيئًا ذا بال، لكنه استأنف نشاطه بقوة بعد تأميم القناة فكتب هذا الخبر فى التاسع والعشرين من يوليو:

«يتردد هنا فى بورسعيد أن هناك مخططًا لسحب المرشدين الأجانب ردًا على تأميم القناة. وقد شوهد بعض من هؤلاء المرشدين وعائلاتهم يبيعون أمتعتهم وينهون تعاملاتهم فى المدينة».

ثم توالت تحقيقاته المثيرة عن التأميم وردود الأفعال المحلية والعالمية عليه.

*****



الجزء الثانى

١ أحمد وطن وياسمين يزدى

تزاحمت الأحداث المحلية والعالمية بعد تأميم القناة، لكن الحياة فى بورسعيد كانت طبيعية اللهم إلا قيام بعض الضباط والجنود بتدريب شباب المدينة على استعمال البنادق والقنابل اليدوية ومدافع البازوكا فى أقصى الناحية الغربية من الشاطئ الخالى الآن من المصطافين، وامتلأ الميناء بالسفن التجارية وحاملات البترول القادمة من الشمال، وقيل أن الدول الغربية أكثرت من سفنها العابرة للقنال حتى تربك الملاحة فى الممر العالمى فيظهر عجز مصر فى إدارته ويكون ذلك مبررًا لتدخلهم العسكرى. وكان ذلك من حسن حظ بورسعيد التى انتعشت تجارتها انتعاشًا كبيرًا، وأعاد هذا الجو المشحون بنذر الحرب إلى الأذهان ذكريات الحرب العالمية الثانية وما كان لها من آثار إيجابية في إنعاش اقتصاد المدينة، ولايخفى على أحد أن معظم تجار المدينة الكبار ورجال الأعمال المرموقين فيها كونوا ثرواتهم أثناء تلك الحرب التى مرَّ على انتهائها الآن إحدى عشرة سنة فقط.

ونتيجة لهذا الانتعاش ازدادت إعلانات التجار فى المجلات والجرائد تأييدًا للتأميم ولجمال عبدالناصر فى كل خطوة خطاها من أجل مصر وعزتها، وكان لجريدة النبأ نصيب الأسد من تلك الإعلانات وبرز اسم أحمد وطن أكثر من ذى قبل وكانت صورته تظهر يوميًا تقريبًا مع

التحقيقات المتلاحقة التى كانت تنشر له. وازدادت سفرياته إلى القاهرة لمتابعة أعماله فى الجريدة ومناقشة الموضوعات التى سيكتبها فى المرحلة المقبلة مع رئيس التحرير ورئيس قسم التحقيقات السياسية. ومع كثرة أعماله فإنه خصص جزءًا من وقته لياسمين يزدى طالبة الجامعة الأمريكية. وكانت علاقته بها قد تطورت منذ خطوبة سلوى بكازينو بالاس من مجرد إثنين يعرفان بعضهما بعضا عن طريق العروس إلى صديقين قُدم الجنيه الذهبى عربونًا لصداقتهما أو بالأحرى رمزًا لها، ولم تلبث العلاقة بينهما أن تطورت إلى ماهو أكثر من مجرد صداقة نتيجة اندفاع أحمد وطن فى التعبير عن عواطفه نحوها وعدم رفض الفتاة هذا الاندفاع أو صده لكنها لم تسلك نفس مسلكه وتحفظت فى معاملته وإن كانت عاطفتها نحوه لأبعد ما تكون عن الفتور.

فى هذه الفترة ارتادا أماكن كثيرة من بينها نادي الجزيرة إذ استطاع رئيس التحرير أن يحصل له على تصريح مؤقت وقد لاحظت ياسمين كم كان فرحًا وفخورًا وهو يزف إليها بشرى حصوله على التصريح الذى سيمكنهما من دخول هذا النادي العريق الذى لا يدخله إلا صفوة المجتمع. لم تشأ الفتاة أن تفسد فرحته تلك وتخبره أن أباها عضو فى هذا النادى واكتفت بأن قالت:

– التصريح ده مايقدرش ياخده إلا الناس المهمين.

فقال لها بصوت هادىء وواثق:

– وانشاء الله فى ظرف سنة والا اتنين هيكون معايا عضوية كاملة.

*****

كانا يقضيان فترة ما بعد الظهر فى النادى ثم يدخلان السينما أو يجلسان فى أحد الكازينوهات ولا يفترقان إلا فى التاسعة مساء وقال لها يومًا بعد أن خرجا من الجريدة إنه نسى محفظته فى البيت.

فقالت وهى تبتسم:

- ولايهمك. أنا معايا فلوس كفاية. خلينى أنا أصرف النهارده.

- مش عشان كده والله. ده بس المحفظة فيها كل أوراقى ومامعاييش حاجة تثبت شخصيتى وانت عارفه الأيام دى كلها لخبطة والبلد مليانه جواسيس. فلازم الواحد يحتاط ويؤمن نفسه..... وعلى كل حال البيت في الدقى. يعنى المشوار مش هياخد عشر دقايق، واهو بالمرة تعرفيه وتشوفى شقتى.

- ماعنديش مانع.... يالله بينا.

كانت شقة صغيرة فى شارع جوهر. في جانب من صالتها طقم أنتريه مكون من كنبه وكرسيين فقط، وفى الجانب الآخر منضدة مربعة صغيرة مغطاة بمفرش مشمع ومحاطه بأربعة كراسى سفره. قالت ياسمين عندما دخلت:

- إيه ده يا أحمد، الصالة مكركبة كده ليه؟

- آه. أنا نسيت أقول لك. الخدامة ماجاتش النهارده. راحت البلد مع جوزها عشان فرح اختـه. اتفضلى اقعدى على بال ما أجيب المحفظة من جوه.

دخل غرفة النوم ورتبها فى عجالة ثم نادى عليها:

- ماتيجي يا ياسمين تشوفي أوضة النوم. ماتخافيش، دي مش مكركبة زي الصالة.

- أطلت ياسمين برأسها أولاً ثم دخلت، وقالت بعد أن تفحصتها:

- لأ معقوله، وذوقها حلو كمان.

- شكرًا يا ياسمين على مجاملتك الرقيقة دي، وتستاهلي عليها بوسه.

كان قريبًا منها فطوقها بذراعيه وقبلها وظلت ذراعاه تطوقانها بعد القبلة وداعبت يداه ظهرها وفتح سوستة فستانها وقال بصوت منخفض وهو لايزال يحتضنها وهي لا تبدي مقاومة:

- أجيب لك شماعة تعلقي عليها الفستان... عشان مايتكرمش؟.

لم تندهش ياسمين لما فعله إذ كانت تعرف جرأته واندفاعه لكنها لم تشأ أن يكون رد فعلها عصبيًا واكتفت بأن قالت:

- لأ مفيش داعي.

فقال هامسًا وفمه لصق أذنها:

- إنت مش هتقلعيه؟

أبعدت ذراعيه عن جسمها وابتعدت عنه قليلاً وقالت وعلى وجهها ابتسامة خفيفة:

- لأ مش هاقلعه...... يا شقي.

ثم أضافت بعد أن استدارت معطية إياه ظهرها:

– ياللّه ارفع لى السوتة تاني.

مسك طرف السوستة بأصبعيه ورفعها ثم قال:

– أنا آسف يا ياسمين.

– ولا يهمك...... أخدت محفظتك وأوراقك؟

– أيوه، أخدتهم.

– طب ياللّه بينا. النهارده هاوديك مكان غير الأماكن اللى رحناها قبل كده.

لم يسألها عن المكان الذى تنوى اصطحابه إليه، وفى السيارة جلس صامتًا بجانبها فقالت:

– مالك؟ ساكت ليه؟

– متضايق من اللى عملته معاك في الشقة.

فقالت الفتاة:

– عاللى عملته؟ والاّ عاللى كنت ناوى تعمله؟

– صدقينى أنا كنت عايز أرضيك واسعدك مش أكتر.

وصمت لبرهة ثم قال:

– ومرة تانية باكرر لك أسفى وأوعدك ان مش هتصدر منى حاجة زى دى تانى.

- Don’t worry

- يعنى مش زعلانه؟

- Absolutely not

ابتسم ثم قال:

- طب هتودينى فين النهارده؟

- مش هاقول لك. ها عملها لك مفاجأة.

*****

٢ الحـــرب

وصلت أزمة السويس إلى طريق مسدود لتشدد الأطراف المعنية وفشل الوسطاء فى تقريب وجهات النظر لإيجاد حل معقول فحشدت انجلترا وفرنسا جيوشهما وأساطيلهما فى قواعدهما بالبحر المتوسط استعدادًا للتدخل العسكرى، وفى مصر تعطلت المدارس والجامعات وطلب السيد الدهشان من إبنته أن تبقى بالقاهرة لخطورة الوضع فى بورسعيد التى أصبح من المؤكد أنها ستكون مسرحًا لعمليات حربية كبيرة بينما فضل الدكتور يزدى استدعاء ياسمين لتكون معه فى بورسعيد.

فى التاسع والعشرين من أكتوبر بدأ قصف المدينة بأعداد كبيرة من الطائرات القادمة من البحر. كان يومًا من أيام الخريف الجميلة، فالهواء ساكن والشمس ساطعة والبحر مستوٍ كحصيرة زرقاء.

أتت الطائرات بتشكيلات من ثلاث طائرات أو أربع. يحلق كل تشكيل فى سماء المدينة وفى لحظة كان ينقض على هدفه ويرمى أحماله ثم يرتفع ويدور باتجاه البحر.

كان القصف شديدًا ومتلاحقًا فتوقع الناس أن تُضرب منازلهم في أى لحظة وهم قابعون فيها. استسلموا لأقدارهم ولم يفعلوا شيئًا اللهم إلا غلق النوافذ الخشبية غلقًا جيدًا ووضع الورق اللاصق على الزجاج حتى

إذا ما سقطت قنبلة فى الشارع أو على منزل مجاور لا تندفع شظاياها أو شظايا الزجاج إليهم. لكن النوافذ المغلقة لم تمنع عن آذانهم أزيز الطائرات ورعود المدافع ودوى الانفجارات التى ما انقطعت لحظة واحدة منذ شروق الشمس وحتى غروبها. ورغم توقف القصف عند الغروب فقد ظل الناس فى منازلهم تحسبًا لأى مفاجآت ليلية. لكن رجال المقاومة الشعبية داروا فى شوارع المدينة يحثون الناس على إطفاء الأنوار ووضع أوراق زرقاء سميكة على الشبابيك لمنع تسرب أى ضوء للخارج فأصبح الظلام كثيفًا بعد تنفيذ هذه التعليمات، وتحرك رجال المقاومة كالأشباح ولم يعرف بعضهم بعضًا إلا بأصواتهم.

لم ينم كثير من الناس، وهؤلاء الذين ناموا استيقظوا فى الصباح الباكر على أزيز الطائرات وقصف المدافع ودوى الانفجارات. وبعد عدة ساعات من قصف اليوم الثانى اكتشفوا أن الطائرات لم تضرب منازلهم. بدا أن أهدافها كانت خارج المدينة وليست فيها فشجعهم ذلك على الخروج لشراء حاجاتهم.

لم يكن هناك تكالب ملحوظ على البضائع بغرض تخزينها إذ كان هناك اقتناع أن الأمور ستعود إلى نصابها بعد يومين أو ثلاثة. وكان السمك والخضار هما السلعتان الوحيدتان الناقصتان فى الأسواق.

فُتحت أيضا المقاهى لاسيما مقاهى العرب ودخَّن الزبائن الشيشة والجوزة ولعبوا ألعابهم المعتادة وأطالوا فيها قتلاً للوقت الطويل الذى وفره لهم تعطلهم المفاجىء عن العمل، ولعب الصبية الكرة أمام منازلهم ونشرت ربات البيوت الغسيل فى النوافذ وفوق الأسطح، والطائرات تحلق فوق الجميع بأزيزها المستمر. ودوى الانفجارات يُسمع من مناطق المدينة البعيدة.

فى عصر اليوم الثانى للقصف امتلأت سماء المدينة بسحب من الدخان. تتبع الناس مصادرها فرأوا أعمدتها تتصاعد من الرسوه والجميل فتأكدوا فعلاً أن الطائرات لا تستهدف المدنيين أو مساكنهم فواصلوا التسوق والجلوس فى المقاهى وازدادت أعداد الصبية الذين يلعبون أمام منازلهم. وفى المساء انبعثت الأناشيد والأغانى الوطنية والتعليقات الحماسية من الإذاعة المصرية وعرف الناس منها أن هناك معركة ضارية تدور رحاها بين جيوش انجلترا وفرنسا وأساطيلهما وبين شعب بورسعيد الباسل الذى أبى أن يترك مدينته لقمة سائغة للغزاة وهب يدافع عنها بما توفر لديه من بنادق وقنابل يدويه ومدى وسكاكين وإذا لم تتوفر هذه فبالحلل والتشوت وأيادى الهون والعصى. واندفع صبية العرب والمناخ للقتال أيضا ولم تكن الروح القتالية تنقصهم على كل حال إذ كانت قد تربت وغُرست فيهم بفضل مطارداتهم المستمرة للخنازير. وقد وجدوا فى أياديهم الآن أسلحة أكثر تطورًا من تلك التى استعملوها فى مطاردة الحيوانات النجسة وقتل على باشا الشافعى.

*****

ازداد القصف فى اليوم الثالث وارتفع المزيد من أعمدة الدخان تنفثها نيران كثيفة تحيط بالمدينة إلا من جهة البحر، ولم يؤثر ذلك على عمليات البيع والشراء أو لعب الصبية أو زيارات الأهل والأصدقاء النهارية بل لم تجد نوال مندوحة عن أخذ البيانولا لاصطياد رزقها بعد يومين من التعطل وتم إصلاح أعطال الإذاعة بعد توقف يوم كامل وسمع الناس من الراديو أنهم لازالوا يحاربون وأنهم لازالوا صامدين أمام جيوش الدولتين الكبيرتين وفى نهاية النهار سمعوا أنهم قتلوا كل المظليين الإنجليز والفرنسيين الذين هبطوا فى الرسوة والجميل. وبعد

هذا الخبر العظيم انطلقت الأناشيد والأغاني الحماسية انطلاق القنابل من مدافعها وكان لها أثرها الفعال في نفوس أبناء المدينة فاندفعوا بأعداد متزايدة إلى حديقة سعد والنادى المصرى لمواصلة تدريباتهم وهناك أخبرتهم قيادة المقاومة الشعبية أن «غدًا هو يوم المعركة الحاسمة».

قُسِّم شباب المدينة إلى مجموعات نيط بكل مجموعة الدفاع عن أحد المواقع واختير أقواهم وأشجعهم وأكثرهم تدريبًا للتمترس على طول الشاطىء الذى تربض أمامه سفن الأسطولين الكبيرين وأُخبروا أن مهمتهم هى التصدى لدبابات العدو البرمائية وعرباته المصفحة البرمائية أيضا عندما ترسو على الشاطىء.

توجه الشباب ليلاً إلى الشاطىء وربضوا أسفل الكبائن الخشبية المتراصة فى خمسة صفوف طويلة تمتد من رصيف ديليسبس شرقًا حتى مساكن خفر السواحل فى الغرب وقد قضوا ليلة هادئة تحت هذه الكبائن بل نام الكثيرون نومًا مريحًا أوحى به دِعة الأيام الثلاثة الماضية ويقين الانتصار القادم الذى عززه خبر القضاء على المظليين الذى سمعوه من الإذاعة.

تحققت نبوءة قيادة المقاومة الشعبية إذ ما إن طلعت الشمس وانتشر ضوؤها حتى امتلأ البحر بالدبابات وحاملات الجنود البرمائية. أخذ الشبان وضع الاستعداد تحت الكبائن وازداد تأهبهم عندما رست الدبابات وحاملات الجنود فوق اليابسة وواصلت سيرها أرضًا. وعندما أصبحت فى مرمى نيران المقاومة أطلق حاملو البازوكا نيرانهم. توقفت الدبابات وحاملات الجنود فأصدرت قيادة المقاومة أوامرها إلى الشباب أن ينتظروا ريثما تتقدم الدبابات وحاملات الجنود قليلاً فتصبح صيدًا سهلاً لمدافع البازوكا. لم تتقدم الدبابات، لكنها أطلقت الافًا من قذائفها

على الكبائن الخشبية التى كان يختبىء تحتها رجال المقاومة، وفى دقائق كانت كل الكبائن تحترق ولم تأخذ وقتًا طويلاً لتتحول إلى رماد دفن فيه رجال المقاومة ولم ينج إلاَّ هؤلاء الذين كانوا تحت كبائن الصف الأخير إذ تمكنوا من الفرار قبل أن تطالهم النيران التى أُضرمت أمامهم فجأة.

بعد حرق الكبائن واصلت الدبابات والعربات سيرها فوق رمال الشاطىء ولم تُواجَه إلاَّ بالخوازيق الحديدية السوداء التى كانت الكبائن مرفوعة فوقها فداهمتها وسوتها برماد الكبائن والجثث المحترقة وواصلت سيرها حتى وصلت إلى شارع ٢٣ يوليو كتشنر سابقًا وهناك تجمعت ثم انقسمت إلى تشكيلين رئيسيين أحدهما اخترق المدينة من شارع محمد على فى الوسط والاخر من شارع الأمين فى الطرف الغربى للمدينة.

أعنف صور المقاومة كانت فى شارع محمد على وتحديدًا عند عمارتى قطان وهدية والعمارات المجاورة لهما إذ ما إن مرت الدبابات والعربات المصفحة أمامها حتى انطلق منها سيلٌ هائل من طلقات الرصاص والقنابل اليدوية وقذائف البازوكا فأصابت دبابتين.

توقفت الدبابات والمصفحات لبعض الوقت ثم تقهقرت إلى شارع كتشنر، لكنها لم تلبث أن عادت وهى تحمل أعلامًا حمراء. سرت فى أول الأمر همسات فى صفوف أفراد المقاومة أنها أعلام روسية ثم لم تلبث أن تحولت إلى صيحات من الحماس والفرحة العارمة: «الله أكبر. الله أكبر. الروس إجُم. الروس إجُم. الله أكبر. دى دبابات روسى. وقفوا الضرب يا جدعان».

ترك أفراد المقاومة أماكنهم وانطلقوا إلى الدبابات والمصفحات وامتطوها ولوحوا بأسلحتهم وهم يصيحون «الله أكبر، الله أكبر» وأقبل

المزيد من رجال المقاومة من الأسطح ومن شارعى عبادى وعباس للترحيب بالأصدقاء. غير أن الدبابات والمصفحات أطلقت مدافعها الرشاشة فى وقت واحد على الأعداد الهائلة من أفراد المقاومة الذين كانوا فوقها أو الذين كانوا يتجهون إليها، وفى أقل من دقيقتين حُصِد ممتطو الدبابات والمصفحات وسقطوا على الأرض قتلى أو جرحى ولاذ القليل منهم بالفرار فى اتجاه البواكى وهم يصيحون فى وجه القادمين: «دول مش روس ياعالم! دى خدعة! ده كمين! إرجعوا تانى».

تحركت بعض الدبابات ودخلت شارعى عبادى وعباس مُتعقبةً الفارين. اصطادوا بعضهم فى الطريق واعتصم البعض الآخر بالمنازل فلم يبق فى الشوارع إلا الدبابات والمصفحات. ساد هدوءٌ لبعض الوقت، ثم انبعث صوت ميكروفون من إحدى الدبابات يأمر الناس بلغة عربية كلاسيكسة لكن بلهجة أعجمية أن ينزلوا من العمارات لأنها ستحرق بعد عشر دقائق وكرر الصوت تحذيره ثلاث مرات.

ثبت فى تلك اللحظة أن شعب بورسعيد قد استفاد من فترة الاحتلال الانجليزى إذ كانوا يعرفون عنهم أنهم قد يتراجعون عن وعودهم لكنهم ما تراجعوا قط عن تنفيذ تهديدهم، فنزل الرجال المسنون والنساء والأطفال لكن الشباب فروا من الأسطح أو عبر مساقط النور إلى عمارات أخرى بعيدة وعندما خرجوا منها كانت الدبابات والمصفحات فى انتظارهم فحصدتهم حصدًا.

بعد مهلة العشر دقائق ضُربت العمارات بالقنابل الحارقة فاحترقت وانهارت فى أقل من نصف ساعة ولم يتبق إلا واجهتا عمارتى هدية وقطان لضخامة الأعمدة التى كانت تحملهما ثم تحركت الدبابات

والمصفحات وواصلت سيرها فى شارع محمد على دون أن تُقابل بأى مقاومة إلى أن وصلت إلى معسكراتهم القديمة فى منطقة الجولف.

*****

فى الجبهة الغربية لقيت القوات الغازية مقاومة شرسة من مقاتلى المناخ المتربصين داخل المساكن الخشبية أسفرت عن إحراق دبابة وتعطيل أخرى فطُلب من الأهالى عن طريق مكبرات الصوت ترك بيوتهم والخروج إلى شارع الأمين لأن مساكنهم ستحرق بعد خمس دقائق، ولم يُعرف على وجه الدقة أسمع الناس الرسالة وتجاهلوها أم لم يسمعوها إذ لم يتوقفوا عن قذف الدبابات والمصفحات بمدافع البازوكا والقنابل اليدوية فما كان من القوات الغازية إلا أن أطلقت قنابلها الحارقة على عدد كبير من المساكن فأحرقتها فى دقائق قليلة ثم أذاعت مكبرات الصوت أن كل المساكن ستحرق بالمثل سواء أخرج الناس أم لم يخرجوا.

كان تنفيذ القوات الغازية لإنذارهم الأول فعالاً فى رضوخ أهالى المناخ للإنذار الثانى إذ سرعان ما خرجوا عائلات وأفرادًا إلى شارع الأمين حاملين بقجًا صغيرة أو أى شىء استطاعت أن تلتقطه أياديهم وبعد دقائق من خروجهم قُذفت منازلهم الخشبية بالقنابل الحارقة فأضرمت فيها النيران التى سرعان ما امتدت إلى حظائر الخنازير، ولم يهرب من الحيوانات إلا تلك التى كانت حظائرها مفتوحة.

اشتدت الريح الشمالية الغربية الآتية من البحر ودفعت أمامها ألسنة اللهب وأعمدة الدخان المنبعثة من البيوت الخشبية وكانت متجهة لسوء الحظ إلى شارع الأمين فلاحقت جموع الأهالى الفارين. حث الرجال نساءهم وأطفالهم على غذو الخطى فَعَلاَ الصراخ والعويل

واضطر بعض الرجال إلى ترك بقجهم لحمل من خارت قواه من ذويهم بينما حمل الإثنين معًا من كانوا أكثر قوة، إلى أن وصلوا إلى بحيرة المنزلة وتزاحموا على المراكب الراسية ووقع الكثير منهم فى مياه البحيرة وهى ضحلة لحسن الحظ عند شاطئها، بينما توقفت الخنازير عند الحواف بين المياه التى لايريدون النزول فيها وألسنة النيران الزاحفة خلفهم. وحينما اقتربت النيران من البحيرة قطع الناس حبال المراكب ودفعوها بعيدًا عن الشاطىء، فلا مفر من ترك المدينة التى ستحرق حتمًا بأكملها.

استشاط زعماء المقاومة غضبًا من خدع الغزاة ووحشيتهم فى التعامل مع المواطنين فأمروا رجال المقاومة بالتوجه إلى معسكر الجولف ومداهمة قوات الاحتلال الذين اعتقدوا أن المدينة كانت لقمة سائغة فى أفواههم وأن المقاومة قد انتهت تحت كبائن الشاطىء وفى المناخ وشارع محمد علي. توجه المئات من رجال المقاومة إلى المعسكر ببنادقهم وقنابلهم اليدوية ومدافعهم الرشاشة مدفوعين بروح التضحية والفدائية المعروف بهما شعب بورسعيد بالإضافة إلى شعورهم بتحسن وضعهم القتالى من مجرد مدافعين إلى محاصرين للغزاة.

لقد مر أكثر من سبعين سنة على احتلال الانجليز لمصر وطوال هذه السنوات لم تفتر عزيمة المصريين عن طردهم، وعندما تم الجلاء كان هناك اقتناع تام أن مصر لن تحتل بعد ذلك أبدا ولن يدخلها غازٍ إلا فوق جثث أبنائها، وكان شعب بورسعيد الحر الأبى من أكثر المصريين اقتناعًا بذلك، وها هم يحولون هذا الشعور بالوطنية الجارفة من مجرد كلام إلى واقع عملى ويحاصرون المحتلين فى معسكر الجولف للانقضاض عليهم والفتك بهم إن لم يكن بأسلحتهم فبأيديهم وأسنانهم.

صُوبت مدافع البازوكا والمدافع السريعة الطلقات إلى المعسكر وألقيت الاف القنابل اليدوية وكرات اللهب المغموسة فى الكيروسين، لكن لم تمر دقيقتان حتى خرجت من بوابات المعسكر عشرات الدبابات والمصفحات التى سرعان ما أصبحت وسط رجال المقاومة وصوبت إليهم مدافعها السريعة الطلقات. سقط المئات صرعى وفر المئات فتبعتهم الدبابات والمصفحات إلى داخل المدينة. سقط بعض الفارين فى الطريق بينما تمكن البعض الآخر من الوصول إلى المنازل والاحتماء بها.

التقط عدد غير قليل من الشباب صغار السن أسلحة من سقطوا ولم تكن قد بردت بعد وانضموا إلى صفوف المقاومة. تحول القتال الآن من كونه تضحية وشرف وكرامة وهى المبادىء التى طالما سمعوها تتردد إلى عاطفةٍ تكونت وتغذت على رؤية القتلى والدماء والنيران والدمار.

اتخذ المقاتلون مواقعهم على الأسطح وخلف الأعمدة وأكياس الرمل ودارت معركة كبرى بينهم وبين الدبابات والمصفحات التى هوجمت بضراوة بالبنادق التشيكية والمدافع الصغيرة سريعة الطلقات ومدافع البازوكا. استمرت هذه المعركة نصف ساعة عمت أرجاء المدينة فيها أصوات طلقات البنادق والمدافع فكانت رعودًا مزمجرة متصلة أطلقتها حناجر كل الشياطين فى لحظة من لحظات غضبها الهائل. ثم عم صمت رهيب، لكن للحظة قصيرة. سُمع الجرحى وهم يئنون أو يصرخون أو ينطقون الشهادتين وفُتِحَت بعض النوافذ سنتيمترًا واحدًا فشُوهدت الدبابات والمصفحات وجثث القتلى والجرحى.

عند أى محاولة من جانب الأهالى للخروج لإسعاف الجرحى أو لجذبهم داخل المنازل كانت تُصوب إليهم الطلقات من كل جانب وقد سقط

بعضهم بالفعل قتيلاً أو جريحًا فأيقن الجميع أنهم ميتون إن هم تخطوا عتبات منازلهم. أكد ذلك موت آلاف الكلاب والقطط وحتى الفئران، إذ طالتها الطلقات التى كانت تصوب على أى شىء يتحرك. وبعد انسحاب الدبابات كان على الناس نقل الجرحى بسرعة إلى المستشفى. كانت معظم جروحهم بالغة ومرٌّ على إصابتهم بها أكثر من ساعة فلفظ الكثيرون أنفاسهم من النزيف. أما القتلى فقد تُركوا لحين الانتهاء من نقل الجرحى، كما أن الناس لم يعرفوا ماذا هم فاعلون بهم من حيث غُسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وتركت الجثث على ظهورها مكشوفة الوجوه حتى يسهل التعرف عليها.

استُخدمت كل أنواع السيارات وكل أنواع العربات لنقل الجرحى بصراخهم وأنينهم إلى المستشفيات، ثم استخدمت مرة أخرى لنقل جثثهم الصامتة من المستشفيات إلى المقابر الجماعية.

*****

٣ تصوير الموتى

لزم وطن السرجانى بيته طوال قصف المدينة واشتداد المعارك بين المقاومة وقوات الاحتلال. قضى وقته مابين النوم والاستماع إلى الإذاعات وتدخين الشيشة. انتابه التوتر أحيانًا لكنه هدأ تمامًا بعد انتهاء القصف وتوقف تبادل إطلاق النار وحمد الله أن بيته لم يُقصف أو يُحرق وأن ابنه لم يشترك فى القتال فنجا من موت محقق كان مصير آلاف الشبان الذين حملوا السلاح فالولد لحسن الحظ لا يعرف كيف يستعمل حتى البندقية التشيكية إذ كان أثناء فترة التدريب العسكرى مشغولا بمتابعة أحداث ما بعد التأميم وكتابة تحقيقاته عنها.

لم يكن الأب مقتنعًا بجدوى هذه المعركة غير المتكافئة التى أُلقى فى أتونها بآلاف الشباب الذين كان معظمهم فى سن إبنه ولم يسلم منهم إلا القليل، لكن هذا لم يكن رأى إبنه الذى قال إن شباب بورسعيد قدمٌ مثلاً رائعًا للبطولة والتضحية وإنكار الذات وحب الوطن..... إلخ، وإنه نادم أن عمله الصحفى أخذ كل وقته فلم يتمكن من التدرب على استعمال السلاح حتى ينال شرف المشاركة فى المعركة. وقد لاحظ الأب نبرة أسى وندم فى كلام ابنه فقال محاولاً تخفيف وخز ألميهما عليه:

- يا أحمد الواحد بيشارك بالحاجة اللى عنده أو بالحاجة اللى

يعرفها. فيه ناس بتحارب بإيدها وناس بتحارب بمالها وناس تانية بتحارب بمخها، وانت انكتب عليك تحارب بقلمك. وده سلاح مش سهل خصوصا فى أيامنا دى، وتأثيره يمكن يكون أقوى من المدافع والبنادق...

صمت الرجل قليلا ونظر إلى إبنه وقد شعر أن كلامه لم يُجد فى إخراجه من وجومه فجرب أسلوبًا آخر إذ قال وهو يتظاهر بالمرح:

– إنت مكلدم كده ليه يا أحمد؟ يا أخى قوم وفك عنك الهم ده. قوم يالله وشوف أحوال البلد بعد الضرب والحرايق. ده انت قدامك مهمة جامدة. يعنى لازم تكتب على كل اللى حصل وتصوره كمان عشان توضح الحقيقة للناس. لا تزيِّف ولا تزخرف. قول الحقيقة وبس. والمهمة دى بقى، وطنية والاَّ مش وطنية؟ قوم يالله قوم. الناس مستنية واحد زيك عشان تعرف ليه البلد دى انضربت بالشكل ده وليه الآلاف دول اتقتلوا فى ثلاث أربع ساعات؟!! إنت عندك أفلام كفاية عشان تاخد صور لكل اللى حصل؟

– عندى عشرة أفلام.

– يوووه !! دول يصوروا المعركة اللى حصلت دى ومعركة تانية كمان. والكاميرا جاهزة؟

– عندى اتنين جاهزين.

– عال. آجى معاك أساعدك فى حاجة؟

– ماستغناش عنك يابابا. خليك انت ولو احتجت لك هابقى أجيلك.

نهض متثاقلاً ومشى ببطء نحو غرفته ودخلها. جلس على سريره ونظر إلى الدولاب وظل ينظر إليه فترة طويلة. وفجأة نهض عن سريره ثم اتجه إلى الدولاب وأخرج منه آلتى تصوير وعددًا من الأفلام. تفحص الآلتين وركبٌ فيلمًا فى كل منهما ثم وضعهما فى حقيبة صغيرة ومعهما الأفلام وفلاشين وعدسات مكبرة ثم نزل وتوجه بالقسبا إلى شارع محمد على فصور جثث القتلى والجرحى والمبانى المدمرة والمحترقة.

لم يكن أحمد وطن مصورًا محترفًا لكنه اعتقد أن صوره ستثير مشاعر المشاهدين ليس لأنه ماهر فى فن التصوير ولكن لكثرة الأهداف المصورة وغرابتها وتنوع أوضاعها بالإضافة إلى اللحظة المأساوية التى التقطت فيها.

استغرق التصوير فى شوارع محمد على وعباس وعباده ساعة ونصف ولم يتبق معه سوى فيلمين فتوجه إلى المناخ والتقط صورًا مماثلة تقريبًا، الإضافة الوحيدة كانت تصوير أعداد هائلة من الخنازير المحترقة فى حظائرها أو التى قُتلت فى الشوارع أثناء فرارها. ثم توجه إلى كبائن الشاطىء المحترقة ولم تحظ هذه المنطقة بتنوع المشاهد أو تنوع أوضاع الموتى. كان مشهدًا واحدًا امتد لثلاث كيلومترات على طول الشاطىء تمثل فى صفوف طويلة من الخوازيق السوداء والرماد الكثيف والجثث المحترقة ولم يلتقط هناك سوى عشر صور رغم ضخامة الحريق، وكثرة الجثث.

*****

أنهى الأفلام العشرة فى ساعتين فقط. ساعده على ذلك تنقله

السريع بالقسبا وعدم انفعاله أمام المشاهد المأساوية التى كان من الممكن أن تضعف همته أو تعطل تفكيره. تنقلت خطواته بين الجثث المتناثرة وحطام المنازل ورماد الحرائق فى خفة ونشاط ومثابرة. حرص على ألا يدوس على الجثث لكن حذائيه أخطأتا الوقع أحيانا فكانتا ترتطمان برأسٍ أو تتعرقلان فى ذراع أو رِجل. لم تكن المشاهد عادية لكنه لم يملك إلا معاملتها كمشاهد عادية إذ لم يكن من هدفٍ أمامه إلا تصويرها بسرعة وقبل أن تفلت الفرصة لأى سبب من الأسباب كأنْ يُستأنف القتال أو يُفرض حظر التجول أو تُرفع الجثث، لذلك كان عليه أن يحيد مشاعره ويجعل عينيه مرتبطتين بعدسة الكاميرا أكثر من ارتباطهما بضميره أو وجدانه.

*****

عاد إلى البيت فى الساعة الرابعة بعد العصر وأخبر أباه وأمه أنه سيسافر إلى القاهرة عن طريق المطرية التى سيصلها بلنش البحيرة. جهز نفسه للرحلة بسرعة فغادر المنزل فى الرابعة والربع راكبًا قسبته خلف الأسطى عبده العجلاتى الذى سيرجع بها بعد أن يوصله إلى مرسى اللنش.

ازدادت الحركة فى المدينة عما كانت عليه منذ ساعة فقط. توالى خروج الناس من منازلهم بعد انتهاء المعركة وازدادت أعداد العربات التى كانت تنقل الموتى والجرحى ومع ذلك كان الهدوء يخيم على كل الشوارع، وكانت تلك ظاهرة غريبة على بورسعيد إذ عندما كانت تنشب فى أحد شوارعها أو حواريها معركة صغيرة ولو كانت بين صبيين ويجرح أحدهما كانت تثير هياجًا شديدًا. أما الآن فلا أحد يكترث لمئات القتلى

وآلاف الجرحى إلا ذووهم الذين ينقلونهم فى صمت وإذا بكوا فبصمت أيضًا .

وصلت القسبا إلى شارع الأمين ودخلته. كانت معظم المبانى فى جهته الشرقية سليمة إلاَّ من ثقوب طلقات تناثرت على واجهاتها، أما حى المناخ الذى كان فى الجهة الغربية فكان مدمرًا والنيران لازالت تنبعث من بعض منازله وأكواخه. هبت رياح شمالية قوية دفعت النيران أمامها فطالت باقى الأكواخ التى لم تكن قد احترقت بعد. سُمع فحيح النيران وطقطقة عُروق الخشب كما نبهه الأسطى عبده أن الرائحة النفاذة التى يشمانها كانت رائحة شواء الخنازير التى لم تستطع الهروب فاحترقت حية بجلودها وشعرها ودمائها. صمت أحمد وطن ولم يخبره أنها كانت أكثر حدة منذ ساعة فقط عندما كان يصور تلك الحيوانات محترقة فى حظائرها.

كان السير بالقسبا صعبًا فى شارع الأمين وسط الجثث المتناثرة والجماهير المذعورة التى كانت النيران تطاردهم بألسنتها وحرارتها الشديدة، كما خرجت الخنازير الناجية مندفعة من الحظائر المفتوحة يطاردها عدوٌ غير مألوف فأخذت تركض بأسرع مما كانت تركض مع الفتى المنغولى.

*****

عندما وصلت القسبا إلى مرسى اللنش كانت حواف البحيرة مزدحمة بالناس والحيوانات وكانت النيران قد توقف زحفها إلى مادون البحيرة ببضعة أمتار ومع ذلك فقد قفز الكثيرون إلى مياه البحيرة

مؤثرين برودتها على غدر النيران التى قد تطالهم فى أى لحظة وهى التى أحـرقت كل منازلهم وأثاثهم ومعظم حيواناتهم وبعضًا من ذويهم فى ساعات قليلة.

كان هناك لنشان على بُعد أربعة أمتار من الحافة وكان الناس ينتقلون إليهما عبر سقالتين خشبيتين. لم ينتظر الناس دورهم فساروا إليهما فى الماء الضحل وأياديهم مرفوعة فوق رؤوسهم تحمل حقائبهم وبقجهم. وعندما وصلوا ردهم عمال اللنشين بعنف فرُفعت العقائر وتبودلت الشتائم ودوى صراخ النساء والأطفال وألقيت الحقائب والبقج فى الماء فغاص أصحابها وراءها.. ولم يستطع أحمد وطن الوصول إلى أىٍ من اللنشين وفكر أنه إذا ما وصل لنش ثالث فلن يستطيع ركوبه أيضا فسأل عن ريس المرسى وعندما أوصلوه إليه أخبره أنه صحفى من القاهرة، وأن معه شيئًا مهمًا وخطيرًا يجب أن يوصله بسرعة إلى حكومة الثورة، وأنه سيدفع عشرين جنيهًا إذا أمَّن له الريس وسيلة خاصة وسريعة توصله إلى المطرية. وكانت صفته المرموقة كصحفى ومهمته الخطيرة وعرضه المغرى (بل كل منها على حده) قمينةً بأن تجعل الريس يرحب به ويخبره أن طلبه مجاب.

*****

٤ النبوءة : الحرَق أو الغرَق

عندما وصل أحمد وطن إلى المطرية أخذ سيارة إلى القاهرة وكان في مكتب رئيس التحرير فى العاشرة مساءً. لم يتمالك الرجل نفسه عندما علم أن أحمد وطن صور عشرة أفلام. فنهض عن مكتبه واحتضن الشاب:

- عشر تِفلام مرة واحدة!! والله أنت ولد يا أحمد!! وده كان عشمى فيك برضه.

ثم قال بعد أن رجع إلى مقعده:

- وصورت كل الأماكن المضروبة والمحروقة؟

- كلها يا مصطفى بيه..... والقتلى والجرحى... وكل حاجة!

كانت عينا رئيس التحرير تتسع وتبرق وهو يستمع إلى أحمد وطن ثم وهو يخرج الأفلام من الصندوق الذى ناوله إياه، ونهض مرة أخرى عن مقعده وقال:

- يالله على قسم التصوير. إحنا مش هنضيع وقت. لازم الأفلام دى تتحمض وتطبع حالاً عشان نبعت الصور لمجلس قيادة الثورة..

ومع إدراك الشاب للأهمية القصوى لإرسال الصور لمجلس قيادة الثورة فقد قال:

– هّى الصور مش هتتنشر فى الجورنال يا مصطفى بيه؟!

– هتتنشر طبعًا. بس القيادة لازم تشوفها الأول. القضية شغالة فى مجلس الأمن والجمعية العمومية وأكيد هيبعتوا الصور للدكتور محمود فوزى عشان يوروا العالم العمايل الفظيعة اللى عملها الانجليز والفرنسيين فى المدينة. هى الصور مش فيها قتلى كتير يا أحمد؟ وتدمير جامد زى ما بنسمع كده؟

– وأكتر من اللى سمعتوه كمان يا مصطفى بيه. الصور هتورِلكم مدابح فظيعة حصلت فى بورسعيد وما حصلتش فى أى مكان تانى.

–هايل! هايل يا أحمد!

*****

دخلا قسم التصوير فحُمضت الأفلام وكُبرت الصور على ورق ١٣×١٨ ثم وضع الورق فى الهايبو فبدأ ظهور الجثث وطفوها فى السائل. توالت صيحات الدهشة والإعجاب من رئيس التحرير، وقال عندما رأى صورة طفلة ملقاة على جانبها الأيمن وضفيرتاها الطويلتان حول رقبتها:

– ياه عالصورة دى يا أحمد ! مأساة! صحيح مأساة!

ثم قال وهو يمعن النظر فيها:

– تعرف يا أحمد. الصورة دى كان هيكون لها تأثير تانى لو كنت صورت البنت دى وفى حضنها عروسه. ياه! كانت هتبقى حدوته! المجلات والجرايد الأجنبية كانت نشرتها على طول، وفى الصفحة الأولى كمان.

– بس أنا كنت هاجيب العروسه منين فى الوقت ده يامصطفى بيه؟

– ده كان افتراض بس. مجرد افتراض. لكن الصورة مش بطالة على كل حال.

*****

بعد تجفيف الصور وقصها اتصل رئيس التحرير بالمسؤولين وأبلغهم أن الجريدة قامت بتصوير معركة بورسعيد بالكامل وأن لديه أكثر من ثلاثمائة صورة للمنازل المدمرة والمحترقة وجثث القتلى والمصابين، وما إن وضع السماعة حتى نهض عن مقعده وكتب شيئًا فى ورقة وقال لسكرتيرته وهو يرتدى سترته:

– بثينة. خدى أمر الصرف ده وروحى مع الأستاذ أحمد للشؤون المالية وبعدين حضرى له عربية مخصوص عشان توصله للمطرية.

*****

وصلت السيارة إلى المطرية فى الساعة الخامسة صباحًا ولم يجد أحمد وطن صعوبة فى العودة، اختار لنشًا جديدًا وخاليًا من الركاب وقد سُرَّ للسرعة التى سار بها في البحيرة.

بعد نصف ساعة من الإبحار بدأت ظلمة الليل تتبدد، وبدأ الأفق الشرقى الذى كان اللنش يتجه نحوه يتضح رويدًا رويدًا ثم ظهرت منه ذؤابة قرص الشمس. وإن هى إلا دقائق قليلة حتى كان القرص بكامله يظهر فوق سطح البحيرة ويضمخ الأفق الشرقى كله بحمرته. فكر أحمد وطن فى بورسعيد التى كانت خلف هذا القرص. لم يستطع تجنب التفكير فيما عساه حدث لها فى الساعات الإثنتى عشرة التى قضاها بعيدًا عنها . لقد دُمر وأُحرق كثير من أجزائها وقُتل وجرح الآلاف من أبنائها

فى السـاعـات القليلة السـابقـة على رحـيله منهـا، فـهل لم يحـدث شىء منذئذ؟!! إنتبه على صوت بحار اللنش يقول له:

- هو الأستاذ من مصر؟

- أيوه من مصر.

فقال البحار:

- غـريبـة انك جـاى لوحـدك. أصل الناس مـابتـروحش بـورسـعـيـد الوقت إلا فى مـجـمـوعـات، ودول مـا أخـبـيش عليك بيكونوا جـيش يا إمـا فدائيين. الدور اللى فات كان معايا منهم عشرة واللى قبليه خمستاشر. كانوا لابسين صيادين بس أنا عرفتهم على طول.

- ماكانش فيه غيرهم؟

- كتير! بس ركبوا مراكب ولانشات تانية.

توارى قرص الشمس فجأة خلف سحابة ضخمة داكنة وترك أحمد مكانه وجلس على مقعد تحت التندة اتقاءً للمطر الذى بدأ رذاذًا ولم يلبث أن تحول إلى رخات قوية فقال البحار:

- شـوف رحـمـة ربك! منزل المطره دى عشـان تطفى النار اللى بقى لهـا يومين مـولعـة هناك وكمـان عشـان الأمـراض مـا تتفـشـاش بين الناس. أصل انت ماشفتش الجثث اللى كانت مرمية فى الشوارع فى عز الشمس لغاية ما عفنت. هى صحيح انشالت دلوقتى لكن الحيوانات الميتة لسه ماليه البلد.

صمت الرجل قليلاً ثم مصمص فمه وقال:

– كان بيتقال إن مصير البلد دى يا حَرْقه يا غَرْقة. لكن شوف ربك عمل إيه فيها؟! جاب لها البلوتين مع بعض. أول ما هتوصل هتلاقى بيوت الدنيا محروقة فيها وكمان ناسها وحيواناتها. الكلام ده فى بورسعيد، لكن بعد شوية هتشوف جثث الغرقانين طافية على وش المانية. هربوا من النار، عشان يغرقوا فى البحيرة. أكتر من ثلاثين مركب ولنش غرقوا لحد الوقت. حمولة المركب العادية عشرين واللنش تلاتين، لكن تبص تلاقى مية واحد ركبوا! مارضيناش نطلع بالأعداد الزايدة دى قاموا ضربونا، وساعات كانو يخرّجونا من اللنش ويطلعوا بيه. وأدى النتيجة، ميات غرقت. بُص أهى الجثث جايه تهل اهى.

ظهرت أولاً جثة طفل، وبعد أقل من دقيقة ظهرت ثلاث جثث ثم ثلاث أخريات وبعد ديقتين كان اللنش يمر وسط عشرات الجثث الطافية. وصاح البحار فجأة.

– وقف يا اسطى سيد. وقف والنبى بسرعة. الراجل ده شبه خالى مسعد.

وعندما وقف اللنش صاح البحار:

– ارجع شوية ياعم السيد. شويه صغيرين بس.

رجع السائق قليلاً ومسك البحار قضيبًا حديديًا وقلب به إحدى الجثث الطافية وعندما ظهر وجهها قال البحار:

– خلاص يا عم السيد اتكل على الله. ماطلعش خالى.

– يعنى لازم العطلة دى ياعبده!

– معلش يا اسطى سيد. أصله الخالق الناطق خالى. قفاه وشعره

واكتافه. ولو ان خالى ده ماشفتهوش فى البلد ولا سأل فينا من ساعة ماراح بورسعيد وربنا فتحها عليك هناك. ياالله!

توقف هطول المطر لكن الرذاذ استمر يتساقط ببطء شديد، وبدا معلقًا فى الجو أكثر منه ساقطًا. وقال البحار:

- إتفرج بقى على الشوية اللى جايين دول.

نظر أحمد إلى حيث أشار البحار فرأى عددًا كبيرًا من الجثث الطافية. شق اللنش طريقه وسطها لكنه لم يرتطم بها إذ كانت أمواجه تبعدها قليلاً عن جانبيه وكان معظمها لأطفال ونساء. ظهرت ضفائر بنات ورؤوس صبية ورؤوس نساء معصبة أو مكشوفة، وكانت كلها منكفئةً على وجوهها فوق صفحة ماء البحيرة وأذرعها ممتدة أمامها فى تقوس. ظهرت أيضًا بقع صغيرة معلقة بأكتاف جثث النساء أو ظهورها، وكان هناك أيضًا بعض الصناديق الخشبية الصغيرة والسلال طافيةً فيما بين الجثث.

- بص المنظر ده يا افندى!

أشار البحار إلى جثة امرأة طافية يلتصق بصدرها وعنقها جثة طفل رضيع مغمورة تحت الماء.

- حاجة تقطع القلب والله!

لم يفُت أحمد وطن أن يُصور هذه المجموعة من الجثث والمجموعة السابقة والمجموعات التالية التى قابلها طوال الرحلة إلى بورسعيد.

*****

أخذ أحمد وطن سيارة أجرة من مرسى اللنش. بدا أن الأمطار

الغزيرة التى هطلت قد أطفأت الحرائق، لكن دخانًا كثيفًا كان لايزال يتصاعد من الرسوة والمناخ. وعندما وصلت السيارة إلى تقاطع كسرى ومحمد على رأى المنازل المتهدمة والمحترقة التى صورها فى اليوم السابق لكن الجثث لم يكن لها وجود وإن كانت بقع الدم مازالت تغطي البواكى والأرصفة.

*****

مكث أحمد قرابة الساعة مع أبيه وأمه وأخته حكى لهم خلالها تفاصيل رحلته إلى القاهرة وقال لأمه بعد أن ارتدى ملابس الخروج:

– ياسمين ماتصلتش يا ماما؟

– اتصلت مرتين. مره امبارح بالليل وأنا اللى رديت عليها وقلت لها انك خرجت وما اعرفش فين. والمره الثانية النهارده الصبح بدرى ورد عليها أبوك وأحرجنى لما قال لها انك مسافر من امبارح.

*****

٥ سلب الشونة

خرج أحمد وطن وتجول فى كل مناطق بورسعيد المدمرة والمحترقة عدا الرسوة والجميل. وبدلاً من أن يتوجه كما خطط عند خروجه من البيت إلى عيادة الدكتور يزدى لزيارته فلعله أثناء الزيارة يقابل ياسمين، اتجه إلى شارع الشرقية وسأل عن محمد غُرابه وابراهيم خرشوم وهما أشهر من سطا على معسكرات الانجليز قبل جلائهم.

نقر باب منزل محمد غرابه فلم يرد أحد من الداخل. أطل جاره من شرفته وأخبره أنه استشهد فى المعركة وأن أسرته هاجرت إلى دمياط، فسأل عن ابراهيم خرشوم فدله الرجل على منزل أبيه الذى لم يكن بعيدًا. وعرف أحمد من الأب أن ابراهيم ذهب إلى الشُونة التى اقتحمها أهل المدينة منذ دقائق فقط.

كان يومًا صحوًا سطعت فيه الشمس وسط سماء زرقاء صافية غير أنه شعر بنسمات باردة فى وجهه عندما أسرع بالقسبا فى الشوارع المؤدية إلى الشونة. رأى أعدادًا هائلة من الناس مقبلة ومحملة بالدقيق والأرز والفول والعدس، وأعدادًا أخرى ذاهبة تحمل أوانى وأكياسًا فارغة، وما إن ظهرت الشونة أمامه حتى وجد يوم الحشر فيها. لم ير بورسعيد متجمعة من قبل فى مكان مثلما تجمعت هنا، ولم ير فوضى ضاربة أطنابها مثل تلك التى رآها فى هذا اليوم. آلاف الناس رجالاً ونساءً من جميع الأعمار خاضوا معركة الحصول على الأرز والدقيق

والعدس والفول. تدافعوا بالأيدى والأرجل وسبوا بعضهم بعضا ونزعوا الأغطية التى كانت تحمى الأجولة من الشمس والمطر والعصافير. بقروا بطون الأجولة بسكاكين وعبوا منها فى أكياسهم وأوعيتهم أو ثقبوها بمسامير فتسرسبت الغلة فتلقفوها بأيديهم. لم يكتف البعض بحمل كيس أو وعاء بل حملوا أجولة كاملة فوق ظهورهم لكنهم لم يتمكنوا من الخروج إلا بربعها أو ثمنها إذ كان الآخرون يثقبونها فينهمر الحب فيلتقطونه فى أكياسهم وأوعيتهم قبل أن يسقط على الأرض.

وكالعادة كان النجاح ثمرة العمل الجماعى إذ تعاونت مجموعات فى نقل الأجولة ودافعوا عنها ببسالة ولم يتورعوا عن ضرب المغيرين عليهم أو تهديدهم بالسكاكين فكان الصراخ والعويل والسباب. ووسط هذا الهرج والمرج لم تجد الطيور الكبيرة مكانًا لها فى الشونة فطارت إلى أسطح المنازل المجاورة وشرفاتها أو اعتلت أسلاك الكهرباء. أما العصافير الصغيرة فحاولت رغم المخاطر أن يكون لها نصيب فى كميات الغلال الهائلة المتناثرة أمامها.

فى الساعة الثالثة عصرًا ظهرت دبابات وعربات مصفحة، أحاطت بالشونة من جميع جهاتها، ثم خرج منها جنود ذوو وجوه حمراء واقتحموا الشونة وأخذوا يضربون الناس بالأحزمة والعصى وأحيانا بنعال أحذيتهم، وفى أقل من خمس دقائق أخليت الشونة تمامًا ثم فرضت حراسة مشددة على أبوابها و على النقاط التى كسر المغيرون أسلاك السور عندها.

وكان الدكتور يزدى قد اتصل بالمسؤولين فى المدينة وسألهم إن كانوا يوافقون على تدخله لدى الانجليز والفرنسيين لإرسال قوات لاسترجاع الأمن عند الشونة. فردّ المسؤولن أن بورسعيد لم تشهد خللاً

أمنيًا طوال تاريخها وأن الغزو هو السبب المباشر فى حالة الفوضى التى تعمها فإذا قامت قوات الاحتلال الآن باسترجاع الأمن فى المدينة فلن يكون هذا إلا تصحيحا لخطأ ارتكبته. وأخيرًا طلب المسؤولون من الدكتور أن يُفهم قوات الاحتلال أن هذا لا يُعتبر تعاونًا بأى صورة من الصور.

وقد اضطر المسؤولون إلى ذلك خاصة بعد أن علموا بهروب المساجين من سجن بورسعيد وانتشارهم فى المدينة وقيامهم بالكثير من أعمال السلب والنهب فى الشونة وغيرها. وفى الواقع فإن المساجين لم يهربوا، لكنهم وجدوا الأبواب مفتوحة وبدون حراسها بعد أن تعرض السجن لقصف شديد. وكان فاروق السنبارى واحدًا من المساجين الفارين وكانت قضيته مازالت قيد النظر ولم يحكم عليه بعد وإن كان ممثل الادعاء قد طالب بإعدامه لقتله عزب الجمل مع سبق الإصرار والترصد. لم يشترك فاروق السنبارى فى عمليات السلب والنهب، بل لزم منزل أمه وزوجها مسعد المجايرى خشية القبض عليه مرة أخرى.

*****

٦ تكوين جماعات المقاومة الشعبية

توقفت عمليات السلب لكن البيع استمر فى الشوارع البعيدة قليلاً عن الشـونة واشـترى أحـمـد وطن ما يمكن حمله على القسبا لكن أمه أخبرته عندما رأت ما اشتراه أنه لا بد من حمولة أخرى فأخذ القسبا وجاب شوارع المدينة.

توقف عند تقاطع شارعى سعد زغلول ومحمد على إذ رأي إبراهيم خرشوم يبيع الفول السودانى تحت باكية مقهى فريال. نزل عن القسبا واتجه إليه وعندما اقترب منه سمعه يقول للمشترين الملتفين حوله:

– خلاص شطبنا. تيجو لى بكره الصبح. عندى أشولة كتير والكل هياخد. لكن مش هابيع إلا شوال واحد فى اليوم. يالله يالا انت وهو على بيتكم. يالله ياعم انت وهو. باقول لكم جبرنا ومش هابيع تانى النهارده! أهلاً يا أستاذ أحمد.

– إزيك يا ابراهيم؟

– الله يسلمك ويبارك فيك. طلباتك يا أستاذ أحمد.

– طلبات إيه بقى ما أنت شطبت أهُه !

– أجيب لك شوال كامل لو حبيت.

– الله يخليك يا ابراهيم. أنا مش جايلك عشان الفول.

- خير يا أستاذ أحمد!

- تعال اركب ورايا وهاكلمك واحنا ماشيين والا فى أى حتة تانية.

- طيب لحظة واحدة..... خد يا مسعد الميزان والشوال الفاضى ده واسبقنى عالبيت. وقول لامك ماتفتحش أى شوال ولاتبعش حاجة إلا أما آجى. فاهم؟

كان ابراهيم خرشوم ضئيل الجسم فلم يشعر أحمد وطن به وهو يركب خلفه كما لم تتناسب ضآلة جسمه مع سمعته كفتوة من أكبر فتوات بورسعيد وكأشهر من سطا على معسكرات الجيش البريطانى. توقف أحمد أمام بوابة جنينة فريال ونزل هو وابراهيم عن القسبا. دخلا الجنينة وجلسا على أحد مقاعدها وقال أحمد وطن:

- أنا رحت بيت محمد غرابه من شوية وعرفت انه استشهد. البقية فى حياتك.

- حياتك الباقية... المسكين راح فطيس. ياالله كلنا لها.

أراد أحمد أن يعرف كيف استشهد محمد غُرابة فقال:

- غريبة انه استشهد فى شارع عباس ومش فى حتته!

- أيوه. كان عند اخته فى اليوم ده. الوله ابنها اتأخر بره فقالت لُه ينزل يشوف مارجعش ليه. هو نزل من هنا والضرب اشتغل عليه من هنا. مفيش نُص دقيقة وكان انتهى. راح فى لمح البصر يا أستاذ أحمد. باقولك فى نص دقيقة وهو ماشى جنب الحيطه. شوف بقى واحد زى محمد غرابه لما يموت جنب حيطة بيت أخته زى القطة.... اللى ياما انضرب عليه رصاص زى الرز! وياما جرى وسط الكُنبه ووسط الكشافات اللى كانت

بتسلط عليه من كل حتة! وياما جرت وراه كلاب وُلف سعرانه وهو كان بيهرب زى العفريت وسنين على كده، مفيش مره اتصاب والا اتمسك. والمرة دى يصيدوه وهو ماشى جنب الحيط بيدور على ابن اخته!

مرت لحظات صمت، وقال أحمد وطن:

– الإنجليز رجعوا الجولف تانى.

– أيوه رجعوا، ما أنا عارف.

– وناوى تعمل إيه معاهم؟

– ولا حاجة... هاعمل إيه يعنى معاهم؟!

– تحاربهم.

ضحك ابراهيم ضحكة قصيرة وقال:

– أحاربهم ؟! بس أنا ماليش فى الحرب. ما انت عارف أنا كنت باعمل إيه.

– دى مش حاجة بسيطة. بالعكس، دى هتكون من أهم الحاجات فى حربنا معاهم. الحرب يا ابراهيم فيها حاجات كتيره غير القتال بالأسلحة. يعنى مثلا فيه التخطيط للحرب، وفيه تخريب أماكن العدو من جواها، وفيه التجسس. وأهو التجسس ده يعتبر سرقة. وبالضبط هو سرقة معلومات من العدو عن أى حاجة تخصه. يعنى كل واحد مننا هيحاربهم بالحاجة اللى بيعرفها. وبالنسبة لك أنت وزمايلك فيه حاجة أهم من سرقة الكُتُبه وهو أنكو عارفينها كويس وعارفين كل السكك اللى بتوصّل ليها.

– بس أنا سمعت أن الحكومة بتبعت ناس عشان الحكاية دى. ناس متدربة على السلاح وعالحرب.

– الحكومة تبعت اللى تبعته. لكن إحنا كمانلازم نعمل فرقة مقاومة شعبية من ولاد البلد اللى زيّك وزيى.

ضحك ابراهيم وهو يقول:

– زيك إيه يا أستاذ أحمد! ده أنا أعرف انك لسه ماتعرفش تمسك بندقية . ما تآخذنيش يعنى.

– اللى ما تعلمش يتعلم، وفى ظرف يومين تلاته. تعلم ضرب النار ورمى القنابل مش شُغله، ولا استعمال المدافع كمان. الحكاية زى ماقلت لك هتطول ولازم نستعد لها من الوقت. أنا هاجيلك بكره وتكون محضر لى الرجاله اللى حنبدأ بيهم.

– موجودين. وأجيبهم لك الليلة لو حبيت. بس أنا ما أقدرش أبدأ معاك قبل أربع خمس تيام.

– ليه يا ابراهيم؟!!

– عندى كام شوال فول سودانى عايز أبيعهم الأول، وبعدين أفضَى لك.

– طب ما تبيعهم كلهم بكره. أنا شفت ناس كتير متلمية عليك. يعنى لو كان فيه عشر تشوله كانوا اتباعوا.

مش على طول كده. البيع برضه له أصوله. الاشوله دى لو بعتها كلها بكره هيشتريها شوية عيال بخمسة ساغ الوقة وهيبيعوها بعشرة بعد كده. ولاد حرام ويعملوها.

– طيب يا ابراهيم. بيع الصبح. وبعد الظهر نتقابل.

– الله ينور عليك. كده كويس قوى.

*****

عندما دخل أحمد مكتبه فوجىء بياسمين جالسة إلى منضدته. رجعت بجسمها إلى الوراء وقالت :

– حمد الله عالسلامة يا أحمد ؟

لم ينبس أحمد وابتسم، ولم تمض ثوان حتى كان الاثنان متعانقين وظلا كذلك وقتًا غير قصير إذ لم يرد أى منهما ترك الآخر. لقد مرَّ على آخر لقاء بينهما ثلاثة أيام مروا كثلاث سنين، دُمرت المدينة خلالها وأحرقت وقُتل أربعة آلاف شخص وجُرح وشُرد آلاف غيرهم. فى مواقف سابقة مماثلة كان مجرد لمسه إياها يثير غريزته وكانت شهوانيته تظهر فى عينيه وسلوكه، لكن الفتاة دُهشت اليوم لعدم ظهور الاستجابات المعتادة منه.

قال وقد افترق جسماهما:

– اليومين اللى فاتوا كانوا صعبين علىّ جدًا. حصل فيهم حاجات ماكانش ممكن تحصل ولاحتى فى كابوس رهيب.

– أنا عارفه يا أحمد.

*****

عرفت الفتاة كيف تفرغ نفسه مما تراكم فيها على مدى الأيام القليلة الماضية. وجهت إليه الكثير من الأسئلة واستمعت إليه بانتباه وهو

يقص عليها تفاصيل ما حدث فى المدينة ويصف لها مشاهد القتل وجثث القتلى. لقد خرجت مع أبيها فى سيارته منذ ساعتين ورأت آثار الحرق والدمار وبعض العربات تنقل الجثث والجرحى فهالها ما رأت. لكنها لم تر أشخاصًا يحتضرون أو يخرجون النفس الأخير كما لم تسمع صرخات الألم أو نطق الشهادتين ولا رأت عيون الموتى زائغةً أو شاخصةً إليها فتُسبلها ولا شمت رائحة دمائهم الندية. قص عليها أحمد وطن كل ذلك كما قص عليها مشاهد الغرقى فى بحيرة المنزلة ثم أخبرها بأسماء القتلى من أصدقائه ومعارفه. وقالت بعد أن انتهى:

– هتجبلى الصور إمتى؟

– بكره الصبح انشاء الله.

– نظرت إلى ساعتها وقالت:

– طيب أمشى أنا الوقت عشان اتأخرت عليهم فى البيت.

– استنى أما أوصلك بالفسبا.

– العربية معايا. خليك انت.

وقبل أن تخرج قال لها:

– على فكره فيه حاجة عايز أقول لك عليها.

– خير يا أحمد.

فقال على الفور:

– أنا هاعمل فرقة مقاومة. يعنى هاجمع بعض شباب البلد وأخليهم يدربوا كويس وهاوفر لهم السلاح عشان نعمل حاجة.

نظرت الفتاة نظرة طويلة ثم قالت:

– فكره كويسه.

ثم قالت مستدركة:

– بس إنت شفت حجم القوات الفرنسية والانجليزية. إللى يشوفهم يقول دول جايين يحتلوا قارة كاملة مش مدينة صغيرة.

لم يرد فاستطردت:

– وأنا باقول لك كده مش عشان أعجزك لكن عشان تاخد بالك.

– أنا عارف ده كويس وعارف انهم جايين على شر. عشان كده هاكون حريص جدًا. بس مش هاتراجع.

– ممكن بابا يساعد فى حاجة أقول له عليها؟

– إوعى يا ياسمين. إوعى بابا يعرف حاجة. مش عشان حاجة لاسمح الله، بس مش عايز أورطه معايا.

– طب وده مش هيعطلك عن شغلك؟

– إطلاقًا ! ده أنا هاكتب أكتر من الأول كمان. فيه حاجات كتيره لازم تتكتب ولازم الناس تعرفها. وبالمناسبة... أنا عايزك انت كمان تكتبى.

– أنا يا أحمد؟! إنت ناسى إنى لسه باتدرب أو باترجم موضوعات عن مجلات أجنبية؟

– وانت هتفضلى تتدربى على طول؟ النهارده انتِ قدامك فرصة

كبيرة عشان تثبتى وجودك وتقدمى موضوعات لها وزنها. إبدئى انت بس وأنا هاساعدك.

وصمت قليلاً ثم قال:

- إيه رأيك تكتبى الموضوع ده: العدوان الغاشم.... على بورسعيد..... بعينىّ فتاة بورسعيدية!

ابتسمت الفتاة وقالت:

- ياه يا أحمد! العنوان جميل بس الموضوع خطير ومش سهل.

- شفتى ازاى؟! كده تكون البداية والا بلاش. يالله اتكلى على الله واكتبيه وهاتيهولى بسرعة عشان أشوفه وأبعتهولك مع موضوعى.

*****

٧ شارع الحميدى

كثرت النقود فى جيوب شباب المدينة المنتمين للطبقتين الفقيرة والمعدمة من تجارة الحبوب والغلال التى أخذوها من الشونة ومن تجارة البلوبيف والبسكويت والسجائر التى كان جنود الاحتلال يبيعونها ابتداءً من اليوم الرابع وقد نشط هؤلاء الشباب فى جمع أكبر كمية من هذه البضائع من الجنود أو فى شرائها من مواطنين آخرين بأثمان رخيصة ثم بيعها بأثمان مرتفعة فى شارع الحميدى. وفى اليوم الخامس للغزو فرض الغُزاة حظر التجول ليلاً فانتعشت تجارة الفول السودانى واللب والحمص لتسلية الناس فى ساعات لياليهم الطويلة. لم تكن محامص بورسعيد كافية لتلبية طلبات الأعداد الكبيرة من الزبائن فوُضعت المناضد فى الشوارع وفُرشت الملاء على الأرض وعليها أكوام عالية من الفول واللب.

كانت الحركة التجارية فى شارع الحميدى تنتهى فى الساعةالثالثة عصرًا تقريبًا لتحل محلها ألعاب القمار الشعبى مثل الثلاث ورقات والسيف والهنكر والحزام والمسمار، وقد تولى هذه الألعاب كبار السن وذوو العاهات الذين لم يستطيعوا مجاراة الشباب فى سرقة الغلال والحبوب من الشونة أو جمع البلوبيف والسجائر والبسكويت فكانت هذه الألعاب وسيلتهم لجذب جزء من النقود التى كانت فى جيوب الشباب، لكنهم فوجئوا أنه بنهاية كل يوم كانت كل النقود تؤول إلى جيوبهم ولا يتبقى شىء

منها مع الشباب، وقد حدثت عدة اعتداءات من جانب المفلسين على العجائز وذوى العاهات فاستأجر هؤلاء بعض «البلطجية» لحمايتهم.

ولأن بارات الإفرنج ومقاهيه الفاخرة كانت مغلقة فقد اضطرت نوال إلى نقل نشاطها إلى شارع الحميدى وقد تخلت عن البيانولا التى لم تناسب موسيقاها أمزجة زبائن الحميدى وعادت إلى ابتلاع النار ومضغ الزجاج. وفى اليوم الثالث لممارسة نشاطها فى هذا الشارع وبينما كانت تقذف فى الهواء بكرتى النار المثبتتين فى السيخين الحديدين صاح أحد المشاهدين ساخرًا:

– إنت عامله إيه يانوال من بعد المرحوم حسن؟

لم ترد المرأة واستمرت فى قذف كرتى النار والتقاطهما ووضعهما فى فمها فقال محمود الطاعون:

– أنا مستعد أعمل اللى حسن كان بيعمله.

فلمز الأول قائلا:

–اللى كان بيعمله هنا والا فى البيت؟

– هنا إيه يا حمار. أنا ما اعرفش إلا فى الألعاب البهلوانية اللى بتتعمل فى البيت. حريف فيها وحياة أمك.

ضج الجميع فى ضحك متواصل ولم يتوقفوا إلا على صرخة هائلة من محمود الطاعون لإصابته بكرة مشتعلة صوبتها نوال إلى وجهه بقوة ودقة. وضع الشاب راحتى يديه على وجهه وأخد يصرخ ويصيح:

– آه ياوشى. آه يابنت الكلب يا وسخه. يامومس يابنت الكلب.

– أنا اللى وسخه ياوسخ. طب خد دى كمان.

رفعت السيخ بالكره المشتعلة وأخذت تطوحه تطويحًا دائريًا فوق رأسها لتقذف به بقوة أكبر إلى وجه محمود الطاعون وكانت تنظر إليه فى تحدٍ وغيظ. لكن أحد الوقوف قال قبل أن تقذف بكرة اللهب الثانية:

– ماتقصرى الشر يانوال وتوقفى البتاعة اللى فى إيدك دى أحسن تيجى فى عيل من العيال الصُغيَّرة الواقفين دول.

توقفت نوال عن تطويح كرة اللهب، ثم وضعتها فى فمها وأغلقته عليها. صاح محمود الطاعون وقد ظهرت آثار النار فى صدغه الأيسر:

– امسكوها المجنونة بنت المجنونة دى. والله لأكون موريك يا نوال.

– كويس انك عرفت إنى مجنونة يابنِ عزيزه الخارسه، عشان تتقى شرى بعد كده وماتقلش كلمه علىَّ بلسانك الوسخ ده.

*****

عرف الدكتور يزدى بواقعة نوال مع محمود الطاعون فى شارع الحميدى فاستدعاها إلى عيادته وقال لها وهو يستقبلها بابتسامته وصوته المرح وعباراته المهذبة:

– أهلاً أهلاً يانوال. اتفضلى اقعدى اتفضلى. إيه ياستى.... إنتِ نسيتينى والا إيه؟ ما اشفكيش من ساعة وفاة المرحوم حسن؟!!

– أنساك ازاى يا دكتور؟! ده أنا لو نسيت الناس كلها مش ممكن

أنسى إنسانيتك وكرمك. بس أنا قلت ان مشاغلك كتيره خصوصًا الأيام دى.

– المشاغل مابتنتهيش يا نوال. إنت بس ابقى مرى أو اتصلى بالتليفون عشان تسمعينى صوتك. والله لو فيه عندك تليفون أنا كنت اتصلت بكِ بنفسى.

– انت أبو الواجب وكلك ذوق يادكتور.

– إلا قولى لى يا نوال.... إنت سبتى البيانولا ورجعتِ لألعاب النار دى تانى؟

ابتسمت وقالت:

مؤقت بس يا دكتور. البيانولا ما تنفعش اليومين دول. البسفور والبرنسات واللوفر قفلوا، والوقت مفيش إلا الحميدى.

– طب ما انت شفت إيه اللى حصل لك هناك.

ظلت صامتة فقال الدكتور بعد أن أخرج من محفظته ورقة بعشرة جنيهات:

– أنا عارف إن ظروف الأيام دى صعبة. خدى دى لغاية ما ربنا يفرجها عليك. خدى يا نوال خدى. ياستى اعتبريهم سلفه وابقى رديهم بعد كده.

مدت يدها وأخذت النقود وهى غاضة بصرها ثم قالت:

– ربنا ما يحرمناش منك يا دكتور ويخليك لأهل بورسعيد كلهم.

– ماتقوليش كده يانوال. أهل بورسعيد دول بركه وأفضالهم على كتير.

*****

ارتفعت منزلة الدكتور يزدى فى بورسعيد ارتفاعًا كبيرًا بعد الغزو للجهد الكبير الذى بذله لإسعاف المصابين. كان طبيبًا «حرًا» لا يعمل فى أى مستشفى حكومى لكن المحافظ طلب منه المساعدة فى علاج المصابين الذين توافدوا بالمئات على المستشفى الأميرى. لبى الرجل طلب المحافظ وكان أبرز الأطباء كفاءةً وإخلاصًا بشهادة أهل البلد وزملائه الأطباء أنفسهم أما عيادته التى كانت فى شارع الجمهورية فكانت تفتح أبوابها ابتداً من الساعة السابعة مساءً. كان زبائنها من أعيان المدينة وقد ازدادت أعدادهم بسبب التوتر العصبى الذى أصابهم أثناء المعركة وبعدها.

لم يستغل الدكتور ارتفاع مكانته لدى المسؤولين واحتياج الناس لعلاجه وأمواله فى نشر البهائية أو التبشير لها. اقتنع الناس تمامًا أن الرجل كان يفصل بين رسالته الطبية ورسالته اللاهوتية. فالأولى كانت مهنته التى لا ينبغى ألا يؤثر عليها أى شىء مهما كان والثانية كانت عقيدته التى عمل في الواقع على نشرها بين الناس لكنه لا يضحى بكل شىء فى سبيلها. وقد ارتاح المسؤولون لذلك فاعتمدوا عليه بدون تحفظ وأخذوا مشورته فى كل شىء يتعلق بالطب والجراحة فى المدينة.

كان الدكتور صديقًا قديمًا لقنصل فرنسا وكانت زوجته مادلين صديقة حميمة جدًا لزوجة القنصل. لم يكن القنصل وزوجته مع قوات الاحتلال لكن قادة هذه القوات كان لديهم معلومات عن الأصدقاء الذين يمكن التعامل معهم. ومنذ ذلك الحين كان وجود الدكتور يزدى ضروريًا كحلقة وصل بين المسؤولين وقوات الاحتلال لتسيير مصالح المدينة.

*****

٨ تضارب المشاعر فى نفس وطن السرجانى

رغم مشاغله الكثيرة كان الدكتور يزدى يقضى ساعة على الأقل مع أسرته بعد العيادة. كانت ياسمين عندئذ تتحدث معه عن أحوال المدينة بعد الغزو كما كانت تطلعه على ماتكتب. وفى مساء اليوم السابع للغزو قال الدكتور لإبنته قبل أن يتوجه إلى غرفته:

- عندى لك مفاجأة يا ياسمين.

- خير يابابا. على الله تكون حلوه!

- جدًا جدًا... موضوعك ياستى اتنشر امبارح فى الجورنال.

- أوه!!! مش معقول!!!! كده على طول!! الجورنال مع حضرتك؟!

- أيوه معايا.

وضع شنطته السمسونايت على منضدة الصالة وفتحها وأخرج الجريدة منها.

تناولت ياسمين الجريدة من أبيها ونظرت بلهفة فى الصفحة الأولى. ابتسم الأب وقال:

- عايزه أول موضوع تكتبيه يتنشر لك فى الصفحة الأولى يا ياسمين!! الموضوع جوه فى الصفحة التالته.

- تالته تالته يابابا. إنشا الله يكون فى الصفحة العاشرة.

فتحت ياسمين الجريدة على الصفحة الثالثة وقرأت العنوان بصوت عال: «العدوان الغاشم على بورسعيد بعيون فتاة من بورسعيد». دخل الأب إلى غرفته بينما جلست ياسمين على الكنبه وشرعت فى القراءة. وعندما خرج الأب مرتديًا بيجامته كانت ياسمين قد قرأت الموضوع مرتين. فقالت والفرحة بادية على وجهها:

- تصور يابابا! مفيش لا حذف ولا تغيير. الموضوع اتنشر زى ما كتبته بالضبط. غيروا فى العنوان بس. كتبوا بعيون فتاة من بورسعيد» بدل من « بعينىّ فتاة بورسعيدية».

- أُمال يا ياسمين. ده انت أستاذة كبيرة. يبقى ازاى يحذفوا أو يغيروا؟ وأنا عايزك بقى تكتبى لنا موضوع عن دور مستشفيات بورسعيد فى المعركة. بس من غير ذكر أسماء.

- إزاى بقى يابابا؟! ده أنا لازم أشيد بدورك العظيم. هو فيه واحد يقدر ينكره؟! ومادام دى هى الحقيقة يبقى الواحد ليه مايسجلهاش؟

- برضه مفيش داعى تذكرى أسماء. إنتِ لسه فى أول الطريق ومفيش داعى تفتحى على نفسك أبواب مش لازم تتفتح.

- زى ما تحب يابابا. بس أنا عايزاك بقى تزودنى بمعلومات عن الموضوع ده.

- إنت تروحى للمستشفيات وتعرفى كل حاجة بنفسك. الناس هناك عارفينك وأكيد هيساعدوك.

*****

حصل أحمد وطن على نسخة وقرأ عنوان موضوع ياسمين فى الصفحة الثالثة. قلب صفحات الجريدة لكنه لم يعثر على أى من موضوعيه. رجع إلى موضوع ياسمين وقرأه فسُرَّ كثيرًا لنشره بدون حذف أو تغيير إلا فى العنوان. ثم اتصل برئيس التحرير ليسأله لِمَ لَم يُنشر موضوعاه أو أى منهما:

– أهلاً يا أحمد. إزَّى الأحوال عندكم؟

– حال البلد صعبه قوى يا أستاذ مصطفى.

– معلش. شده وهتزول بإذن الله. لكن إحنا عايزين البطولات تستمر وعايزينك تكتب عن البطولات دى وعن كفاح الشعب ضد الغزاه.

– إنشاء الله يا مصطفى بيه.

– إنت شفت موضوع ياسمين؟ نشرناه فى الصفحة الثالثة.

– أيوه شفته.

– موضوع رائع. بنت موهوبة صحيح ومستقبلها هيكون عظيم. واحنا بنهنيك كمان لأنها اكتشافك.

– وانشاء الله هتشوفوا منها حاجات كويسة قوى فى الأيام اللى جايه دى.

– طيب يا أحمد. عايز حاجة من عندنا هنا ؟

– شكرًا يا مصطفى بيه. لوفيه حاجة هابقى أقول لك عليها.

وقال بسرعة قبل أن يضع محدثه السماعة:

– باقول لسيادتك إيه يا مصطفى بيه! الموضوعين بتوعى ماتنشروش ليه؟

– آه ..... شوف يا أحمد. انت عارف ان أى موضوع عن بورسعيد لازم يتعرض الأول عالمسؤولين، يعنى عالرقابة. وياريت عالرقابة وبس. ده مجلس قيادة الثورة لازم يطلع عليها بنفسه. وبصراحة رفضوا يعطوا موافقة على نشر الموضوعين دول. وبينى وبينك عندهم حق. العالم يا أحمد كله متجه بأنظاره لبورسعيد اللى أصبحت رمز للبطولة والكفاح والتضحية فمش معقول نيجى احنا ونقول لهم إن أهلها بقوا لصوص حبوب ودقيق ولعيبة قمار وبلطجية. أنا عارف إن فيه حاجات زى دى حصلت لكن دى صور جزئية وحالات فردية ومش هى الصورة العامة للبلد أو مش هى الصورة اللى الناس لازم تشوف بورسعيد عليها. وبعدين يا أخى انت ابن بورسعيد ومفروض انك أول واحد ترسم صورة حلوه عنها وتجسد لنا كل المعانى الجميلة اللى تحببنا فيها. والاً انت مش معايا فى كده؟...... يالله بقى يابطل. ورينا همتك كده واكتب لنا كام موضوع ورا بعض. وتأكد ان الموضوعات اللى هتكتبها ممكن تكون موضوعات عالمية. يعنى ممكن صحف تانية فى الخارج تشترك معانا فى نشرها أو تنقلها عننا.

بعد انتهاء حديثه التليفونى خرج أحمد إلى الصالة حيث كان أبوه وأمه وأخته يجلسون وأمامهم على المنضدة أطباق الفول السودانى واللب. وضعت الأم طبقًا فى حجرها حتى تتناول محتوياته بسهولة. وكان الأب أقربهم إلى الراديو وقد مال برأسه عليه وتغضن وجهه وضاقت عيناه لالتقاط أكبر عدد من كلمات نشرة أخبار من وسط تشويش قوى وموسيقى غير مرغوب فيها. صاح الرجل فى زوجته وقال:

– استنى شوية يا سميره الله يخليك. بطلى قرقزة بقى. مش كفاية الشوشرة اللى فى الراديو!

فقالت الزوجة وهى تنقل الطبق من حجرها إلى المنضدة:

– أهو. وهو يعنى فيه حاجة جديدة فى الراديو؟! ماهو اللى بيقولوه بيعيدوه.

– مفيش حاجة جديدة ! لكن فيه كلام جميل عن بطولات البلد.

فقالت إبنته منى:

– ماقالوش كام ماتوا يابابا؟

– اختلفت التقديرات.

– وتقدير حضرتك كام؟

– اسألى أخوك. هو اللى كان بيصور المقتولين.

نظرت منى إلى أخيها فقال:

– عدد كبير جدًا. يعنى...... يطلعولهم تلات أربع تلاف.

– كم؟ أربع تلاف بنى آدم؟!!

– أيوه أربع تلاف بنى آدم !

– مش معقول! العدد ماهول يا أحمد، وما يصدٌقش

– عشان انت كنت مستتة فى البيت وماشفتيش إيه اللى كان بيحصل بره. لو كنت بس شفتى القطط....

قاطعه الأب صائحًا ورافعًا ذراعه اليسرى:

- ش ش . إستنى شويه يا أحمد. إذاعة تانية أهى فيها تعليق هايل.

مال برأسه على الراديو ثم انفرج وجهه عن ابتسامة كبيرة، وقال لزوجته:

- قومى يا سميره اعملى لى فنجان قهوة، خلى دماغ الواحد تمخمخ مع الكلام الحلو ده.

فقالت الإبنة:

- خليك انت ياماما . أنا اللى هاعملها. أعملك فنجان انت كمان يا أبيه:

- لأ يا منى. أنا خارج الوقت.

*****

كان وطن السرجانى يعمل فى شركة تعتمد على المصالح الإنجليزية. وإبان احتدام الأزمة بينهم وبين جمال عبد الناصر انتابه ضعف الميل إليهم الذى لم يكن سببه الأول فى الواقع المصالح أو المنفعة الاقتصادية بل إعجابه بهم الذى تكون بمعاشرته لهم عن كثب واكتشافه فيهم فضائل عدة أهمها الأمانة والجدية والانضباط والرحمة. لذلك ذُهل أيما ذهول عندما رأى ما فعلوه بمدينته فى الأيام القليلة الماضية.

كان يعرف أن المدينة سلحت تسليحًا بدائيًا ولابد أنهم عرفوا تلك الحقيقة، لذلك ما كان ينبغى لهم أن يأتوا بهذا الحجم من الأساطيل

والطائرات والدبابات والمدرعات والمدافع الثقيلة والخفيفة، لكن الشيء الذي لا يُصدق هو أنهم استعملوا كل هذه الأسلحة بشراسة وبغير تمييز، فكان كل هذا الدمار وكل هذا القتل.

أحضرت منى صينية عليها فنجال قهوة وبعض قطع البسكويت فقال الأب:

- شكرًا يا منى. بس أنا مش عايز البسكويت ده.

- ده عشان ماما.

تناولت الأم قطعة وأخذت تمضعها ببطء وتلذذ. وقالت:

- فيهم الخير الانجليز دول والله. بعد ما أكلُونا العلقة السخنة فرقُّوا علينا بسكويت وبلوبيف وحاجات حلوه كتيره. وعلى رأى المثل: ضربنى وبكانى وشبعنى وهنانى.

- إنت هتألفى من دماغك يا سميره. هو فيه مثل برضه كده؟

- أهو كلام يأدى الغرض وخلاص يا وطن. يعنى احنا شاريينه بالفلوس؟!! وبعدين احنا فى حرب والواحد يقول اللى عايز يقوله.

لم يرد وطن على زوجته وتحول عنها إلى المذياع وجعل يدير مفتاح الموجات ببطء شديد، وتوقف عند أغنية فايده كامل الجديدة «دع سمائى فسمائى محرقة» لكنه ابتعد قليلاً عن الراديو لقوة صوت المغنية وحماسها المفرط.

*****

٩ أسـرجنـديـين

امتدت الحركة التجارية والأنشطة الأخرى إلى شوارع غير شارع الحميدى. فُتحت بعض محلات الملابس والأحذية والخردوات ودكاكين الخياطة والمكوى والنجارة وإصلاح الأحذية لكن الكازينوهات والأندية ودور السينما ظلت مغلقة فازداد نشاط الفرق الشعبية وانتشر لعب الكرة «الكياس» فى الشوارع والحوارى ونُظمت لها مسابقات وبطولات بجوائز كبيرة كما كثرت المراهنات عليها.

مر الأسبوعان الأولان فى هدوء وسلام جابت أثناءهما الدوريات الإنجليزية والفرنسية المدينة من أقصاها إلى أقصاها فى شوارعها وحواريها وأزقتها بغير مضايقات أو تحرشات من المواطنين، بل إن الأطفال والصبية كانوا يصافحونهم ويتحدثون معهم بمفردات مفهومة للطرفين مثل شوكليت وسيجاريت وبسكيت وشونجم، ولم يبخل عليهم الجنود بأى شىء لاسيما الجنود الإنجليز الذين كانوا أكثر استجابة وألفة وابتسامًا وغمزًا بعيونهم بعكس الفرنسيين المتوترين.

وسط هذا الجو الودى السعيد نشأت قصة حب بين ضابط انجليزى وفتاة يونانية. وقد اشتهرت هذه القصة ليس لأن أحد طرفيها كان ضابطًا إنجليزيًا بل لأن الطرف الآخر كانت أجمل فتيات بورسعيد وأبرعهن فى فنون الرقص الغربى الحديث. وأصبح مشهدًا مألوفًا أن

يأتى «داڤيد» بسيارته إلى صيدلية دمار التى كانت مارى تعمل فيها ويأخذها إلى خارج المدينة ولا يظهران مرة أخرى إلا قبل الغروب، وكان «داڤيد» يدخل معها إلى حوش منزلها حيث كانت فترة وداعهما اليومية تطول أحيانًا إلى عشر دقائق.

*****

فى تمام الساعة الرابعة من بعد عصر يوم من أيام الأسبوع الثالث كان الآباء كالعادة يشترون حاجيات منازلهم قبل حلول الحظر والصبية والأطفال يلعبون الكرة «الكياس» والشبان يلعبون القمار والكثير من هؤلاء وأولئك يشاهدون الألعاب البهلوانية وكان أفراد الدوريات يسيرون فى شوارع المدينة وحواريها يوزعون أشياءهم الجميلة بابتساماتهم الحمراء وغمزاتهم الزرقاء والخضراء فإذا ببعض الصبية يعترضون دورية إنجليزية من خمسة أفراد فى شارع الحميدى المزدحم. عندئذٍ أخرج أفراد الدورية ألواح الشيكولاته وعُلب الشيكليز ووزعوها على الصبية. لكن ماهى إلا لحظات حتى أقبل عدد كبير آخر من الصبية وتكالبوا على الجنود الذين أبدوا أسفهم لنفاد ما معهم من شيكولاته وغيرها، رافعين أياديهم ومرددين "Finish" ، "no more chocolate" ، "no more chewing gum" ، "Sorry".

انضمت أعداد أخرى إلى المطالبين بالشيكولاته وأحاطوا بالدورية بدائرة من أجسامهم، ثم ظهر عدد كبير من الشبان واقتربوا من الدائرة وأخذوا يصيحون «شوكليت» « سيجاريت» ثم لم يلبثوا أن اشتبكوا بالأيدى فما كان من أفراد الدورية الإنجليزية إلا أن اخترقوا الدائرة لفض شجار الشبان وإعادة النظام والأمن إلى الشارع. لكن أعداد الشبان لم

تفتأ تزداد حتى ربوا على السبعين شابًا فتشتت أفراد الدورية وسطهم ولم يستطيعوا عمل شيء إزاء هذا الشجار فصدرت الأوامر من صافرة عريفهم بترك الشجار والانضمام إليه بسرعة. إنضم إليه ثلاثة فقط فاستمر يصفر ولما لم يأت خامسهم جن جنونهم فأطلقوا عدة أعيره نارية في الهواء وجروا فى كل اتجاه لكنهم لم يعثروا عليه. استمروا فى إطلاق الأعيرة النارية فى الهواء حتى وصلت دوريات أخرى وبعد أقل من ربع ساعة كان يجتاح المدينة أعداد هائلة من الدبابات والعربات المصفحة ونزل منها مئات الجنود الذين اقتحموا المنازل وفتشوا الغرف والمطابخ والحمامات ومساقط النور والأسطح وعشش الدواجن وأبراج الحمام. دخلوا المحلات المفتوحة وكسروا أبواب المحلات والمخازن المغلقة واقتلعوا أغطية البلاعات وفتشوا فى المجارى وأخيرًا أخذوا أكثر من خمسمائة شاب معهم إلى معسكراتهم.

عُرف بعد ذلك أن حادث اختطاف جندى الدورية الإنجليزية فى شارع الحميدى تزامن بالثانية مع حادثى اختطاف آخرين أحدهما لجندى فرنسى فى شارع التجارى والآخر لجندى انجليزى آخر فى شارع عدلى وقد استطاع هذا الأخير الفرار لكن بدون بندقيته وانضم إلى زملائه الجنود المنتشرين فى الشوارع.

استمرت عمليات البحث عن الجنديين طوال الليل وأشرقت شمس اليوم التالى على شوارع خالية إلاَّ من عربات مصفحة أفرادها ذوو وجوه عابسة تتطلع فى كل اتجاه و تمسك بمدافع رشاشة والأصابع على أزنادها.

بعد أن اجتاحت الدبابات والعربات المصفحة المدينة عقب عمليات

الاختطاف أسرع الأهالى إلى بيوتهم ولزموها. وفى الساعة الثامنة مساءً سمعوا من الإذاعة المصرية خبر الاختطاف وقد تكرر إذاعته مرة كل عشر دقائق تقريبًا مع الأناشيد والأغانى الوطنية والتعليقات الحماسية التى أكدت أن جهاد أبناء بورسعيد الباسلة بدأ بعملية جريئة ومخطط لها تخطيطًا ذكيًا. وبعد يومين نشرت جديدة الأنباء تحقيقًا لأحد مراسليها فى بورسعيد لم تكتب اسمه عن تلك العملية الجريئة التى نفذها بعض شباب المدينة الذين ما فتئوا منذ أن وطئت أقدام المستعمر أرض مدينتهم يفكرون فى مقاومته والنيل منه. وقد أشارت الجريدة إلى حالة اليأس فى المدينة بعد الغزو مباشرة وبدت أنها قد استسلمت تمامًا للأمر الواقع فانصرف أهلها إلى تدبير قوتهم والعيش راضين فى كنف المستعمر. وكان انغماس الكثير منهم فى لعب القمار ومشاهدة البهلوانات والأراجوزات من مظاهر هذا الاستسلام. لكن عمليات الاختطاف الجريئة أثبتت أن هذا لم يكن إلا قشرة رقيقة أخفت تحتها المعدن النفيس لهذا الشعب العظيم وأنه بينما كانت الابتسامات تعلو الوجوه فإن الدماء كانت تغلى فى الأبدان وأن ذكرى قتل الأقارب والأصدقاء لم تنفك تطارد العقول وتلهب القلوب. لذلك اشترك فى هذه العمليات أكثر من مائتى شاب فى ثلاثة أماكن متفرقة فى لحظة واحدة، وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على الإرادة الجماعية لشعب بورسعيد على تحرير مدينته. واختتم المراسل تحقيقه قائلاً إنه كان يتمنى أن ينشر أسماء مخططى هذه العملية لكنه يخشى عليهم إذ مازالوا موجودين بالمدينة التى تسيطر عليها القوات الغازية ومازال أمامهم عمليات مقاومة كثيرة سيقومون بها الواحدة تلو الأخرى إلى أن يجلو آخر جندى عن أرض الوطن.

نُشر تحقيق ياسمين عن دور مستشفيات بورسعيد فى المعركة فى نفس العدد الذ ى نُشر فيه التحقيق عن عمليات الاختطاف الجريئة وكانت ياسمين تعرف أن أحمد هو الذى كتبه. ومن ناحية أخرى أخبرها أبوها وهو مستاء أنه وصلته معلومات أن أحمد وطن كان أحد المشاركين فيها. فقالت ياسمين وهى تبتسم:

- حضرتك خايف عليه والاً متضايق منه؟

- أنا خايف عالبلد يا ياسمين. انت عارفه إنى حلقة الاتصال بين المسؤولين فى بورسعيد وقوات الاحتلال، لكن الأمور اتعقدت قوى بعد عملية الاختطاف دى ومش عارف هتوصل لإيه؟

كان الدكتوريعتقد أن المفاوضات الجارية فى الساحة الدولية ستنتهى بجلاء القوات الإنجليزية والفرنسية عن المدينة وأن ذلك يمكن أن يتم دونما إراقة المزيد من الدماء، لكن أعمال العنف هذه ستفسد المفاوضات وبالتالى لن يستطيع أحد التنبؤ بما سيحدث بعد ذلك.

وقال الرجل وهو يهز رأسه أسفًا:

- أنا خاب أملى فى الولد ده. كنت فاكره أعقل من كده. عشان كده أنا عايزك تقللى تعاملك معاه. وإذا كان عالشغل اللى بتعمليه أنا ممكن أوصله لرئيس التحرير وهو يراجعهولك.

- إللى تشوفه حضرتك.

ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة يحدوها رجاء كانت تعرف أن أباها لن يخيبه:

- بس ممكن أوديله مسودة الموضوع ده عشان يشوفها؟ والله

يابابا فيه تفاصيل وحاجات كتيره عايزه أتناقش معاه فيها. معلش يا بابا. أنا عندى أمل إن الموضوع ده هيكون أحسن من الاتنين الأولانيين وهيعمل حاجة كويسه لى.

– طيب، قدامك ساعة واحدة عشان تروحى وترجعى. ومفيش داعى تقولى له اننا اتكلمنا عنه.

*****

كان موضوع ياسمين الجديد عن الأجانب المقيمين فى بورسعيد وقت العدوان ورأيهم فيما حدث. أبدى أحمد وطن إعجابه بالموضوع ثم اقترح عليها أن تتحدث مع بعض اليهود المقيمين فى المدينة.

لمعت عينا الفتاة وقالت:

– صح يا أحمد! فكره هايله جدًا. وبكده الموضوع هيوصل لذروة الإثارة.

– إنت تعرفى حد منهم؟

فقالت على الفور:

– استير، بنت مسيو باروخ. تعرفها؟

– حد فى بورسعيد مايعرفهاش؟!

– دى صاحبتى جدًا، وهاخليها تجيب لى اتنين تلاتة من قرايبها ومعارفها وأعمل معاهم الأحاديث، وهاوصيها يكون فيهم واحد عجوز وواحد صغير. شاب يعنى.

- صحفية يا ياسمين من راسك لساسك.

- ها ها ها ها.

ظلت الفتاة تقهقه حتى أدمعت ثم قالت وهى تكفكف دموعها:

- حلوه يا أحمد من «راسك لساسك». أول مره اسمعها والله. أنا فهمت المثل على بعضه. لكن مش واخده بالى من كلمة «ساسك» دى.

- ولا أنا والله. ويمكن أمى نفسها ماتعرفهاش... المهم .... عايزك بقى تشوفى استير وقرايبها بسرعة وبعدما تخلصى الموضوع تجيبيهولى أشوفه وابعته.

- طب نشوف إيه اللى انكتب لغاية دلوقت؟

- وهو كذلك. ابدئى.

مكثا حوالى نصف ساعة فى الموضوع وبعد أن انتهيا قال لها:

- يبقى فاضل الجزء بتاع اليهود.

- حالاً هاخلصه.

وضعت الأوراق فى حقيبتها، وقالت قبل أن تنهض:

- آه ! على فكره يا أحمد. إنت كان لك صلة بالجماعة اللى خطفوا العساكر التلاتة؟

لم يبد أنه فوجىء بالسؤال وقال بثقة:

- لى صلة بهم.

– لأ يا أحمد قل لى بجد. إنت كان لك دور فيها؟

فقال بدون تردد:

– أيوه لى دور. أنا اللى خططت وأنا اللى جمعت العدد الكبير من شباب المدينة وخلتهم ينفذوها بالشكل اللى سمعتوا عنه. قعدنا عشر تيام نتدرب عليها وأهى نجحت والحمد لله.

ظلا صامتين ثم قال:

– إيه يا ياسمين؟! أنا افتكرت انك عارفه. ثم أضاف وهو يبتسم: وكنت منتظرك تهنينى.

– العملية ذكيه وشجاعه بصحيح. الناس اتفاجئوا بيها. لكن المفاجأة الكبيرة انك العقل المدبر ليها.

– أنا قلت ان ده مش هيكون مفاجأة لك انت بالذات. إنتِ نسيتِ إنى قلت لك إنى هاتصل بناس واعمل معاهم فرقة مقاومة؟ ساعتها والله ما حد كان يعرف إلا أنت. والوقت برضه انتِ الوحيدة اللى عرفت إن أنا اللى عملت العملية دى.

– إنت صحيح قلت لى كده، بس أنا افتكرت ساعتها إنكوا هتعملوا حاجات بسيطة يعنى تقوموا بمظاهرات أو تعلقوا يفط أو تكتبوا كلام عالحيط، أو بالكتير تلقُّوهم بالطوب.

فقال وهو يبتسم:

– وأنا هاعمل شُغل العيال ده برضه؟!

قهقهت ياسمين ثم قالت:

- لأ العفو والله ما كانش قصدى!

ثم أضافت:

- وبعدين ماهى الحاجات دى ممكن تجيب نتيجة برضه!

فقال فجأة:

- وبابا ، كان رأيه إيه؟

- كان عارف إنك أنت اللى كتبت المقال، وكمان قال لى انك على علاقة برجال المقاومة اللى نفذوا العملية لكن ماخطرش بباله انك أنت اللى خططت لها ونفذتها.

- المهم كان رأيه إيه؟

- هو خايف بس إن العنف ممكن يخلى الانجليز والفرنسيين يعندوا وما يخرجوش.

- ده كان رأى بابا برضه. أبويا أنا. المهم بقى، رأيك انتِ إيه؟

- أنا بس خايفه عليك.

وضع راحة يده على ظهر يدها ثم قبضها بقوة وقال:

- ماتخافيش يا ياسمين. أنا محرص لأبعد الحدود.



فاروق السنبارى ينضم للمقاومة

تأججت نار الوطنية فى صدور الشباب بعد نجاح عملية خطف الجنود الثلاثة فاندفعوا يلتحقون بصفوف المقاومة، لكن كان عليهم قبل أن يُقْبَلوا، وحمايةً لصفوف المقاومة من أى اختراق لقوات الاحتلال لها أن يمروا بثلاث مراحل. المرحلة الأولى كانت فى المقاهى حيث يجلس زعماء المقاومة كزبائن عاديين ويكتشفون من كانت عنده رغبة صادقة فى الكفاح ضد الغزاة، وتمثلت المرحلة الثانية فى مقابلة زعماء المقاومة لهؤلاء الأشخاص خارج المقاهى للتأكد من وطنيتهم وصلاحيتهم للقتال ثم بعد ذلك يتدربون تدريبًا جيدًا على استعمال مختلف أنواع الأسلحة المتاحة وعلى فنون القتال المختلفة وخطف الجنود واقتحام المعسكرات وهذه الأخيرة كانت أمرًا صعبًا للغاية رغم توفر الكوادر الجاهزة التى تكونت أساسًا من لصوص المعسكرات القدامى الذين أقنعهم إبراهيم خرشوم بالانضمام للمقاومة وقد وافقوا بنزعات مختلفة تراوحت بين الوطنية الصادقة، والمغامرة المحضة، والحنين القديم لسرقة تلك المعسكرات التى كان لها بريق يختلف عن بريق سرقة بيوت المدينة أو محلاتها.

*****

استطاع مسعد المجايرى إقناع إبن زوجته فاوروق السنبارى أن

ينضم إلى المقاومة لأنها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها أن يحصل على حكم مخفف أو حتى إلغاء أى عقوبة إن هو حقق بطولة ضد المعتدين. أخبره أن السبيل إلى الانضمام لصفوف المقاومة هو مداومة الجلوس فى أحد المقاهى الكبيرة المعروفة ولعن الإنجليز والفرنسيين، والاشادة بالوطن وإبداء استعداده لفدائه بالروح والدم. فإن فعل ذلك فسيقابله شخص بعد يومين أو ثلاثة ويتحدث معه وتبدأ بعد ذلك إجراءات انضمامه إلى المقاومة وتدريبه.

ظل الشاب عشرة أيام يتكلم بدون انقطاع وبعاطفة شديدة عن حب الوطن، وضرورة الدفاع عنه، إلخ. وفى اليوم الحادى عشر صاح فى المقهى بغضب شديد:

– أنا عايز أعرف إن كان فيه هنا حد من بتوع المقاومة والاّ لأ! إن كان موجود يورينى وشه ويدلنى إزاى أبقى فى المقاومة.

لم يرُد إلا رجل طاعن فى السن لا يُعتقد أنه فى المقاومة:

– يابنى دخول المقاومة ما يبقاش بالشكل ده. دى حاجة خطيرة ولازم لها خطوات.

– طب ما أنا ياحاج بقى لى عشر تيام هنا. باتكلم وماحدش رد على. بِزِمتك انت شفت حد عنده وطنية زيِّى والاّ عاوز يحارب الانجليز زيِّى؟!

– لأ. بصراحة لأ.

– طب أُمال إيه بقى ؟ هى الوطنية كمان معمولة لناس ناس؟!!

*****

كان فاروق السنبارى لايزال فى ثورة غضبه عندما صاح فى وجه أمه أمام زوجها:

– يعنى انت وجوزك بجلالة قدركم مش لاقيين لى طريقة أدخل بها المقاومة دى؟ قدامكم لغاية بكره، وإلا هطربأ الدنيا على دماغكم.

ألحت الأم على زوجها أن يبذل مساعيه لضم فاروق إلى صفوف المقاومة عن طريق أحد زعمائها الذى كان صديقًا له. وجد مسعد المجايرى صعوبة بالغة فى إقناع الصديق أن فاروق السنبارى قد تغير تمامًا وأصبح شخصية مختلفة. أخبره أنه أصبح مطيعًا له ولأمه وأنه يصلى الفرض حاضرًا. ولابد من الحفاظ على كل تلك المكاسب بتحقيق رغبة الشاب فى الدفاع عن وطنه. وما عليهم إلا أن يختبروه أولاً فإن تأكد لهم صدقه وجديته قبلوه.

اجتاز فاروق بفضل حماس الأيام العشرة وببعض المساعدة من صديق زوج أمه كل المراحل المؤهله للانضمام للمقاومة. وقد وُضع فى قائمة محمود المان الذى ما إن قرأ الإسم حتى صاح بصوته الناعم وبلهجته القاهرية المهذبة:

– إيه ده يا أستاذ أحمد؟! إنتوا جايبين لى فاروق السنبارى؟! إنتوا ما تعرفوش الولد ده والا إيه؟!

- معلش يا محمود. أهو دوره إجه فى قايمتك وخلاص.

- لأ آسف يا أستاذ أحمد. أنا لا يمكن أقبله معايا. إذا سمحت شيله من قايمتى.

- الوله بقى راجل، وربنا تاب عليه. وكمان جربناه كويس وما أخدنهوش إلا لما تأكدنا انه بقى إنسان تانى خالص.

- برضه أنا اسف يا أستاذ أحمد. أنا مش ممكن أقبله معايا. خليه فى القايمة اللى بعدى.

- بكده هنكسر نظام القبول فى القوائم. إحنا بنضم بالدور. عشان مايكونش فيه خيار وفقوس. وانت عارف كده كويس يا محمود.

- خلاص اعفونى خالص، لو سمحتم.

- لوكنت بتقولها من قلبك أنا كنت عفيتك. خليك يا محمود إذا سمحت.

نظر الشاب الخجول إلى أحمد وطن نظرة عتاب وقال:

- كده برضه يا أحمد تحطنى فى الموقف المحرج ده؟

- معلش يا أبو طه. لازم ننسى الماضى واللى حصل فيه. المعركة دى فرصة كبيرة عشان ناس كتيره تكفر عن أعمالها الوحشة اللى عملتها قبل كده.

صمت أحمد وطن قليلاً ثم استطرد قائلاً:

- يالله يا حوده يالله. قوم شوف شغلك مع العيال اللى معاك دول. قوم يالله.

نهض محمود المان دون أن ينبس وقبل أن ينصرف قال له أحمد:

- هو فاضل لك كام واحد وتكتمل قايمتك؟

- أربعة.

- يعنى فاضل لك تلاته غير فاروق. بكره إنشاء الله هيكونوا عندك.

*****



ليليان زوجة الدكتور يزدى تأخذ موقفًا

عاشت ياسمين فى كنف ثراء أبيها العريض ومكانته المرموقة وثقافة أمها الاجتماعية. لبُى الأب والأم كل رغباتها المادية ومن بينها سيارة باكارد كانت الوحيدة فى بورسعيد كما اصطحباها فى عطلاتها الصيفية إلى أميريكا وأوروبا وبيروت. لكنهما ربياها أيضا على الجدية وتحمل المسؤولية وقد ظهرت آثار ذلك عندما التحقت بالجامعة الأمريكية وعندما عملت فى الصحافة.

مرت ياسمين بثلاث تجارب هذا العام، كانت أولاها علاقتها بأحمد وطن. ومع أن هذه العلاقة قد تطورت إلى علاقة عاطفية فإن الفتاة كانت متحفظة فلم تندفع معه لتطويرها إلى الشكل الذى كان يرغبه ويتمشى مع طبيعته الحسية.

التجربة الثانية كان اضطلاعها بكتابة موضوعات صحفية كبيرة وجادة فى صحيفة «الأنباء». كانت صغيرة على هذا الإنجاز لكن ثقافتها ومعرفتها لعدة لغات وظروف الحرب فى بورسعيد ومساعدة أحمد وطن لها كانت عوامل لا يستهان بها فى نجاحها. كانت تقضى جزءًا كبيرًا من نهارها معه ودارت معظم أحاديثهما حول موضوعاتها بالإضافة إلى ما كان يصدر منه من عبارات عاطفية قليلة لم تكن تخرج قط عن اللياقة وكانت سعيدة بها، لكنه اعتبرها غير كافية للتعبير عن مكنون صدره نحوها.

أما التجربة الثالثة فكانت الحرب. لم تتعرض ياسمين بطبيعة الحال لأهوالها إذ كانت تسكن فى حى الأجانب الراقى الذى لم يتعرض للقصف أو الحرق لكنها كانت فى المدينة طوال مدة الغارات التى استمرت عدة أيام. ومع أنها لم تر عمليات القتل فإنها رأت المبانى المدمرة والمحترقة ومئات الجرحى كما رأت بعضًا منهم يحتضر أثناء قيامها بعمل موضوعها عن المستشفيات.

كانت ياسمين تخبر أمها بكل تحركاتها وكلامها مع أحمد وطن باستثناء العبارات العاطفية والقُبلات. وقد لاحظت الأم تعاظم مكانة الشاب فى حياة إبنتها بشكل، لا يبرره حاجة البنت إليه لمساعدتها فى موضوعاتها الصحفية، قالت لها بعد مكالمة تليفونية معه استمرت نصف ساعة.:

– ياسمين. إجلسى، بدى احكى معك.

جلست ياسمين قبالة أمها وكانت تمسك بأوراق موضوعها الجديد فى يديها فوضعتها وقالت:

– أيوه يا ماما خير؟!!

– أنا ما بريد أتطفل عليك. لكن ممكن تحكّى لى شو عم بتحكوا فيه غير العمل..... أقصد انت وأحمد؟

فوجئت ياسمين بالسؤال فقالت بعد فترة صمت قصيرة:

– إيه يا ماما اللى هانتكلم فيه؟ مفيش حاجة طبعًا غير الكلام فى الموضوع اللى باكتبه. وبعدين ما انا باقولك على كل حاجة بنتكلم فيها وعلى أى مكان بنروحه.

- ياسمين. أنا إمك وبارمقك مليح، وبصراحة أنا حاسه إنك عم بتهتمي بيه بشكل غير عادى فى الفترة الأخيرة!

فقالت ياسمين وهى ترفع أوراق موضوعها:

- ياماما انت مش عارفه ان الموضوعات اللى باكتبها دى هى كل حياتى الوقت وان أحمد له دور كبير فيها؟

اقتربت الأم من إبنتها ومسكت يدها برقة ثم قالت:

- يعنى مافى إشى جديد بيناتكن؟

فوجئت ياسمين مرة أخرى بسؤال أمها فاحمر وجهها ونظرت إليها بعينين حائرتين لم تلبث أن خفضتهما مع وجهها دون أن تنبس فقالت الأم وهى تحتضنها:

- ياسمين. أنا إمك. وحاسه بيكى. وانت لما تحكى لى عن أى إشى فتأكدى إن مافى حدًا فى الدنيا عم بيعرفه. ولا حتى البابا.

نظرت ياسمين إلى أمها وعلى وجهها ابتسامة خفيفة ثم خفضت وجهها ثانية لكنها ظلت صامتةً:

- فقالت الأم بعد فترة تفكير:

- طب وهو؟ أقصد موقفه منك..... وشعوره من ناحيتك؟

- مره واحده بس قال إنه بيحبنى. وبعدها ما اتكلمناش خالص فى الموضوع ده.

فقالت أمها بنبرة جادة:

– عبر عن الحب بالحكى فَأَط.؟

خرجت ياسمين من حالة الخجل التى تلبستها وضحكت لتظهر لأمها أن الموضوع أقل خطورة مما فكرت فيه وقالت:

– أحمد شاب خجول وكويس جدًا ياماما. ومش ممكن يعمل حاجة أنا مش راضية عنها.

نظرت إليها الأم فقالت ياسمين بلهجة مرحة وهى تنظر فى عينى أمها:

– وبعدين انت نسيت إنى بنت الدكتور محمد يزدى وليليان أبو خليل وتربيتهم؟!

اصطنعت الأم ابتسامة لتدارى شعورها بمرارة المفارقة وقالت فى نفسها: «أيمكن أن تقع ياسمين إبنة الدكتور محمد يزدى وليليان أبو خليل فى حب هذا المصرى؟!» وحتى لا ترى إبنتُها عينيها تدمعان احتضنتها ثم أغلقتهما بشدة حتى لا تخرج الدموع منهما. وقالت ياسمين:

– حضرتك هتقولى لبابا؟

بلعت الأم ريقها مرتين وقالت بعد أن تأكدت من خلو حنجرتها من أى حشرجة:

– ممكن فأط ألمح إله ببعض الإشى. لكن اطمنِّى من ها الناحية.

منذ أكثر من خمس سنوات وليليان تنتظر اللحظة التى تكتشف فيها أن ابنتها قد خفق قلبها للحب، إذ قدرت أنها ستكون لحظة فارقة فى

حياة الأسرة كما قدرت أنها ستكون تجديدًا وإنعاشًا لكيانها المستقر، وهاهى اللحظة قد جاءت أخيرًا لكن ما تولد عنها لم يكن إلا شعورًا بالإحباط والخيبة وإحساسا مسبقًا أن هذا الكيان المستقر سيُصاب حتمًا بخلل واهتزاز.

*****

قال الدكتور يزدى لإبنته أثناء تناول العشاء:

- إيه يا ياسمين... أخبار موضوعك الجديد إيه؟

نظرت الفتاة إلى أمها ثم قالت:

- قربت أخلصه خلاص يا بابا. مافاضلش غير الخاتمه.

- هتكتبيها لواحدك.... والاٌ أحمد برضه هيساعدك؟

نظرت إلى أمها مرة أخرى ثم قالت:

- لأ مش هيساعدنى. بيقول لى لازم اكتبها لوحدى.

فقال الدكتور بعد أن مرر الفوطة على فمه:

- الولد ده عاجبنى فى كده. بيحاول يقلل من اعتمادك عليه. ودى حاجة كويسه فيه.

*****

قالت ليليان لزوجها وهو يتهيأ للنوم:

- بِدِّى احكى معك فى أمر حساس كتير.

- أمر يخص ياسمين؟

فقالت بعد أن رقدت بجواره:

- إيش درّاك انه يخصها؟

- واحنا بنتكلم عالأكل حسيت من نظراتكم ان فيه حاجة. البنت كانت قلقانه ونظراتها مش مستقره على غير عادتها.

ظلت ليليان صامتة للحظة ثم قالت:

- الولد هدا ياللى إسمه أحمد وطن لعب بقلبها وبعواطفها. أنا والله ما مصدقه! ياسمين تقع فى حب ها المصرى!!!!

- طب اهدى ياليليان وقولى لى إيه اللى دار بينكم بالتفصيل.

أخبرته بما دار بينها وبين إبنتها لكنها لم تهدأ. ثم قالت معقبة:

- ناكر الجميل الجبان ياللى فتحت له قلبك وصدرك وساعدته حتى أصبح فى مكانه مرموٌه لا هو ولا أهله كانوا يحلمون بها.

لم ينبس زوجها فقالت:

- شو بتعمل هلأ؟

- اطمنى ياليليان. هاعمل اللى فيه الخير لياسمين ولنا كلنا.

- طيب رجاء ماتورى لياسمين انى حكيت لك عن أى إشى.

- إطمنى من الناحية دى كمان يا ليليان. بالعكس ده أنا عايزها ما تعرفش انك قلتِ لى أى حاجة. والوقت خلينا ننام عشان عندى شغل كتير بكره الصبح بدرى فى المبره. تصبحى على خير.

- تصبح على خير.

لكنهما لم يستطيعا النوم فقالت ليليان بعد نصف ساعة من التحرك المضطرب فى الفراش:

- ما نمت لِهلأ؟

- مش جايلى نوم خالص.

- عم بتفكر فى شغلة ياسمين؟

ظل الرجل صامتًا لفترة ثم قال:

- كنت بافكر ازاى ياسمين اتورطت فى الحكاية دى.

- قلت لك انه لعب براسها وعواطفها. ياسمين عاقله ومتزنه ومستحيل تتورط بها السهولة.

- ده برضه اللى كنت باقوله. لكن مسألة العقل والاتزان ما بتبقاش عامل مؤثر فى الأمور العاطفية خاصةً فى سن الشباب المبكر. وبعدين لو بصينا لها من زاوية العقل فياسمين برضه عاقلة فى اختيارها. أحمد وطن برضه من خيرة شباب المدينة ومن أسرة طيبة.... بمعايير أهل بورسعيد يعنى. وماتنسيش انه شاب ذكى جدًا وطموح ومثقف إلى جانب انه وسيم جدًا. إنت ما شفتهوش ياليليان.؟

- بلى، مرتين.

- والولد كمان معذور. إنت ناسيه إن البنت اللى حبها هى ياسمين يزدى؟.

- شو معنى ها الحكى؟! مثقف ووسيم وما ادرى إشى؟! وبعدين بتعذره على فعلته؟! موافق انت عليها؟!

ابتسم الرجل ساخرًا ثم قال:

- ياليليان أنا بس كنت باشرح لك الظروف اللى البنت اتوجدت فيها وان اللى حصل لها ده كان شىء طبيعى انه يحصل. أما موافقتى فانتِ عارفه آنى يستحيل أوافق على حاجة زى دى. أنا كنت معجب صحيح بالولد ده كشاب ذكى ومثقف وطموح، عشان كده أنا ساعدته كتير. شغلْتُه فى جريدة «الأنباء» وخليته مدير مكتبها فى بورسعيد وأقنعت التجار والشركات يعملوا عنده إعلاناتهم، وماطلبتش منه أى مقابل لدرجة إنى ماحاولتش ولو محاولة بسيطة أنه يبقى بهائى أو يساعدنى فى الحد من الهجوم على البهائية، بالعكس أنا سامحته لما مره كتب مقاله عن البهائية والشيوعية والإخوان وهاجمهم فيها. لكن يجى النهارده ويوصل الأمور لعلاقة بينه وبين بنتى ممكن تنتهى بنسب فده يستحيل يحصل حتى لو اتحرقت بورسعيد كلها. إطمنى ياليليان عالآخر. بس مره تانية بأكد عليك ياسمين مش لازم تعرف انك قلتى لى أى حاجة. أنا عايزها تعرف - لو حصل حاجة - إن الحاجة دى حصلت بدون تدخل منى أو إنى كنت السبب فيها. أنا الوقت فرصتى كبيرة عشان أعمل اللى أنا عايزه فيه أو فى غيره. البلد زى ما انت شايفه فى إيدين الانجليز والفرنسيين، ودول فى إيدىّ دى.

*****



مهاجمة الماسونية، وعملية فدائية جديدة

دخل السيد الطناحى بورسعيد متسللاً عبر بحيرة المنزلة ليقتسم كعكة المجد الصحفى مع أحمد وطن. اتصل بزملائه الضباط القدامى الذين رأسوا بعض فرق المقاومة فى المدينة، وقد زودوه بالأخبار وساعدوه فى كتابة بعض الموضوعات مما جعل مجلة الثورة التى يرأس تحريرها تأخذ مكانة تماثل مكانة جريدة الأنباء، بل كادت تعلو عليها لولا مقالة أحمد وطن الصغيرة عن «الماسونية فى بورسعيد» التى أحدثت دويًا كبيرًا فى بورسعيد وفى مصر كلها.

قال أحمد وطن فى مقالته إنه بينما يضحى شباب بورسعيد بأرواحهم فى عمليات فدائية جريئة لإجبار المحتل على الجلاء عن مدينتهم فإنه توجد بعض الفئات من ذوى النفوس الضعيفة يعملون على تقويض العمل الفدائى العظيم إما بكسر الروح المعنوية لشباب المقاومة بالتهوين من عملياتهم وإما بالتجسس عليهم لصالح العدو. وتأتى الماسونية فى طليعة تلك القوى المخربة. لذا يجب على الجميع التصدى لها وكشف زعمائها وأعضائها الذين من بينهم وللأسف الشديد بعض أعيان المدينة وبعض المسؤولين الكبار. وعبر أحمد وطن عن أسفه الشديد أنه لم يستطع التوصل إلى اسم أى واحد منهم لكنه استدرك قائلاً إن هدف المقالة هو الإشارة إلى بؤرة خيانة جديدة توطئةً لكشفها ومن ثم تدميرها فى مهدها بدلاً من تركها تكبر فى الخفاء وتتمكن سرطانيًا فلا

سبيل بعدئذٍ لوقفها أو التحكم فيها. ووعد بأن شعب بورسعيد الباسل والواعى لن ينى يكشف الواحد منهم تلو الآخر وعندئذٍ سيسهل القضاء عليهم كما قضى على الشيوعيين والإخوان والبهائيين.

كان أول رد فعل للمقالة هو وقوف الناس حيارى ثم متسائلين أمام كلمة «ماسونية». بعضهم قال إن الشيوعيين بعد فشلهم الذريع فى مصر قرروا دخول البلاد مرة أخرى باسم جديد والبعض الآخر قال إنها الجناح التبشيرى للصهيونية، وقال آخرون إن الإخوان والصهاينة والشيوعيين والبهائيين تحالفوا لغزو الشعب المصرى فكريًا ثم اقتسامه فيما بعد حسب اتفاق سرى بينهم، بينما استظرف أحد البورسعيديين وقال إن المساونية هى فى الأصل جماعة من البنائين الإنجليز تأسست ونشأت فى لندن على مبدأ الأخوة بين البشر وسرعان ما تكونت فى جميع أنحاء العالم جمعيات مماثلة تضم جنسيات أخرى لترسيخ قيمة هذا المبدأ.

انتشرت الإشاعات حول «الأعيان والمسؤولين الكبار» الماسونيين وطالت لطفى شبارة وزيدان باشا والحكمدار والسيد الدهشان وعبده الماحى ومحمود المان الذى قيل أن الماسونية دسته فى صفوف المقاومة لتقويضها من الداخل. وفى مقهى «الخوارف» أُشيع أن وطن السرجانى والد أحمد وطن هو أقدم ماسونى فى بورسعيد. وكان عدلى الطوابرى هو الذى أطلق هذه الإشاعة فى المقهى وقد صدقه الخوارف على الفور مع أنه لم يكن من عصبيتهم، ويُعتقد أنهم صدقوه لأن جد زوجة السيد الطناحى - غريم أحمد وطن - كان يرجع بأصوله إلى «خارفة جرجا».

*****

أدرك الناس فى بورسعيد أن أعداءهم الانجليز والفرنسيين سيرحلون عن المدينة وستبقى الماسونية بينهم لتكون عدوهم الجديد بدلاً من الشيوعيين والبهائيين والإخوان لكن ما أخافهم منها هو ما أُشيع من أنها كانت تضم شخصيات قوية وثرية جدًا فى المدينة والأخطر من ذلك أن جميع الماسونيين لم يكونوا مرئيين على الإطلاق بعكس البهائيين والإخوان والشيوعيين الذين كانوا معروفين فردًا فردًا، وقد اختلف الناس اختلافًا بينًا فى تقدير عددهم إذ تراوح مابين عشرة أفراد وعشرين ألفًا.

*****

فى الأسبوع الأول من الاحتلال قام السيد الدهشان بزيارة لوطن وكان بمفرده :

- أهلاً ، أهلاً. أهلاً وسهلاً. زيارة مفاجئة لكن سعيدة والله. طب مش كنت تقول كنا عملنا غدا.

- والله انا كنت معدى من جنب البيت قلت أطلع اسلم واشرب القهوه.

- يا أهلاً وسهلاً. أدخل ياسيد ادخل. وأنا كمان والله كنت هاجى أشوفك. وعلى كل حال أهى سميره بتكلم فردوس على طول وبتطمِّنى عليك.

كان السيد الدهشان حسن الهندام كعادته، بعكس معظم الناس الذين أثُرت الحرب فى اهتمامهم بأنفسهم. كان يرتدى سترة تويد انجليزية وسروالاً رماديًا وقميصا أبيض ورباط عنق سماويًا بخطوط مائلة حمراء، وحذائين أسودين لامعين. وبدا شعره الأسود اللامع وكأنه

خارج لتوه من تحت يدى ڤاسيلى مصفف شعره الخاص وصاحب صالون البرنسات. تجاذب الرجلان أطراف الحديث وهما يحتسيان القهوة وفجأة نهض وطن عن مقعده وقال:

- شفت الكلام ده اللى أحمد كاتبه. أما أجيب لك الجورنال تقراه.

خرج وطن من غرفة الصالون ورجع وفى يده جريدة «الأنباء»، وقال وهو يعطيها لضيفه:

- مقاله هتعجبك قوى. والله أنا ما عارف الوله ده بيجيب الكلام ده منين!

تناول السيد الدهشان الجريدة من يد وطن ونظر إليها ثم وضعها على المنضدة دون أن يقرأ كلمة، ثم قال:

- أنا قريت المقالة أمبارح.

- والله!

ثم استدرك قائلاً بفخر:

- آه صحيح! ده أنا متهيألى مفيش حد فى بورسعيد ماقرهاش!

ثم استطرد متسائلاً:

- إنت ياسيد سمعت بالماسونية دى قبل كده؟

- سمعت.

- طب وإيه رأيك فيها؟

- سيبك من رأيى ورأيك الوقت. المهم أنا عايزك تكلم أحمد وتقول

له يبعد عن المواضيع دى. أحمد يا وطن بيحشر نفسه فى حاجات مش قدها وبيربى عداوات أكيد هتجر عليه مشاكل الدنيا.

– أعوذ بالله ! مشاكل وعداوات؟! إزاى ده بس ؟!

– أهو ده اللى أنا شايفه.

– طب ما تكلمه انت ياسيد. أهو برضه انت بتقدر تفهّمه. وماتنساش انه بيسمع كلامك.

– مفيش داعى اتدخل أنا. إبنك اتغير كتير ياوطن وبقى بيعمل حاجات غريبه قوى.

– لأ ! إذا كانت الأمور هتوصل لكده، فالواحد لازم يوقفه عند حده. مش كفايه حكاية المقاومة اللى بيساعدها دى!

– ده مش بيساعدها يا وطن. ده واحد منها. وأنا ما باعترضش على كده. أهو شاب وكل الشبان فيها. لكن أنا باقول لك مرة تانية ان الحاجات اللى بيكتبها دى هتجر عليه مشاكل مالهاش أول ولا آخر، لأنه هيقف قصاد ناس هو مش قدهم.

– ألله يخليك يا سيد انك نبهتنى لحاجة زى دى. والله أنا ما كنت واخد بالى ان الماسونية دى حاجة كبيرة قوى كده. وعلى رأيك ده ممكن يودى نفسه فى داهية لو وقف قصادها وعمل راسه براسها.

– طب ياوطن. أستأذن أنا بقى. وادى انت عرفت كل حاجة، وشوف هتعمل إيه بقى. بس مش عايزه يعرف إنى قلت لك حاجة.

– اطمّن ياسيد. وربنا ما يحرمنى منك. ده عشمى فيك برضه انك خايف عليه وبتعتبره زى ابنك بالظبط.

بعد مغادرة السيد الدهشان دخلت سميرة غرفة الصالون لتحمل فناجيل القهوة وقالت لزوجها الذى لم يبرح مكانه وبدا أنه كان يفكر فى شيء ما:

- بُص ريحةالصالون بعد ما السيد قعد فيه شويه وخرج. زى مايكون اترش فيه تلاث أزايز من الكلونيا الحلوه بتاعته. مش زيك أقول لك حُط شوية ريحة تقول لى الدنيا جرب.

لم يرد عليها فقالت: مالك يا وطن!

أدار وجهه إليها وقال: هو أحمد لسه ماجاش؟

- لأ لسه.

- لسه ازاى؟! ده فاضل ربع ساعه على حظر التجول!

- ما انت عارف انه دايما ييجى فى آخر لحظة، وماتنساش إن فيه أيام بيباتها بره عند أصحابه. أنا عارفه كتشينة إيه اللى بيلعبوها طول الليل دى؟!!

ثم أضافت عندما رأت زوجها ينظر فى الساعة كل نصف دقيقة ويطل من الشباك لعله يرى إبنه وسط المسرعين فى الشارع إبان الدقائق الأخيرة للحظر:

- إنت قلقان كده ليه النهارده وهتخلينى أقلق معاك؟

- ربنا يستر يا سميره.

- ربنا يستر؟!! هو فيه حاجة يا وطن ومخبيها علىّ؟

- لأ يا سميره. بس الأمور بدأت تتأزِّم، وعاوزين الوله ده يكِّن شويه.

– خلاص. لما ييجى أنا وأنت نكلمه يبطل لعب الكوتشينه دى اللى بتخليه يبات بره.

نظر إليها شذرًا ولم يرد عليها واتجه إلى الراديو وفتحه وظل يسمعه طول الليل لكن بدون تركيز.

*****

العملية التالية كانت خطف الملازم دڤيد هيرست عشيق مارى صرافة صيدلية دلمار الفاتنة، وقد كُلفت المجموعة الرابعة بقيادة محمود المان بتنفيذها . اختار محمود عشرة أفراد من مجموعته، خمسة لمراقبة العمارة التى كانت مارى تسكن فيها وخمسة لعملية الخطف نفسها، وقد أضاف أحمد وطن فاروق السنبارى إلى المجموعة. اعترض المان بشدة لكن أحمد وطن أصر على اشتراكه إذ كان يتمتع بشراسة وجسارة غير عاديتين وهما صفتان مطلوبتان لإنجاح مثل هذه العملية.

اصطحب محمود المان الأحد عشر شابًا إلى منزل عمته فى اليوم السابق على العملية لتدريبهم عليها وقد اختار صبيًا من سكان منزل عمته ليمثل دور مارى لكن فاروق أبدى تلك الملاحظة:

– الدور ده دور بنت. يعنى عايز مياصه وليونه وشوية لبونه كده يعنى. عشان كده أنا باقول ان محمود يعمل دور البت مارى.

رفع محمود يده وهوى بها على صدغ فاروق فترنح وكاد أن يقع ثم نظر إلى محمود المان نظرة شرسه فمسكه شابان خشية أن يهاجم قائدهم. وقال محمود المان بصوته الرقيق المنخفض:

- مفيش فايده ياجماعه. الواد ده مش هيتغير أبدًا. وأنا آسف على اللى حصل منى. سيبه يا جمال، سيبه يا ويصا.

لم يتطور الموقف إلى أكثر من هذا، ومضى الجميع يتدربون على أداء أدوارهم وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى خرج محمود المان ورفاقه من منزل عمته إلى المنزل الذى كانت مارى تقيم فيه. كان أحد المنازل المحيطة بجنينة فريال. كان بابه مغلقًا كما توقعوا فصعد ثمانية منهم إلى أسطح المنازل المجاورة ومعهم عدة لفات من الأسلاك الكهربائية ليدعوا أنهم جاءوا لإصلاح أعطال فى التوصيلات الكهربائية إذا ما سئلوا عن سبب دخولهم أو صعودهم إلى الأسطح. وعندما صعدوا اتجه جمال زكى وويصا بشوى وفاروق السنبارى وفاروق الحلاوى إلى سطح منزل مارى بينما رابط الأربعة الآخرون فوق سطحى المنزلين المجاورين. ومكث محمود المان أمام المنزل لإدارة العملية ومعه مكرم للمساعدة فى المراقبة والاتصال.

فى الساعة الحادية عشرة والخامسة والعشرين وصل داڤيد بسيارته إلى الشارع وتوقف أمام المنزل فوضع مكرم أصبعيه فى فمه وأطلق صافرة وصول الضابط وبعد ثوان أطلق صافرة دخوله المنزل. وكانت مارى قد فتحت له الباب قبل أن يطرقه وبعد أن أغلقته بثانية كان الإثنان يتعانقان ويقبلان بعضهما قبلات حارة متلاحقة وظلا هكذا حتى وصلا إلى أعلى الدرج القريب من السطح.

- Oh David I love you, I love you.

- I love you too Mary.

- I missed you so much.

قبلها فأضافت:

- I almost went mad when you didn't come yesterday.

- Sorry darling. We've had an emergency.

توقفت فجأة ورفعت يديها وتحسست خديه وقالت:

- I had a strange feeling you wouldn't come at all.

- This will never happen, Mary.

ابتسمت الفتاة وأعطته شفتيها الحمراوين فطبع عليهما قبلة طويلة انتهت بضربة قوية من عصا غليظة على رأسه فسقط، وقبل أن تصرخ الفتاة وضع جمال زكى راحة يده اليسرى على فمها وطوق خصرها بذراعه وفى أقل من دقيقة وثقها ويصا بالحبال وكمم فاها بينما وضع الثلاثة المهاجمون الآخرون داڤيد فى جوال وحملوه إلى السطح ثم إلى سطح المنزل المجاور للنزول به إلى الشارع الخلفى، لكن داڤيد أفاق وهم على وشك الخروج به من باب المنزل فأطلق صيحات استغاثة فما كان من فاروق السنبارى إلا أن أخرج مطواته وطعن الجسم غير المرئى عدة طعنات فرقد الجوال بدون حراك والدماء تنضح من نسيجه وتسيل منه على أرض الحوش. خرج ساكن يونانى من باب شقته الكائنة بالدور الأرضى ورأى مشهد الطعن فدخل ثانيةً بسرعة وأغلق الباب بكل مزاليجه. ترك المهاجمون الجوال وبه الضابط المطعون وجروا إلى السيارة التى كانت تنتظرهم.

بعد دقائق قليلة كانت الدبابات والمصفحات تملأ المدينة وبدأ

البحث عن القتلة مع التركيز على حى الإفرنج الذى تم الاختطاف فيه. كان معظم سكان هذه المنطقة أجانب والباقون من المصريين الأثرياء واستُبعد أن يكون الجناة منهم ومن المرجح أنهم أتوا من الخارج لتنفيذ العملية هنا. لكن سلطات الاحتلال استجوبت الجميع وقد أقر الساكن الذى رأى الطعن أنه رأى أربعة رجال أدلى بأوصاف غير واضحة لثلاثة منهم وبوصف واضح عن رابعهم إذ قال إنه شاب طويل قوى البنية فى العشرين من عمره بعينين ضيقتين وجبهة ضيقة وشعر أسود كثيف وأنف أفطس وله ندبة غائرة فى خده الأيمن وتصادف أن هذا اليونانى كان رسامًا فرسم صورة قريبة الشبه من فاروق السنبارى.

*****

١٣ موعد غرامى فوق سطح منزل

اختفت جماعة محمود المان فى حوارى العرب وشوارعه الضيقة وفشلت قوات الاحتلال فى العثور على أى منهم أو حتى على فاروق السنبارى الذى كانت صورته معهم، ففرضت قيودًا جديدة أهمها منع سكان العرب من الانتقال إلى الإفرنج، أما المصريون المقيمون فى الإفرنج فقد حصلوا على تصاريح انتقال إلى العرب لشراء حاجياتهم والعودة قبل الرابعة عصرًا.

ورغم اشتعال الإذاعات المصرية والعربية حماسًا بالأناشيد والأغانى الوطنية والتعليقات النارية على استمرار المقاومة البورسعيدية التى ما فتئت تغذى النضال الوطنى بأعمالها الانتحارية الرائعة وأحدثها اغتيال الضابط البريطانى داڤيد هيرست فإن أحمد وطن سبَ فاروق السنبارى على حمقه وطيشه لقتل الضابط، فدافع السنبارى عن نفسه قائلاً:

– يا أحمد ده صرَّخ وكان هيكشفنا!

– إضربه تانى على نافوخه ضربه تسكته زى ما عملته أول مرة، وكان سهل تعملوا كده وهو فى الشوال. مش كده والاّ لأ يا محمود؟ —

أطرق المان برأسه إذ لم يشأ التعليق على فعلة فاروق السنبارى المتهوره التى أفسدت الهدف من العملية الذى كان يتفق مع الهدف العام

للمقاومة الشعبية وهو أسر أكبر عدد من أفراد القوات الغازية للتفاوض بهم على الجلاء السريع عن أرض الوطن. واستطرد أحمد قائلاً بانفعال:

– أسر جندى انجليزى والاً فرنساوى هيعزز موقفنا جدًا، لكن لما نقتله الرأى العام العالمى هيتعاطف معاهم وهيخليهم يهاجمونا بشراسة ومش هيحسبوا حساب لأى حاجة، بالظبط زى ما عملوا بعد قتل مُوْر هاوس.

فقال فاروق متحديًا:

– يعنى يا أحمد يا وطن انت كوم وإذاعات الدنيا دى كلها كوم تانى؟! إنت ما سمعتش بيقولوا إيه على قتل الظابط ده؟ ده كل واحد نِفسه يشوف اللى قتله ويبوس إيده! تقوم تيجى انت وتهزأنى!!

– أنا ما باعترضش على قتل الأعداء. لكن أسر الظابط ده حى كان هيكون أكبر ورقة رابحه فى إيدينا. إنما قتله ده....

لوَّح فاروق السنبارى بيده اليمنى فى وجه أحمد وطن بغضب شديد وقال مقاطعًا إياه:

– ياشيخ، سيبك بقى من الهمبكه والفلسفة بتوعك دول. يبقى احنا ندخل النار برجلينا ونعرض نفسنا للموت وانت قاعد لى هنا تتكلم وتجعجع وبس.

وانصرف وهو فى ثورة غضبه فحاول جمال الإمساك به وتهدئته فمنعه أحمد وطن وقال:

– سيبه يا جمال.... أنا الحق علىَّ إنى ما سمعتش كلام المان من الأول.

*****

توقف نشاط المقاومة بعد عملية خطف الضابط وقتله إذ كانت قوات الاحتلال حريصة ومتأهبة كما كانت عنيفة جدًا مع الأهالى. وتعذر وصول الصحف والمجلات حتى إلى شخصيات المدينة المهمة ومنهم الدكتور يزدى نفسه لكن الجميع كانوا يعرفون أهم ما بها وذلك من برامج أقوال الصحف فى الإذاعة وقد نشرت جريدة الأنباء واقعة خطف الضابط كما حدثت لكن بدون ذكر أسماء مَن قاموا بها، لكن صحفًا أخرى أضافت تفصيلات مثيرة، فقالت إحداها إن الضابط الانجليزى حاول اغتصاب الفتاة اليونانية فصرخت وسمع بعضُ الشبان المصريين صرخات استغاثتها فهبوا إلى نجدتها وإنقاذها وعندما رآهم داقيد أخرج مسدسه وصوبه إليهم لكنهم كانوا أسرع منه فأردوه قتيلا. بينما أكدت صحيفة أخرى أن الفتاة اليونانية عضو فى المقاومة الشعبية البورسعيدية وأنها أدت دورها ببراعة فأغوت الضابط الانجليزى واستدرجته إلى هذا الكمين.

وقالت مجلة الثورة التى يرأس تحريرها السيد الطناحى فى أحد تعليقاتها على حادث الاختطاف إن آفة الأنانية وتشويه صورة الغير مازالت كامنة فى نفوس البعض، إذ حدثت قرصنة على هذه العملية وسرقها مدعُّو البطولة من منفذها الحقيقى ونسبوها إلى أنفسهم فأصبحوا هم الأبطال، بل إنهم أزاحوا هذا البطل عن صفوف المقاومة وهو يجلس الآن منزويًا ومحبطًا فى أحد المقاهى.

وكان فاروق السنبارى الذى خرج ثائرًا عقب مشادته الكلامية مع أحمد وطن قد جلس فى خمارة بشارع الشرقية وراح بعد الكأس الرابعة يجدف بالمقاومة ويلعن كل أفرادها ويلمّح إلى كونه بطلها الأوحد:

- اسألوا أحمد وطن مين اللى قام بعملية أسر داڤيد هيرست وقتله. لو راجل صحيح يقول لكم عالبطل الحقيقى للعملية دى.

وأشار بأصابعه إلى صدره عند كلمتى «البطل الحقيقى»، ثم أضاف وهو يضحك بعد شرب الكأس الخامسة:

- هأ هأ هأ. الإسم لطوبه والفعل لأمشير، زى ما بتقول بنت الوسخه ستى. لكن واللى خلق الملك لازم أفضحهم كلهم، ولازم الناس تعرف إنى بطل العملية دى وان الباقيين كانوا اسكارتات معايا، ودين أم التخين فيهم. هات يا ابن الشرموطه واحد زفت تانى، وبسرعه أحسن أخلى آخرتك سوده زى آخرة داڤيد.

*****

فى صباح اليوم التالى قبضت سلطات الاحتلال على فاروق السنبارى وهو نائم فى أحد بيوت حى المناخ التى لم تُحرق إلا جزئيًا، ولم تأخذ إلا وقتًا قصيرًا لتجعله يعترف على زملائه. ومن حسن الحظ فإن أحمد وطن كان قد أخذ بنظام الخلايا المنفصلة من الإخوان والشيوعيين فلم يعرف السنبارى إلا أسماء أفراد مجموعته التى كان المان قائدها فسلم أفراد المجموعات الأخرى من ملاحقة قوات الاحتلال لهم.

جرت عملية بحث كبيرة عن القتلة وفُتش بيتا وطن السرجانى وعمة محمود المان تفتيشًا دقيقًا ولم تفتأ قوات الاحتلال تداهمهما من وقت لآخر.فلم يكن بوسع عمة المان إلا ترك بيتها حتى لا تعاودها حالات الانهيار العصبى التى كانت تنتابها كلما اقتحم الجنود بيتها... وتحمَّل وطن السرجانى الامًا جمة من عنف الانجليز والفرنسيين وفى نفس الوقت كان يجتر ذكرياته عما عرفه عنهم من مودة وانضباط ورحمة أيام

أن عمل معهم فى شركة «ورمس». وبعد انتهائهم من أول مداهمة لبيته لم يتردد فى إرسال زوجته وابنته إلى بيت أخته خوفًا عليهما من هؤلاء الجنود الذين قد يقومون بأعمال متهورة انتقامًا لقتل زميلهم.

*****

كان أحمد وطن يعرف أنه لن يُقبض عليه طالما كان فى حى العرب، فهناك عشرات البيوت التى يمكن أن يختبىء فيها ولا تستطيع قوات الاحتلال اكتشافه أو الوصول إليه وهو فيها. بعد يومين من اختبائه راودته الرغبة فى رؤية أبيه وياسمين، وقد فكر فى عواقب مقابلة أى منهما فأجل مقابلة أبيه إلى أن تتغير الظروف لكنه قرر أن يقابل ياسمين معولاً على إدراك الفتاة السليم وحسن تصرفها ومساعدة أبيها لها.

أرسل لها رسولاً أبلغها أن تقابله فى منزل سامى الشريف المجاور لمبنى المبرَّة ولم تتأخر الفتاة عن الموعد الذى حدده. أخذت سيارتها وتوقفت بها أمام مبنى المبرة كما لو كانت ستدخله لكن عندما نزلت من السيارة عرجت يسارًا ودخلت منزل سامى الشريف.

– أهلاً يا ياسمين. حمدا لله عالسلامة.

– أهلاً يا أحمد. عامل إيه؟

وقال وهو يقفل الباب بعد أن دخلت:

– الحمد لله كويس. إيه رأيك فى المكان هنا؟

– ممتاز! ما حدش ممكن يفكر انك هنا أو إنى جايه عشان أقابلك

فقال وهو يبتسم:

- أهُو. دى بس حتة تمويهه صُغيُّره عالماشى. أنا فى الحقيقة قاعد فى أمان فى العرب، لكن أنا عارف إن الانجليز والفرنسيين عارفينك وعارفين انت بنت مين وكانوا هيستغربوا لوشافوك رايحه العرب وأكيد كانوا هيمشوا وراك ويعرفوا انت رايحه فين. عشان كده أنا اخترت بيت سامى لأنك بتيجى المبره كل يوم تقريبا .

- وأنا كمان عملت احتياطاتى وماوقفتش العربية قدام البيت.

*****

أثناء صعودهما الدرج كانا يتحدثان ويداهما متشابكتان وعندما اقتربا من نهايته توقفا واحتضن كل منهما الآخر وبعد فترة غير قصيرة استأنفا الصعود فى صمت مكتفيين بتواصل الأيدى المتشابكة إلى أن وصلا إلى السطح فقالت ياسمين:

- كويس ان الجو حلو النهارده.

كانت السماء زرقاء صافية والبحر المتسع أمامهما أشد زرقة لاسيما عند الأفق. رأيا سفن الأسطولين رابضة كما هى وطيور النورس تحلق عندها. كان البحر هادئًا لكنهما رأيا وسمعا أمواجه تجرى نحو الشاطىء ثم تتلاشى عندما تصله، وأشجار النخيل العالية تمتد بأعدادها الكبيرة من الشرق إلى الغرب، تداعب عروشها نسمات العصر الباردة التى عجزت عن تلطيف الأجسام المتقدة بلهيب العواطف الجياشة.

مابين أمواج الشاطىء ونخيله كان هناك رماد الكبائن والخوازيق السوداء. أجالت ياسمين بصرها ناحيتها وقالت:

- فاكر يا أحمد الشهر اللى فات لما كنا بنتمشى بين الكباين اللى كانت هناك؟

نظر إلى الخوازيق والرماد وتنهد ثم قال:

- فين هى الكباين دى دلوقتى؟

- وكافيتيريا أبو شريف اللى كنا ساعات بنقعد فيها؟ أنا أعرف انها بعيدة شوية عن الكباين..... اتحرقت هى كمان؟

- كله اتحرق. مفيش حاجة عالشاطىء ما اتحرقتش.

نظرا مرة أخرى إلى الرماد والخوازيق ثم قالت ياسمين على غير توقع:

- بس ذكرياتنا عنها ما اتحرقتش معاها.

فابتسم أحمد للملحوظة، ورأى أن يشاركها رأيها فقال:

- ده صحيح. أهو شوفى احنا هنا مستمتعين بقعادنا مع بعض فوق السطح ده إزاى. بعد تلاتين أربعين سنة البيت ده أكيد هيتهد وذكرياتنا عنه هى اللى هتفضل، وسعادتنا واحنا بنفتكره وقتها هتكون أكتر بكتير من سعادتنا دلوقت.

اتجهت ياسمين إلى الناحية الشرقية من السطح واستطردت فى كلامها غير المتوقع:

- بس ماتنساش ان فيه أيام حزينة كمان، وذكرياتها بتكون حزينة زيها ويمكن أكتر.

كانت عيناها زائغتين وبدا أنها كانت تفكر فى شىء أثار شجنها

وجعلها تقول ذلك، فقال:

- إيه اللى خلاك تقولى كده يا ياسمين؟!

- أنا بس افتكرت مارى وداڤيد وقصة حبهم اللى ما ابتدأتش إلا من تلات أسابيع. كانت قصة حب جميلة بس يا خساره انتهت بمأساة.

تذكر أحمد أن مئات الشبان من أبناء بلدته قتلوا فى المعركة وكانوا فى عمر داڤيد، وكاد أن يذكّر ياسمين بذلك لولا أن قالت:

- إنت قبل كده قلت لى أسامى كتيره لشبان ماتوا فى المعركة، أنا نسيت الأسامى دى كلها بس مانسيتش محمد الداوودى. تعرف ليه؟ لأن حياته زى ما انت وصفتها لى كانت رومانسية ومثيره، وكمان موته كان بعد شهر واحد من جوازه. تفتكر واحد زى ده الواحد ينساه؟ أنا فى الحقيقة باعتبر موته مأساة خاصة جدًا. أقصد غير المأساه العامة اللى حصلت فى البلد.

صمتت لحظة قصيرة ثم قالت:

- ممكن يا أحمد تبقى تعرفنى على عروسته؟

- حاضر.

ثم أضاف وهو يبتسم:

- تعرفى انها بنت لطيفة جدًا، وهتعجبك قوى لما تشوفيها. ولو اتعرفتوا على بعض وكلمتيها هتعرفى أد إيه كانت بتحبه. متهيألى ساعتها هتحسى إن المأساة مأساتها هىّ أكتر منها مأساته.

*****

١٤ تحركات السيد الدهشان

أرسل السيد الدهشان دعوة إلى السيد الطناحى لزيارته فى فيلته وقد لُبيت الدعوة على الفور. تصافح الرجلان ثم تعانقا، وكان الفرق واضحًا بين جسميهما إذ كان الطناحى ضئيل الجسم بعض الشىء رغم كونه ضابطًا سابقًا فى القوات المسلحة بينما كان الدهشان طويلاً وذا بنية قوية أهلته يومًا عندما كان هو والطناحى زميلين فى الصف الثالث الثانوى أن يلكمه لكمتين قويتين فى وجهه فانطرح أرضًا أمام الطلبة لمعايرته إياه على رسوبه فى الرياضيات. ومنذئذ يضمر السيد الطناحى كراهية شديدة للسيد الدهشان أضيف إليها حقد جديد تولد عندما ارتفع نجم الدهشان فى عالم المال والأعمال وأصبح من كبار أثرياء المدينة.

بعد المصافحة والعناق عبر الرجلان تعبيرًا قلبيًا صادقًا عن مدى افتقاد كل منهما للآخر طوال السنين العشرين الماضية ثم حكيا ذكريات أيام التلمذة الجميلة فى بورسعيد الثانوية ثم تطرق الحديث بطبيعةالحال إلى واقع المدينة المؤلم فقال السيد الدهشان:

– ماهو عشان كده أنا بَعتّ لك. البلد فى فوضى وبيتحكم فى مصيرها شوية عيال قاعدين يخسَّروا كل اللى بنعمله عشانها. حتى العمل الفدائى اللى كان المفروض يكون مدروس ومنظم وله أهدافه مسكوه وبقى لعبة فى أيديهم، والنتيجة أهى قدامك؛ هَيَّجُوا الانجليز

والفرنسيين علينا ومش باين لهم جلاء عن البلد رغم قرارات مجلس الأمن ووقوف روسيا معانا.

– ياسيد بيه فيه عدة جهات لها فرق مقاومة. فيه منها فرق مقاومة جادة وعلى مستوى المسؤولية وفرق بتهرج زى ماقلت.

– أنا أقصد أحمد وطن والعيال اللى معاه.

– أحمد وطن؟!! غريبه!! أنا أعرف أنه ابن أعز أصدقاءك.

– أنا مايهمنيش حتى لو كان ابنى. مصلحة البلد هى المهمة عندى والوله ده هو رأس الأفعى اللى لازم نقطعها. ده ياريته خسَّر المقاومة وبس، إلاَّ كمان قلّب الناس على بعض. يعنى لازمتهم إيه المقالتين اللى كتبهم عن الشيوعيين .... والبهائية.... والإخوان ..... والحاجات دى. لازمته إيه يثير الكلام ده دلوقت!! هى البلد فى إيه والاَّ فى أيه؟!!

فابتسم الطناحى وقال:

– وكمان الماسونية ياسيد بيه. ده كان معظم هجومه فى المقالتين عليها.

– وياريته بيتكلم عن درايه وفهم..... إلاَّ جاهل وبيهيج الناس الجهلا اللى زيه.

– طب ما تكلم أبوه يمكن يعقّله.

– أنا كلمته فعلاً بعد ما كتب أول مقاله. لكن أبوه مسكين مالوش حكم عليه. وياريته سكت بعد المقاله الأولانيه، إلاَّ كتب واحده تانيه، أقذر منها. والله أعلم هيكتب إيه تانى.

– بس أنا شايف ان الانجليز والفرنسيين هيمشوا وواحد زى ده مش هيكون له صِفَه بعد ما يمشوا وتنتهى الهوجه.

–بالعكس ياسيد بالعكس. لو الانجليز والفرنسيين طلعوا أحمد وطن ده هو اللى هيركب الجميع ويدلدل رجليه كمان. المجد كله هيبقى مجده والسياده فى البلد هتكون له، وأسياده الحقيقيين اللى خيرهم عليه هيبقوا وراه فى الصف الثانى. عشان كده لازم نعمل حاجة معاه قبل ما يطلعوا.

ثم توقف عن الكلام ونظر فى عينى ضيفه المبتسم فوجدهما يلتمعان بوهج الأمل فى أخذ ثأر قديم من أحمد وطن وقال السيد الدهشان مستطردًا:

– إيه ياسيد، هتحط إيدك فى إيدى؟

لم ينبس الضيف لكنه وقف ومد يده عبر المكتب إلى مضيفه فتصافحا بقوة وحرارة وقال السيد الطناحى:

– اعتمد علىّ فى كل اللى عاوزه يا سيد بيه.

– أنا عايز رجالتك وزمايلك الظباط يجيبوا لى أخباره وتحركاته والبيوت اللى بيستخبى وينام فيها. وسيب الباقى علىّ.

– ما انت عندك رجاله برضه ياسيد بيه!

– كتير. لكن للأسف أكترهم هرب عالمطرية والمنزله بعد الغزو على طول.

– طب وأنا دورى هيكون بس كده؟!

– بس. المهمة التانية هيقوم بيها الدكتور يزدى. أنا رايح له الوقت على طول عشان أكلمه. انت عارف انه الوحيد اللى على اتصال بالانجليز والفرنسيين.

– أيوه صحيح، ماهو الواد ده هاجم البهائية هى كمان.

– لأ مش عشان كده. الدكتور يزدى مايهموش الهجوم عالبهائيه. ماهى ياما اتهاجمت والناس ياما قالت عنها حاجات صدق وكذب وهو ماكانش بيهمه. الراجل بيعتقد ان أحمد وطن دمر أهم عمل قام بيه فى حياته، أقصد دوره كهمزة وصل بين المصريين والقوات المحتلة. الدكتور يزدى كان له فضل فى التعاون اللى حصل بين الطرفين لمصلحة البلد، لكن صاحبك ده جه وضيع كل حاجة. بس فيه حاجة تانيه هتخلى الدكتور ينقلب عليه قلبه سوده ومش هيسيبه عشانها.

صمت السيد الدهشان لحظةً ثم قال لضيفه:

– تشرب شاى تانى يا أستاذ سيد.

– شكرًا يا سيد بيه، مفيش داعى.

مرت فترة صمت قصيرة أخرى ثم قال السيد الدهشان:

– هو فيه حاجة جديدة هتنزل لك قُريّب فى الجريدة؟

لم يرد السيد الطناحى على هذا السؤال بل قال:

– ياسيد بيه، ممكن أعرف إيه الحاجة اللى هتقولها للدكتور يزدى واللى هتخليه يقلب عالواد ده؟

– آه..... آه... هى حاجة تخص ياسمين بنت الدكتور يزدى.

ابتسم الضيف لسماع الإسم وظل صامتًا ينتظر مزيدًا من الإفصاح من مضيفه، فقال الدهشان بتردد فى أول الأمر، ثم بصراحة فى آخره:

– يعنى.... فيه كلام كده عن علاقه بينها وبين أحمد وطن. وفيه كمان كلام أنهم غوطوا قوى فى العلاقة دى.

صفر السيد الطناحى للمفاجأة، ثم قال:

– عندك حق يا سيد بيه. عندك حق. الدكتور يزدى أكيد هيقلب عليه لو عرف الحكاية دى والوقت إإذن لى عشان ابدأ شغلى. وبإذن الله مش هاتأخر فى اللى طلبته.

*****

توجه السيد الدهشان إلى عيادة الدكتور يزدى لإجراء الكشف الطبى الدورى. وقال السيد بعد الكشف:

– فيه حاجة كده عايز أكلمك فيها يادكتور. أنا عارف إن وقتك ضيق عشان كده أنا هادخل فى الموضوع على طول.

– خير يا سيد بيه!

– يعنى.... هى بخصوص ياسمين بنتك،

لم يدخل السيد الدهشان فى الموضوع مباشرة كما قال إذ كان مرتبكًا وظل كذلك لبعض الوقت فقال الدكتور يزدى:

– قصدك ياسمين وأحمد وطن؟

نظر إليه السيد الدهشان باندهاش. فأضاف الدكتور:

- ياسمين مابتخبيش عنى حاجة.

تخلص السيد من شعوره بالحرج وأفاق لما جاء من أجله فقال:

- بس انت بتخبى عليها. يعنى مثلاً خبيت انك مش راضى عن علاقتها بالوله ده.

- وإيه دراك إنى ماقلتلهاش؟

- يعنى ... لو كنت قلت لها كان زمانهم بطلوا يقابلوا بعض.

- أنا فى الحقيقة قلت لها انه متورط فى عمليات الخطف عشان كده لازم تقلل تعاملها معاه فى الشغل وتبطل تروح له مكتبه. يعنى.... جبتها لها من الناحية دى.

- واللّهِ ده مش كفايه يا دكتور محمد. الواحد مش لازم يسكت عالحاجات دى أبدًا. إنت تعرف انى منعت بنتى سلوى أنها تشوف الوله ده أو تكلمه من ساعة ما كان عندها عشر سنين؟ مع ان زى ما أنت عارف فيه علاقة قوية بينى وبين أبوه، وكمان مراتى صديقة أمه الروح بالروح.

- عندك حق يا سيد بيه. بس ياسمين الوقت ماعندهاش عشر سنين. دى شابة وما أقدرش امنعها كده على طول.

وصمت الرجل لحظة ثم أضاف:

- ياسمين دى بنتى الوحيده ياسيد بيه، وماعندكش فكره أنا بأحبها أد إيه ومش عايز أزعلها منى، خصوصًا فى حاجة زى دى. أنا هانهى العلاقة دى لكن مش عايز البنت تعرف انها انتهت على إيدىّ.

– أفهم من كده ان فيه حاجة فى دماغك هتعملها.

– أنا بلغت عنه الانجليز والفرنسيين بالفعل. لكنى للأسف الشديد اتأخرت شويه. كان المفروض أبلّغهم من ساعة ما عرفت. بس مش عارف إيه اللى منعنى ساعتها؟ تعرف إمتى قلت لهم؟ يوم ما قبضوا على فاروق السنبارى. الواد أحمد ده زكى برضه يا سيد بيه. عرف ان فاروق السنبارى هيبلغ عنهم واحد واحد فاختفى، ومن ساعتها وهو مختفى. لكن معلش. قدامنا وقت كافى نقدر نعمل فيه حاجة أنا وانت.

– والسيد الطناحى هيكون معانا كمان. الراجل ده عايز يغمض عينه ويفتحها ويشوف أحمد وطن مقتول. وهو ده يا دكتور محمد اللى هيجيب لنا كل أسراره وتحركاته والبيوت اللى بيستخبى فيها. وكل ده هتعرفه أول بأول منى. وانت بقى وهمتك مع الجماعة بتوعك.

*****

١٥ مطاردة نوال بعد آخر استعراض لها

يخطط أحمد وطن لتدمير مستودعات الذخيرة فى معسكر الجولف: سيقوم الفدائيون بالهجوم على المعسكر من جهته الشمالية الغربية بعد تسللهم من خلف «وابور النور» ومستودعات متروفيتش، بينما ستتسلل نوال من بحيرة المنزلة والقنال الداخلى وكوبرى الرسوة ثم إلى المعسكر من جهته الجنوبية حيث مخازن الذخيرة.

استدعاها أحمد وعرض عليها الفكرة فقالت:

- طب وأنا هاعمل إيه بقى يا سِى أحمد لما أوصل هناك؟

- إنت هتعملى حاجة ماحدش غيرك يقدر يعملها يا نوال.

- هو فيه ستات اشتغلت معاكو قبل كده؟

- ولاست. لكن انت ست الستات وهتشوفى بعد كده نظرة البلد لِكِ هتكون ازاى !

- مش لو عشت!

فقال وهو يضحك:

-. هتعيشى والله يانوال، هتعيشى. إحنا مفيش حد عندنا بيموت. أهو انت شفتى كل العمليات اللى قمنا بيها. مفيش حد.... إتصاب فيها حتى.

وضع يده على صندوق خشبى موضوع على منضدة أمامه وقال:

- بُصِّى ياستى. رجالتنا هيهجموا عالمعسكر من ناحيتنا هنا. وعلى فكره... ده عددهم مش هيقل عن خمسين واحد، والمره دى هيكون معاهم مدافع وبنادق وقنابل يدويه وقنابل حارقة مالهاش حصر. فى الوقت ده هتكونى إنت وزلومه الكسلان اتسحبتواووصلتوا المعسكر من الناحية التانيه يعنى من عند كوبرى الرسوة.

- زلومه الكسلان؟!

- إسمه كده، بس زى القرد. بيشتغل صياد وعارف كل حته فى المنطقة دى.

- طب وعملى هيكون إيه بالظبط؟

- أهو. عملك هيكون ده.

فتح الصندوق فظهر فيه عدد كبير من الأسياخ، طول كل سيخ نصف متر تقريبًا مثبت بأحد طرفيه كرة قطنية مضغوطة أكبر قليلاً من تلك التى تضعها نوال مشتعلةً فى فمها أثناء ألعابها الإستعراضيه، ومثبت بطرف السيخ الآخر حبل بطول متر تقريبًا.

فوجئت نوال بالعدد الهائل من الأسياخ فقالت وهى مندهشة وضاحكة فى نفس الوقت:

- إيه ده يا أستاذ أحمد؟! هو أنا ها حاربهم والا هاعملهم عرض أكروبات؟!

- الاتنين يانوال. وأقول لك بالظبط.... إنت هتحاربيهم بألعابك البهلوانية وهم حُرِّين بقى، ياخدوها زى ما ياخدوها. يسلُّوا بيها، يموتوا منها، يتحرقوا. المهم ان الخمسين سيخ دول انت هتطوحيهم بنارهم على مخازن ذخيرة الكامب.

وصمت الشاب قليلاً ثم أضاف وهو يبتسم:

– إنت فاكره لما الولَه حمدتو ضايقك فى الحميدى عملتِ له إيه؟ مش يومها نشنتى على وشُه بكورة النار؟ أهو أنا عايزك تعملى كده فى العملية دى. بس التطويحة المره دى هتكون أقوى لأنك هتقفى بعيد عن الكامب بتلاتين متر. وعشان كده أنا شابك السيخ بالحبل الصغير ده. أنا عارف ان فيه رجاله أقوى منك. لكن القوه مش مطلوبه لوحدها. المطلوب أكتر منها هو السرعة والمهاره، لأن الأسياخ دى كلها هتشيعيها فى أقل من خمس دقايق وبُقك هيفضل والع طول المده دى عشان تلقطى منه النار لكل سيخ. يبقى فيه حد يقدر يعمل الشغله دى غيرك؟!

ظلت نوال صامتة وبدا أنها كانت تفكر جديًا وبعد فترة غير قصيرة انفرجت أساريرها عن ابتسامة هادئة وقالت:

– ماشى يا أحمد. نتكل على الله. شوف هنبدأ إمتى.

شد الشاب على يد المرأه وقال:

– أنا شاكر يانوال، وكنت متأكد انك هتوافقى.

– إنت قلت لى اللى هييجى معايا اسمه إيه؟

– ياستى ماتدقيش عالإسم. لما تنوى تتجوزيه هابقى أغير لك إسمه.

نظرت إليه نظرة نمت عن ضيقها فقال مستدركًا:

– أناه كنت باهزر والله يانوال، وعارف ان الأشكال دى ماتليقش بمقامك. وانت لو حبيتى تتجوزى هتتجوزى سيد الرجاله، زى ما كنت متجوزه سيد الرجاله.

*****

انطلقت نوال قبيل منتصف الليل ومعها زلومه الكسلان من إحدى عشش عزبة فاروق واتجها شرقًا إلى المنطقة الواقعة بين كوبرى الرسوة وجنوب معسكر الجولف. وعندما عبرا طريق المعاهدة الأسفلتى كان عليهما أن يسيرا المسافة المتبقية منحنيى القامة أو على أربعهما أو زحفًا فأخذا زمنًا طويلاً قبل أن يصلا إلى النقطة التى اتُفق أن تكون مربضها لتطويح أسياخها النارية. عندما وصلا كان عليها أن تنتظر حتى تسمع بدء إطلاق النار، بل كان عليها الانتظار حتى تشتد المعركة فتبدأ قذف نيرانها.

مر رُبع ساعة دون أن يسمعا شيئا. كان الصمت هائلاً إلا من أنفاس الصياد. كانت الظلمة شديدة، يصطدم الوجه بهاأينما تحرك. فلم تر وجهه ولا كانت رأته عندما تقابلا فى عشة عزبة فاروق المظلمة من نصف ساعة.

كان الصياد سعيدًا بهذه الصحبة. لقد عرض عليه أحمد وطن من قبل أن يُرشد بعض الفدائيين فى مهمة أقل خطورة فرفض رفضًا باتًا. لكنه قبل المهمة الحالية دون خوف أو تردد إذ سيرافق المرأة التى طالما اشتهاها وهو يشاهدها تقوم بألعابها.

تحركت شهوته نحوها وهو بجانبها. سمع حفيف أنفاسها وأحيانا تنهدها. فكر وهما وحدهما فى هذا المكان البعيد الموحش أن يهجم عليها ويضاجعها بالقوة لكنه فكر أيضا فى قوتها ومهارتها فى الألعاب البهلوانية. فكر أن يكتفى بمد يده ويضعها على ما يقابلها من جسمها: صدرها أو ظهرها أو كتفها أو فخذها ليتلمس رد فعلها، لكنه لم يقو على هذا أيضا، فقال أخيرًا:

– تتجوزينى يا نوال.

لم تردَّ وتواصلت أنفاسها فى الصمت المُطبق والظلام الحالك فقال:

- أنا باحبك يانوال، ووافقت عالمأمورية دى لما عرفت انك طالعاها.

لم ترد عليه فقال:

- أنا خايف عليك يا نوال من الشغلانه دى. دى آخرتها موت!!

فقالت أخيرًا:

ماهو فيه حد لازم يقوم بيها، أنا والاَّ غيرى.

- الشغلانه دى مالهاش لازمه من أصله. الانجليز ماشيين بعد عشره خمستاشر يوم بالكتير: كل الناس بتقول كده. يبقى إيه لازمة الموت ده؟

- والناس اللى راحوا فطيس واتقتلوا غدر، ننساهم؟ ومادام الانجليز هيطلعوا بعد عشره خمستاشر يوم يبقى نستنى لما يطلعوا وبعدين وهم طالعين نضرب لهم تعظيم سلام؟!!

- ده كلام أحمد وطن بتاعكوا. قاعد بس يتكلم ويدِّى أوامر والناس قاعدة تموت. وبعد ما تنتهى الحرب يكون احنا بالسلامه وهو اللى هيفوز بالغنيمة.

- طب ماتريح نفسك وترجع انت يا..... هو انت اسمك إيه؟

- سالم.... سالم الدياسطى. قلتِ إيه؟

- قلت ارجع انت، وأنا هكمِّل المهمه لوحدى.

- مش راجع إلا وانت معايا.

مرت فترة صمت ثم تذكرت البيانولا فجأة فقالت:

- هُمَّ الجماعة اللى فى الكامب ده انجليز والا فرنساويين ؟

– من ده على ده.

– أنا ما لعبتش بيانولا قدام انجليز قبل كده. لكن كان فيه فرنساويين كتير ساكنين عند جنينة فريال وقدام المينا. أنا وحسن ياما لعبنا قدامهم وكانوا بيتبسطوا قوى مننا. والله كانوا كُرما معانا يازلومه. «التار» بتاعى ياما لمّ فلوس منهم.

– ماتسيبك من «زلومه» دى يانوال. إنت هتعملى زى العيال التانيه وتنادينى بها كل شويه؟!

لم تردُّ عليه فقال مستدركًا:

– طب ولما انت بتقولى أنهم كانوا كُرما معاك، واقفه لهم كده ليه النهارده؟!

– لأ!! النهارده بقى أنا هالعبلُهم بالنار مش بالبيانولا. الخمسين سيخ دول هاطوحهم عليهم بنارهم، وإنشاء الله الكامب كله هيتحرق.

– ش ش . إسمعى. الضرب اشتغل.

فقالت : نستنى شويه.

*****

أخرجت نوال الأسياخ من الصندوق ووضعتها فى صفيحة قديمة مملوءة بالكيروسين إلى نصفها غامسة الكرات القطنية فيه. اشتد الضرب بعد دقيقة واحدة فوضعت قليلاً من الكيروسين فى فمها ومسكت أول سيخ وأشعلت النار فى الكرة ثم وضعتها فى فمها فاشتعل بدوره. وقال زلومه محتجًا:

– ويقك ده هيفضل مولع كده؟!

لم ترد عليه بل نهضت ومسكت طرف الحبل المثبت بالسيخ وأدارته

بقوة من فوق رأسها هو والسيخ وكرة النار ثم طوحتهم فى الفضاء باتجاه المعسكر، ثم أخذت السيخ الثانى بسرعة ووضعت كرته القطنية فى فمها المشتعل فالتقطت اللهب وعندما توهجت مسكت الحبل وطوحته. ذُهل سلامة لسرعتها الفائقة ومهارتها فى الرمى إذ شاهد بعد فترة وجيزة جدًا كرات اللهب الحمراء يتوالى ارتفاعها فى الفضاء الأسود ثم تتساقط على المعسكر. وبعد فترة قصيرة لم تتجاوز الدقائق الأربع تحسست نوال الأسياخ المتبقية فوجدتها بضعةً قليلة. فقالت وهى تتناول سيخًا آخر وكان اللهب يتراقص فى فمها وهى تتكلم:

– هانِت. هانت يازلومه.

لكن الصياد صاح فجأةً مذعورًا:

– كشافات جايه علينا!! انكشفنا يا نوال انكشفنا. سيبى اللى فى إيدك وورايا.

لكن المرأة وضعت الكرة القطنية المشبعة بالكيروسين فى فمها فأشتعلت وعندما توهجت طوحتها فى الهواء تجاه المعسكر، ثم أخذت الأسياخ القليلة المتبقية وجرت خلف زلومه الذى ظهر واضحًا أمامها وهو يجرى فى ضوء أحد كشافين مسلطين عليهما. كان الرجل يرتدى بنطلونًا أسود وسترة رمادية وطاقية سوداء. لكنها لم تر وجهه بعد.

رأت ضوء أحد الكشافين يمتد أمامها ويتحرك معها فأدركت أنها تجرى فى وسطه كما سمعت صوت محرك السيارة التى كانت تطاردها. انحرفت إلى اليمن فجأة فزاغت من بقعة الضوء. توقفت وأخرجت من جيبها علبة الكبريت وأشعلت كرة أحد الأسياخ المتبقية لأن اللهب انطفأ فى فمها أثناء جريها. رأت بقعة الضوء تتجه نحوها فطوحت الحبل والسيخ والكرة المشتعلة وصوبتهم نحو كشاف العربة المطاردة. بدا أن

كرة اللهب قد أصابت هدفها بالفعل إذ انقطع ضوء الكشاف تمامًا. جرت بأقصى سرعتها فى اتجاه الطريق الأسفلتى وسمعت ثلاث دُفْعات من الطلقات لكنها لم تكن مصوبة نحوها. وقبل وصولها إلى الطريق الأسفلتى سمعت محرك سيارة ثم رأت بقعة الضوء حولها وهى تجرى. انحرفت هذه المرة إلى اليسار ثم توقفت. أشعلت عود كبريت ثم أشعلت به كرةً أخرى وقبل أن تطوحها صُوِّب نحوها عدة دفعات من الطلقات فسقطت.

*****

فى صباح اليوم التالى للعملية اتصلت قوات الحلفاء بالدكتور يزدى وطلبوا منه إبلاغ السلطات المحلية أن تحمل الجثث الملقاة فى الجهة الشمالية من معسكر الجولف. ولما كان ممنوعًا على المصريين التحرك لأبعد من هذا جنوبًا فقد قامت سلطات الاحتلال بحمل جثتى رجل وامرأة قُتلا فى الجنوب وضموهما إلى باقى الجثث المتناثرة فى شمال المعسكر.

كانت عملية كبيرة قُتل فيها إثنان وأربعون رجلاً، وامرأة واحدة. لم يُعرف عدد القتلى من الأعداء، وقد أنكروا كدأبهم وجود أى قتلى لهم. لكن المؤكد أن كمية كبيرة من ذخائرهم قد دُمرت.

*****

١٦ محاولات أحمد وطن للهروب

فى فجر اليوم الرابع من لقاء السيد الدهشان بالسيد الطناحى ثم بالدكتور يزدى طوق الانجليز والفرنسيون ثمانية مربعات سكنية واقعة فيما بين شارعى التجارى والشرقية عند تقاطعهما بشارع الدقهلية بحثًا عن أحمد وطن الذى عُرف أنه كان يختبىء هناك.

بدوا مصممين على الإمساك به هذه المرة إذ جاءوا بأكثر من ثلاثين عربة مصفحة زودت اثنتان منها بمعدات لاسلكية، وبقوة من الجنود لا تقل عن ثلاثمائة انتشر منهم مائة فى الشوارع ومائة فوق الأسطح ومائة لتفتيش المنازل غرفةً غرفة وكان أحمد وقتئذٍ نائمًا بالفعل فى إحداها فأيقظه رَفْله وأبلغه بالحصار وبعدد الجنود والمصفحات المحاصرة للمنازل المحيطة فقال وهو يخلع منامته:

– كُتار كده؟! طب وإيه العمل الوقت؟

– هتهرب من المناور.

– من المناور؟!

– أيوه من المناور. بس دى عايزه شوية جرءة وخِفّة رِجْل لإنك هتنُّط من بيت لبيت . بس ماتخافش. أنا هانَطّطك من حتت سهلة وكويسه.

– طب وبعد ما أنط عالبيت التانى؟

– هتفضل تنط من بيت لبيت لغاية ما يمشوا.

نظر أحمد إليه مندهشًا فاستطرد رفله موضحًا:

– بص يا سيدى. إحنا حنقعد فى الأوضه دى. ولو الانجليز والفرنساويين دخلوا البيت تحت هتوصلنا إشاره بكده. ساعتها هَنُّط عالبيت اللى قدامك ده.

– يعنى! ماهو مفيش طريقة تانيه إلا كده. والا إيه؟

– هى دى الطريقة الوحيدة اللى هتخليك تفلت من إيديهم. طريقة الهروب من الأسطح اللى متعودين عليها، مش هتنفع النهارده لأنهم مترشقين فوقها زى الرُّز. بَس حُط فى بطنك بطيخة صيفى. إحنا حافظين المناور دى صم، والنط فيها لعبتنا.

توقف رفله عن الكلام وخرج من الغرفة ثم عاد ومعه طبق جبن وزيتون ورغيفا وقال:

– غير ريقك بِلُقمه. أنا الوقت طالع فوق عشان أخلى أمى تعمل لنا كوبايتين شاى.

– طب بسرعة والنبى يا رفله. دول ممكن يطبُّوا علينا فى أى لحظة.

– ماتخافش! أنا مش قلت لك إن ساعة ما هيعتبوا باب البيت من تحت هتوصلنا إشارة على طول؟

– هى الإشارة إيهالنهارده؟

– الوله مسعد الطرابيلى هيقلد صوت الديك.

– طب ماهو العشش هنا مليانه ديوك، وكلها بتأدن!

– لأ ماتخافش. صحيح انه بيقلد صوت الديك بالظبط. لكن أنا أعرفه من بين ميّه.

*****

كان رفله يعمل فى ثلاجة حفظ اللحوم العملاقة التى يمتلكها لطفى شباره فى شارع ممفيس، وقد ضمه أحمد وطن إلى إحدى مجموعاته لظرفه وخفة ظله لكنه أثبت بمرور الوقت وتوالى العمليات أنه من أكثر أفراد المجموعات شجاعة وقدرة على تنفيذ أى عملية.

كان متوسط الطول نحيل البدن. أشقر، بوجهه نمش قليل وشعره ليفة صفراء سببت له الكثير من المشاجرات مع رفاقه فى الحارة وزملائه فى العمل.

كان الوشاحى أقرب أفراد المجموعة إليه، ونادرًا ما شوهد أى منهما بدون الآخر، وإن كان الإثنان يتشاكسان أحيانًا بالألفاظ خاصةً أمام الآخرين بغرض الإضحاك فقط.

خرج أحمد من الغرفة إلى الشرفة. كانت صغيرة جدًا ومع ذلك بُنى بأحد جانبيها عشة دواجن لم يكن بها ساعتئذٍ سوى بضعة كتاكيت. جلس فى الجانب الآخر للشرفة على مقعد خشبى صغير ونظر من وراء ستارة صغيرة إلى مساقط النور والمنازل المحيطة.

كونت مساقط النور المتصل بعضها ببعض فراغًا كبيرًا تُطل عليه نوافذ وشرفات أكثر من ثلاثين منزلاً. كانت كل الشرفات خشبية، وبُنى فى معظمها عشش دواجن ودواليب معلقة أو بأرجل، وأمام الشرفات والنوافذ مُدّت حبال غسيل فى ثلاثة صفوف أو أربعة أو خمسة. عند

بعض النقاط تكاد الملابس المنشورة عليها أن تلامس الملابس المنشورة على حبال الشرفات المقابلة، أما ساعة هبوب الرياح فكانت تلتف وتتشابك .

فكر فى ياسمين وأبيه وأمه وأخته وفى الإنجليز والفرنسيين وفى القتلى والصور التى التقطها لهم وفى يسرى الداوودى وداڤيد هيرست ومارى ونوال وفى العملية الأخيرة التى استُشهدت فيها والتى قال الكثيرون أنها كانت عملية طائشة قتل فيها أكثر من خمسين رجلاً بدون داع، وقد أوصل البعض الرقم إلى خمسمائة وأكدوا أنه الرقم الحقيقى لكن السلطات المحلية أخفته حتى لا تهتز عروش المجد التى بُنيت والنصر المبين الذى أصبح على بعد خطوات قليلة.

*****

عاد رفله بصينية فوقها كوبين، وضعها فوق العشة فمد أحمد يده وتناول أحدهما ثم تناول رفله الآخر وجلس على أرض الشرفة ساندًا ظهره إلى العشة وقال بعد الرشفة الثانية:

هُمَّ مش بيقولوا ان ولاد دين الكلب دول هيطلعوا بعد كام يوم؟ لازمته إيه بقى الحاجات اللى بيعملوها دى؟! صعبان عليهم إلكام واحد اللى ماتوا لهم؟! طب ما همَّ موتوا لنا.......

– ش ش . إستنى يا رفله. أنا سمعت ديك بيأدن.

– مش هو. مش قلت لك ماتخافش. أنا بأقول لك أنا أعرف صوت الوله مسعد ده من بين ميت ديك.

سمع الإثنان صافرة فم فقال أحمد:

– متهيألى دى صفارة محمد الوشاحى؟

– هى بعينها. يبقوا دخلوا بيتهم وبدأوا يفتشوه. دارى نفسك كويس ورا الستاره دى والاّ ادخل جوه.

رجع أحمد إلى الخلف قليلاً وأرخى الستارة كلها إلا من فتحة صغيرة استطاع أن يرى منها بيت محمد الوشاحى المكون من ثلاثة أدوار. رأى بعد قليل جنديين يدخلان شرفة الدور الأول وفتشا فى عشة الدواجن المبنية فيها وبعد دقيقة رآهما يدخلان شرفة الدور الثانى وبعد دقيقة أخرى دخلا شرفة الدور الثالث وفتشاها. وبعد دقيقتين سُمعت صافرة الوشاحى فقال رفله:

– أهم خلصُّوا تفتيش فى بيت الوشاحى وخرجوا منه.

وما إن أنهى رفله كلامه حتى سمعا صوت ديك فقال رفله:

– بس. أهُوَّ ده. الانجليز دخلوا بيتنا. ياالله بينا. أنا هانط الأول وانت ورايا. أحمد، إبقى نط ولا يهمك. أنا والوشاحى هنكون واقفين لك ومادين لك إيدينا.

قفز رفله بسرعة ورشاقة وكان الوشاحى معتليًا سور البلكونة الخشبى منتظرًا أحمد وطن عندما يقفز. أشار إليه رفله أن يقفز، وفوجىء أنه لم يتردد فى القفز وان كانت قدمه قد أخطأت سور الشرفة فسقط جسمه وسط حبال الغسيل فمد رفله يده بسرعة فائقة إلى حزامه ومسكه، كما التقطه محمد الوشاحى من قميصه. رفعه الإثنان إلى داخل الشرفه ثم إلى داخل المنزل، وقال رفله مازحًا:

– برافو عليك يا أحمد والله. النطّه إجت كويسه. هى مش مظبوطه قوى، لكن أهى برضه كويسه وخصوصًا دى أول مره تنط فيها.

*****

كان عليهم ألا يتحركوا من بيت الوشاحى إلا إذا سمعوا صافرة أخيه بُلبل فيقفزون إلى بيت آخر، أو صافرة السعيد شرف التى ستعنى أن الجنود والعربات المصفحة قد غادروا المكان تمامًا. وقال الوشاحى لرفله الذى كان أفضل من يتقن عمل الشاى:

– ماتفز ياله وقوم اعمل لنا كوبايتين شاى.

– أنا اللى أعمل؟! ماتقوم تعمل انت. هو بيتنا والا بيتكم؟

– قوم يارفله. البابور عندك فى المطبخ والشاى والسكر.

أذعن رفله أخيرًا ونهض لعمل الشاى وقبل أن يخرج من الغرفة قال الوشاحى وهو يبتسم:

– رفله ، ماتنساش تغسل الكوبيات بالليفه.

توقف رفله فجأة واستدار إلى الوشاحى وقال:

– طب وحياة أمك ما أنا عاملِّك.

وبعد قليل رجع بصينية عليها كوب شاى واحد وكان يمسك بكوب آخر فى يده حتى لا يخطفه الوشاحى منه. تناول أحمد كوبه ودخل إلى الشرفه وجلس خلف ستارتها بينما جلس رفله والوشاحى قبالته. وضع الوشاحى راحة يده فوق رأس رفيقه وتحسس شعره وقال:

– حرير يا أستاذ أحمد!

فرشف رفله الشاى بصوت عال ومصمص شفتيه وقال:

- يا سلام عالشاى!! أعملك كوبايه تانيه يا أحمد.

*****

قال أحمد وطن وهو يجيل بصره بين المنازل والشرفات:

- سُبحان الله. قُرب البلكونات دى من بعضها وشكلها المِلخبط ده هو اللى مخللينى أقدر أهرب الوقت. قبل كده ما كانتش عاجبانى. يعنى..... على أساس إن خصوصية السكان ممكن تنجرح كده.

اعترض رفله وقال رافعًا يده اليمنى:

- يُوه يا أحمد ! خصوصية إيه وتنجرح إيه؟! وضع البلكونات كده تمام. دى لو كانت غير كده، ماكُناش سمعنا الغَنج فى نص الليل ولا شفنا مناظر السكس اللى ياما عملنا عشرات عليها. كده والا لأ يا وشاحى؟

استشاط الوشاحى غضبًا فقال:

- إيه الكلام الوسخ ده يابن الكلب؟ ده كلام يتقال برضه؟

واستدار لأحمد وطن وقال:

- إنت أخدت الزفت ده فى المقاومة ازاى يا أستاذ أحمد؟

فضحك أحمد وقال:

- لأنه بِسبع ترواح يا وشاحى. وانت شُفت ده بنفسك.

وقال رفله مبتسما ومُغيظًا الوشاحى:

–قال يعنى الوله مابيعملهاش كل يوم. طب بزمتك إنت بتـ.....

– هُس. استنى. دِى صفارة الوله دِعبِس.

فوافقه رفله قائلاً:

– أيوه هى... هى.

وتوالت الصافرات التى أشارت إلى دخول الإنجليز والفرنسيين إلى هذا المنزل أو ذاك ولم تتوقف إلا فى الساعة الخامسة عندما سُمعت صافرة انسحاب الجنود والمصفحات من المربعات الثمانية وقد تبعهم أفراد المقاومة أثناء انسحابهم إلى أن دخلوا معسكر الجولف. وهرب أحمد وطن من المنطقة خشية أن يداهموها فى أى لحظة بالليل وهو فيها.

*****

اختبأ أحمد وطن يومين فى أحد منازل الجزء الذى لم يدمر من شارع عبادى وأيقظه رفله فى السادسة صباحًا وأخبره أنَّ عليه أن يهرب بسرعة من هذه المنطقة أيضا لأن الانجليز والفرنسيين سيطوقونها فى أى لحظة قريبة: فقال أحمد وهو يخلع سروال منامته:

– وانت عرفت ازاى انهم جايين؟

– الوله عليوه قال لى. أنا وهو كنا سهرانين امبارح بنشرب بيره على سطح بيتهم. بس طبعًا ماقدرتش أجيلك إلاَّ الوقت عشان الحظر.

– عليوه أخو حميدو اللى مع السيد الطناحى؟

– أيوه هو. إنت عارف إنه صاحبى الروح بالروح وطول عمرنا متربيين مع بعض فى الحارة. بس كان كل شويه يحلفنى ما أقولش لحد

إن جماعة السيد الطناحى ولاد دين الكلب هُمَّ اللى بيجسسوا عليك وهُمَّ برضه اللى بلغوا عن مكانك فى شارع الشرقية. وبرضه عرفوا انك هنا وهيبلغوا عليك بس عايزين يتأكدوا الأول وميه فى الميه، عشان الانجليز مايجوش على فاشوش زى أول امبارح.

خبط رفله دولاب الغرفة التى كانا فيها وقال غاضبًا:

- شفت بقى السيد الطناحى وفرقته؟! طب واللى خلقنى لانى مطلّع دين أمهم واحد واحد. بس الحرب دى تخلص.

ارتدى أحمد ملابسه فى أقل من دقيقتين وقال رفله وهما على الدرج:

- هنروح على فين يا أحمد؟

- لأ رَوّح انت يا رفله. وأنا الوقت رايح لابراهيم خليفة لأنى خلاص لازم أمشى من البلد، وابراهيم هو اللى هيساعدنى، وكمان هاكلفه إن ياسمين وبابا يقابلونى قبل ما أمشى.

*****

رتب إبراهيم خليفة للمقابلة الأولى التى ستكون فى محل أحذية حسنى أبو العطا القريب من حديقة سعد، كما ذهب لإحضار بهجت المصور ليغير شكل أحمد وطن لكنه لم يجده فأحضر معه وهو عائد سُترة كناس الشارع وطاقيته ومقشته وزمبيله إذ سيجعل أحمد يتنكر فى هيئة كناس وهو ذاهب لمقابلة ياسمين.

فى الطريق إلى محل حسنى أبو العطا كنس أحمد وطن أجزاء من بعض الحوارى وجمع بعض قمامتها إلى أن شعر أن جسمه قد فاح برائحتها، وعندما وصل ترك المقشة والزنبيل فى الخارج وكشف عن نفسه لحسنى.

– والله ماعرفتك يا أستاذ أحمد. انت عليك ملاعيب ولا ملاعيب حافظ رمضان. عارفه؟..... إللى عمل حكمدار وسرق البنك الأهلى والظباط عظموه وهو خارج؟

– سمعت عن حاجة زى كده يا عم حسنى.

– طب خش انت الوقت عالحمّام واقلع البتاعة اللى انت لابسها دى واغسل إيديك كويس، ووشك وشعرك كمان. الريحة عندك على رف الحوض، وأنا هاقعد عالباب أستنى الآنسة ياسمين لما تيجى.

ورث حسنى أبو العطا عن أبيه ثلاثة منازل ومحلين أحذية ومرض السكر. با ع منها منزلين ومحلاً للإنفاق على النساء والوفد. وعندما قامت الثورة توقف إنفاقه على الوفد بطبيعة الحال كما فترت رغبته الجنسية بسبب الإحباط السياسى. وإن كان طبيبه قد أسرَّ له أن فتوره يمكن أيضًا أن يكون أحد مضاعفات مرضى السكر. لكن الرجل ظل وفديًا بقلبه ولم يمت حلمه فى أن يخرج المارد من قمقمه ويحكم البلاد مرة أخرى فتسود الديمقراطية والحرية كما سادتا فى عهدى سعد والنحاس. وعندما وقع العدوان تأججت عاطفته الوطنية مرة أخرى ووجدت متنفسًا لها فى مساعدة شباب المقاومة وكان أحمد وطن أقربهم إلى قلبه ونفسه.

حضرت ياسمين فى الساعة الواحدة تمامًا ومع أنها وأحمد وطن كانا سويًا فى منزل سامى الشريف منذ ثلاثة أيام فقط فإنهما تعانقا عناق عاشقين طال افتراقهما سنة كاملة.

نظر حسنى أبو العطا إليهما وقال فى نفسه:

– ياخسارة يا حسنى ! لو كنت ضامن إن كان ممكن أجيب ولد

زى ده كنت أتجوزت من زمان. فيه كل حاجة حلوه حبتها وباحبها: الوطنية والجرأة وحب النسوان الحلوه....

أثاب الرجل إلى نفسه فدخل المحل وقال لأحمد وطن:

– باقول لك إيه يا أحمد. خد البس الكاب ده والچاكته دى... دول بتوع موظف المحل اللى بيقيس للزباين، واقعد على الكرسى الصغير ده قدام الآنسة ياسمين وإدى ظهرك للشارع عشان ماحدش ياخد باله يعنى. وكمان هاجيب لك سبع تمن صناديق جزم تحطهم جنبك عشان تعمل انك بتقيس لها.

*****

جلست ياسمين على كرسى وجلس أحمد على الكرسى الصغير أمامها بعد أن ارتدى زى عامل محل الأحذية وقال لها:

– وحشتينى يا ياسمين الكام يوم اللى فاتوا دول.

ابتسمت الفتاة وقالت:

– وانت كمان يا أحمد، ..... وعامل إيه؟

– الحمد لله كويس. أهو.... أدينى قاعد أهرب من بيت لبيت ومن حتة لحته. وكل مره بشكل.... زى ما انت شايفه كده.

– معلش يا أحمد، هانت. كلها كام يوم ويمشوا. بابا متأكد من كده.

سمعا حسنى أبو العطا يتحدث مع امرأة خارج المحل. قالت له المرأة:

– .... وجبت لى الجوز اللى قلت لى عليه ياعم حسنى؟

– لسه والله يا مدام. أنا رايح المخزن بعد الضهر وانشاء الله هالاقيهولك. عدِّى على بكره زى الوقت.

فكر أحمد أنه لا يجب أن يبقى طويلاً فى المحل فقال مفاتحًا ياسمين فى الموضوع الذى طلب مقابلتها من أجله:

ياسمين، أنا قررت أمشى من البلد. أهرب يعنى.

مسكت الفتاة يده وقالت:

– تعرف يا أحمد إنى كنت هاقترح عليك الاقتراح ده. قعادك فى البلد بقى فيه خطورة كبيرة عليك. عشان كده لازم تمشى. بابا نفسه قال ان الانجليز والفرنسيين مش هيسكتوا إلا لما يمسكوك. ولو كانوا صحيح طالعين بعد كام يوم يبقى لازم نتوقع انهم هيدوروا عليك زى المجانين.

– أنا عارف ده وكل الناس عارفه كده برضه.

– وفكرت هتهرب ازاى؟

– إبراهيم خليفه اقترح انى أهرب عالمطريه النهارده بالليل، يا إما بفلوكه صغيره مع واحد يكون بيجدف كويس أو آخدها مشى فى البحيرة مع صياد يكون عارف الأماكن اللى ممكن نمشى فيها، وفيه أماكن قُليله لازم نعومها.

– هتبقى مجازفة خطيرة جدًا لو خرجت بفلوكه. الانجليز والفرنسيين لسه بيقوموا بدورياتهم فى البحر والبحيرة وكمان مستحيل تاخدها مشى وعوم فى البحيرة لغاية ماتوصل المطرية.

- أنا مش هاقطع المسافة دى كلها. ده فيه مراكب صيد بتطلع من المطرية، ودى ممكن أقابلها واركب فيها بعد خمسه سته كيلو بس من هنا.

- ولو ! ده انت تهلك من التعب والبرد.

صمتت قليلاً ثم فرقعت إصبعيها الإبهام والوسطى لفكرة طارئة فقالت:

- أحمد أنا هاطلّعك بره بورسعيد بعربيتى عن طريق دمياط. بعربيتى دى وبالتصريح ده ممكن أعدّيك من كتيبه بحالها. المشوار كله مش هياخد منى نص ساعة رايح جاى. أنا مش هاوصلك لغاية دمياط، أنا بس هاعديك لبعد نقطة التفتيش اللى بعد الجميل وبعدين أرجع على طول. كويس؟

ظل صامتًا فقالت:

- إيه يا أحمد ساكت ليه؟

- مش داخل مخى الكلام ده.

- ليه؟!!

- ممكن تتعرضى لحاجة كده والا كده.

- ماتخافش أبدًا. أنا لو ماكنتش واثقة من نجاح الفكرة دى ماكنتش قلت لك عليها.

وأضافت بسرعة إذ رأته صامتًا:

- بكره هنمشى الساعة كام؟

لم يرد عليها وأطرق بوجهه إلى الأرض ثم رفعه إليها بعينين حائرتين فقالت:

- إيه يا أحمد قلت إيه؟

فقال أخيرًا:

- بكره الصبح الساعة تمانيه، كويس ؟

- كويس قوى. وأجيلك فين؟

- قدام بيت ابراهيم خليفه.

- ممتاز! وعلى فكره ماتنساش تغير شكلك شويه وتعمل راجل عجوز وعيان عشان هابقى أقول لهم إنى آخداك أعالجك فى مصر.

فضحك أحمد وقال:

- مش عارف حافظ رمضان عمل الحكاية دى والا لأ.

- مين حافظ رمضان ده؟

- لأ ده واحد كان معروف بتنكراته الكتيره.

ثم سمعا حسنى أبو العطا يقول لزبون:

- والله ياحاج أنا هاقفل على طول بعد الزبونة دى ما تخلّص عشان عندى مشوار مهم. تجى لى بكره الصبح وهتلاقى طلبك بإذن الله.

*****

غادرت ياسمين المحل إلى سيارتها وبعدها بدقيقة واحدة غادره أحمد فى ملابس الكناس إلى مطعم فول سرحان بشارع الحميدى وهناك

قابل أباه وأخبره بخططه الثلاث للهرب فلم يوافق على أى منها أو على فكرة الهرب فى حد ذاتها:

– فلوكة إيه ومَشْى فى البحيره إيه؟! دول بيسمعوا دبة النملة وهى ماشيه. أما من ناحية ياسمين، فالبنت على عينى وعلى راسى، وأنا متأكد انها خايفة عليك وعايزه تعديك فعلاً. بس طريقتها برضه مش مضمونة. الانجليز دول ولاد حرام. ده انت لو ركبت فى عربية ليزابيس بتاعتهم برضه هيعرفوك.

– لأ يابابا. من الناحية دى اطمن خالص. ياسمين زى الدكتور يزدى بالظبط. تقدر تعدى من أى جتة ومع أى حد. دى من أسبوعين سافرت مصر مع أبوها عن طريق دمياط عشان يجيبوا دوا وكان معاهم عيان حالته صعبة قوى. خدوه معاهم عشان يتعالج فى مصر. وعلى فكره هى اللى كانت سايقه مش أبوها.

– أنا والله ما سمعت بحاجة زى كده!

– هى كانت قالت لى، بس أنا نسيت أقول لك ساعتها.

لكن نظرات الأب لم تفتأ تكشف عن عدم ارتياحه فقال أحمد:

– أنا ماقداميش غير كده! دول ضيقوا الخناق على خالص.... متهيأ لى مش هاقدر أفلت منهم أكتر من كده.

– طيب يا أحمد. الأمر لله.... بس ماتنساش أول ماتوصل دمياط إبقى بلغنى، بأى طريقة يعنى.

– حاضر يابابا. إتفضل حضرتك الوقت وأنا هامشى بعديك على طول.

*****

توقفت سيارة ياسمين فى تمام الساعة الثامنة صباحًا أمام منزل ابراهيم خليفه. كان ابراهيم ينتظرها، وبجانبه عجوز معمم يتدثر بمعطف رمادى قديم وله شارب أبيض كثيف وعلى عينيه نظاره سوداء بعدسات سميكه جدًا.

فتح إبراهيم خليفة باب السيارة الخلفى وركب العجوز فانطلقت السيارة. وقالت ياسمين وهى تبتسم وتنظر فى مرآة صالون السيارة:

– شكلك تحفه يا أحمد! بقيت شخصيه تانيه خالص. إبراهيم هو اللى عمل كده؟

– لأ ده بهجت المصوراتى. جانى النهارده الصبح بدرى وقعد ساعة معايا لغاية مابقيت كده.

– ومأأخدلكش صورة على كده؟

– هى دى كانت تفوته!!.... إنت رايحه كده على فين؟

– على طريق دمياط.

– ماتاخدى طريق البحر أحسن بدل ماتمشى فى وسط البلد كده.

– وهو كذلك.

*****

١٧ المطاردة الأخيرة

الطبيعة حول بورسعيد بحر وسهل قاحل؛ لا توجد أراض زراعية أو مروج خضراء أو جبال أو تلال. على امتداد البصر وحتى الأفق البعيد لا يوجد غير زرقة البحر والبحيرات ولا غير الشواطىء والسهول البيضاء أو الرمادية أو السوداء. إنها ألوان السماء في صفائها وتكدرها وإظلامها انطبعت على تلك البقعة التي سميت بورسعيد والتي حُرمت من ألوان الطبيعة الزاهية الأخرى، الحمراء والخضراء والصفراء التي عادةً ما تضفي البهجة أين توجد. حتى الأعشاب التي تنمو على جزر بحيرة المنزلة يتوارى خضارها تحت رمادية طاغية تذبل في بداية الشتاء ولا تلبث أن تختفي لعدة أشهر تحت الماء. وليس حظ الطيور المحلية من الألوان بأفضل من ذلك، إذ تتراوح بين الرمادي الداكن والبني الكالح ولاتضيف شيئا سوى حركتها وأصواتها على البحيرة الساكنة. ولا يبعث الأمل في بهجةٍ محتملة سوى الطيور المهاجرة الزاهية الألوان التي تأتي في الخريف لكنها للأسف لا تُرى كثيرًا أو لمدد طويلة في المنطقة إذ ما إن تصل متعبةً حتى تحط في أقرب بقعة معشبة وعادةً ما لا يحلق معظمها ثانيةً بسبب الفخاخ والشباك التي تنصب لها.

فإذا ما دخلت المدينة فستجدها مختلفة عن بيئتها الطبيعية. فالحدائق والمسطحات النجيلية الخضراء منتشرة في كل أرجائها، والشوارع مزروع على جانبيها وأحيانا في وسطها أشجار وشجيرات

مزدانة بأزهار يانعة متنوعة الألوان. وإذا كنت قادمًا بقارب أو فى سفينة إلى مينائها فستطالعك أشجار النخيل الباسقات متراصة بأعداد هائلة بطول شارع ٢٣ يوليو الموازى لشاطئها، ثم أشجار الفيكس الكثيفة الأوراق بطول شارع السلطان حسين كامل الموازى للميناء. وفى الميناء سترى النوارس النواعب البيض بياض الجليد إلا من زغب أسود يطوق أعناقها وهى تحلق فى السماء أو تنقض على سطح الماء لالتقاط صيدها.

*****

بورسعيد مدينة حديثة ومنظمة. شوارعها نظيفة ومستقيمة ومرصوفة رصفًا جيدًا. تتميز عماراتها ببواكى ذات نمط معمارى فريد تزيدها جمالاً ولها فائدة عملية يلمسها الناس صيفًا إذ تقيهم من ضربات الشمس المحتملة، وتكون بمثابة ممرات هوائية يتلطف الجو فيها كثيرًا، وفى الشتاء تحمى المارة من الأمطار الهاطلة وتخفف من عصف الرياح الباردة التى تلفح الوجوه والأبدان لفحًا.

شارع سعد زغلول أو «الثلاثينى» هو أهم شوارعها وقلبها النابض بالحياة والحركة. يسكنه ـ تجاورًا وليس اختلاطًا ـ كل الفئات والطبقات والأجناس، وهو طويل جدًا وينقسم إلى ثلاثة أقسام. قسم يقع فى حى الإفرنج ويبدأ من معدية بورفؤاد شرقًا حتى شارع محمد على ويسكنه الأوربيون والمصريون الأثرياء فى عمارات فاخرة، يليه حى العرب ويبدأ من شارع محمد على حتى شارع الأمين وتسكنه الطبقة المتوسطة الكبيرة الحجم المتنوعة الدخل ثم المناخ الذى ينزوى خلف جامع صالح سليم وبعض المبانى الحكومية القديمة وهو يأوى الطبقات الفقيرة والمعدمة فى أكواخ من الصفيح والخشب وتنتشر فيه حظائر الخنازير، ولايزال فيه

عدد من المواخير التى تبقت مما كان يعرف «بالمحطة»[1] أو الكراخانة بالتركية. ثم يمتد الشارع إلى مابعد ذلك لإيواء الأموات. ففى أقصى الغرب وبعد انتهاء حى المناخ يبدأ سور جبانة الأوربيين يليها جبانة الأقباط ثم جبانةالمسلمين بعدها يتحول الشارع إلى مايسمى بطريق دمياط الذى تزحف إلى جوانبه من ناحية البحر الأمواج الصاخبة التى ما إن يجىء الشتاء حتى تزداد قوة وارتفاعًا فتضربه بعنف وتفيض على جادته. وتختلف الصورة اختلافًا كبيرًا فى الناحية الجنوبية من الطريق إذ هاهى بحيرة المنزلة ترقد هادئةً صامتة فتكون جزرها مهجعًا وملاذًا للطيور المهاجرة بعد طيران استمر آلاف الكيلومترات.

*****

توقفت السيارة عند نقطة تفتيش قبل جبانة الأوربيين بعدة أمتار. أقبل عليها ملازم أول فأعطته الفتاة تصريح مرورها. قرأه الضابط الشاب ثم قال وهو ينظر داخل السيارة:

- What about him?

- He's a patient of my father's. He is sending him to Cairo to be treated there.

- Are you going as far as Cairo?! It's a long way from here, I suppose.

- No. I'm only taking him to Damietta Hospital.

فقال وهو يبتسم:

_ Oh, that's more reasonable. Good luck.

---

(١) أى مكان الانحطاط.

- Thank you very much, sir.

تحركت السيارة وقالت ياسمين وكان وجهها مشرقًا بسعادتها البالغة:

– إيه رأيك؟.. مش كده أحسن؟

– أحسن بكتير!!

– إنت خفت لما الضابط إجه علينا؟

– إم م . يعنى. شويه.

*****

كان الجو باردًا والشمس تطلع ثم تختفى وراء سحب بيضاء كثيفة. سمعا أمواج البحر على يمينهما وشاهدا أسراب طيور مهاجرة فى طريقها إلى البحيرة، وعلى بعد كيلومترات قليلة من الشاطىء شاهدا سفن الأسطولين الانجليزى والفرنسى رابضة فى مياه البحر وأعدادًا هائلةً من طيور النورس تحلق عندها. فقال أحمد:

– خلاص، كلها يومين ويمشوا والنوارس دى ترجع وتطير فى المينا تانى. وكمان الدرافيل هترجع وتعمل حركاتها البلهوانية قدام المراكب وحواليها.

فقالت ياسمين ولم تكن الابتسامة قد فارقت وجهها:

– وكمان هنجرى على حجر ديليسبس ونطّلع الطوابى ونصطاد اختينيا من هناك.

وصمتت لحظة قصيرة ثم قالت:

– بورسعيد حلوه والله يا أحمد.

– طبعًا ما انت لازم تشهدى لها. مش طول عمرك عايشه فيها؟

– لا والله مـاهو عـشـان كـده بس. إنت عـارف إن بابا لفـفنا بلاد كتيره. وماعجبنيش إلا بورسعيد. وهو من ناحيته كان يقدر يستقر وينجح فى أى مكان. يعنى كان ممكن يقعد فى القاهرة نفسها ويكسب فيها أكتر من هنا بكتير بس هو ارتاح لبورسعيد خالص، أما ماما فبتقول إن بيروت أحسن بلد فى الدنيا لكن بتحمد ربنا إن بابا جابها تعيش فى بلد زى بورسعيد.

– شامه ريحة اليود اللى طالعه من قشر أم الخلول؟

– ماهى فايحه أهى! فى الشتاء بتبقى مقبولة بس فى الصيف بتبقى فظيعة.

– بتحبى أم الخلول دى يا ياسمين؟

– أحبها مملحة بس. وبالمناسبة إنت أكلت البكالاه قبل كده؟

– لا لا بكالاه إيه؟! الإجريج والأجانب عمومًا هُمَّ اللى بيعملوه. وفيه ناس فى مصر برضه بتعمله. إنما احنا فى بورسعيد مابنعملوش. الأسماك الطازة ألذ بكتير.

– طب أنا هابقى أخلى ماما تعملك أكلة بكالاه. وابقى قولى رأيك فيها.

– ياريت كمان تدوقينا أكله لبنانية من إيديها. الواحد بيسمع ان اللبنانيين شطار فى الطبيخ والحلويات، وأنا لاشفت لاده ولا ده. والا ده كلام وبس؟

– لا والله يا أحمد. دى ماما بتعمل أكل ماحصلش، حاضر ياسيدى. هابقى أخليها تعمل لك غدوه محترمة.

- بس أوعى تجيبى لى أكل من مطعم صوفر وتقولى لى ماما هى اللى عملته.

ضحكت ياسمين ضحكًا عاليًا متواصلاً حتى أدمعت عيناها ثم قالت:

- كده برضه ياأحمد. طب بس لما تقلع العمه والشنب الأبيض اللى أنت لابسهم دول... وعلى كل حال هتشوف بنفسك إن لا أكل صوفر ولا أكل مكسيم حتى هييجوا حاجة جنب أكل ماما.

- مكسيم ؟! مين..

- إستنى يا أحمد. فيه نقطة تفتيش جاية.

قللت السرعة ثم توقفت عند النقطة. كان هناك سيارة مصفحة عليها مدفع صغير سريع الطلقات وخلفه أحد الجنود، وسيارتان چيب إحداهما مكشوفه مزودة بلاسلكى وبها أربعة جنود. خرج من السيارة الچيب الأخرى ضابطان، أحدهما صاغ والآخر ملازم. أقبل الصاغ نحوها فأعطته التصريح وقالت:

- I'm taking this man to Dammietta.... for medical treatment.

لم يلتفت الضابط إلى المريض الذى أشارت إليه وقال:

- Well, miss Yazdi. I think it's not safe to leave you go. you must return home. Meanwhile we'll see that some fishermen around here take him on to Dammietta.

- But he is ill, sir.

- I'm sorry , Miss. You must leave him here and go back.

قال أحمد وطن هامسًا من الخلف:

- ياسمين. إرجعى انت واعملى اللى بيقول عليه. وأنا هاتصرف.

ظلت صامتة فقال منفعلاً:

- إسمعى اللى باقول لك عليه وارجعى انت.

وفتح أحمد وطن الباب وخرج من السيارة، وأومأ الصاغ إلى الملازم فتقدم نحو سيارة ياسمين وركب بجانبها وطلب منها أن تستدير بالسيارة وتتجه إلى بورسعيد. استدارت ياسمين بالسيارة ثم قالت لأحمد وطن وقد حرصت على ألا تنطق باسمه أمامهم:

- ماتخافش. بابا هيعمل اللازم وبسرعة.

تحركت السيارة فى اتجاه بورسعيد واختفت بعد وقت قصير. اتجه الصاغ إلى السيارة الجيب وقبل أن يركبها أومأ إلى أحد الجنود. نزل الجندى ببندقيته الرشاشة ومشى نحو أحمد وطن ونزع عمامته فظهر شعره الأسود ثم نزع شاربه الأبيض وقال وهو يشير باتجاه دمياط:

- Move on, bastard.

نظر إليه أحمد ولم يتحرك أو ينبس فقال الجندى:

- You were going to Dammietta, weren't you? O.K. keep going.

- I am not going to Dammietta. I will go back to Port Said.

- So you'll go back to Port Said. O.K. you can go wherever you like.

نظر أحمد باتجاه طريق دمياط ثم أدار رأسه ومشى فى اتجاه بورسعيد. وبعد ثوان قليلة صوب الجندى المعتلى السيارة المصفحة مدفعه نحو أحمد وطن ثم جذب الزناد فانطلقت الرصاصات إلى جسمه.

نزل جنديان من السيارة الچيب واتجها إلى الجسم الملقى على جانبه الأيمن. حركه أحدهما بحذائه فرأى وجهه فقال للضابط:

- Dead, major.

حمل الإثنان الجثة ومشيا بضعة أمتار نحو البحر وألقيا بها وسط الأمواج.

*****

عندما غادرت ياسمين نقطة تفتيش الجميل قادت سيارتها بسرعة كبيرة ولم يتكلم الضابط الجالس بجانبها فوصلت فى أقل من ثلاث دقائق إلى نقطة تفتيش الجبانة حيث نزل الضابط وواصلت هى سيرها المسرع إلى عيادة أبيها ولم تتردد فى إبلاغه بما حدث رغم خزيها فقال الرجل غاضبًا:

– العمل اللى عملتيه ده ماكانش له أى مبرر يا ياسمين، لأن فيه مساس بسمعتك وسمعتى. مافكرتيش فى كده؟ ومافكرتيش كمان إن كان ممكن يكون فيه خطورة على حياتك نفسها؟

بكت الفتاة ولم ترد فقال الأب وكان لايزال منفعلاً وغاضبًا:

– الواحد يساعد مساعدات معقولة ، وماتكونش على حسابه بأى

صورة. إنما اللى عملتيه ده أقل شيء يتقال عنه إنه تورط مع شخص الانجليز والفرنسيين بيعتبروه مجرم.

لم تنبس الإبنة وبكت فقال الأب:

- أنا مش هازوِّد فى الكلام أكثر من كده دلوقت. لكن بعدين هيبقى لى معاك حساب تانى. قومى الوقت اغسلى وشك وروّحى، ومش عايزك تتصلى بحد أو تردى على أى حد. لو حد اتصل ماما هى اللى هترد عليه.

دخلت ياسمين الحمام وغسلت وجهها ثم خرجت وقبل أن تخرج من غرفة أبيها قالت له:

- حضرتك مش هتعمل حاجة؟

نظر الأب إليها ولم يرد فأضافت:

- أنا باقول ان حضرتك تتصل بالقيادة وتشوف هيعملوا إيه معاه؟!

- الموضوع خطير وشائك جدًا، لكن أنا هاتصل برضه وهاحاول أساعده المره دى كمان.

- مرسيه يا بابا.

خرجت الفتاة خافضةً رأسها لكن وجهها كان أقل تكدرًا مما كان عليه عندما دخلت العيادة.

*****

طلب وطن السرجانى من زوجته سميرة أن تتصل بمنزل الدكتور يزدى وتسأل عن ياسمين فإن وجدتها سألتها عن أحمد وهل أوصلته إلى دمياط أم إلى الجميل فقط. ردت ليليان وأخبرتها أن ياسمين نائمة

فرجتها أن توقظها لأمر هام لكن ليليان أخبرتها أن ياسمين أصابها أرق بالأمس فتناولت حبة منومة من ساعة ولن تستطيع الاستيقاظ قبل ساعات.

قلقت سميرة قلقًا شديدًا فاتصل زوجها بفيلا السيد الدهشان وعندما رد طلب وطن منه أن يتصل بالدكتور يزدى ليعرف منه إن كان وصله أى شىء عن أحمد. وبعد نصف ساعة اتصل السيد الدهشان بوطن وقال له:

– أيوه ياوطن. أنا اتصلت بالدكتور يزدى وقال لى ان القيادة ماتعرفش حاجة عنه. وده شىء كويس جدًا لأن ده معناه إنه عدًى وزمانه فى طريقه لدمياط.

– ألله يبشرك بالخير ياسيد.

ثم قال مستدركًا:

– طب ماتصلش ليه لحد دلوقت؟!

– هيتصل ازاى وهو هياخدها مشى لدمياط. يعنى مش هيوصل هناك قبل نص الليل. وعلى كل حال أنا هاتصل كل شويه بالدكتور يزدى عشان أشوف أى أخبار جديدة توصله وهابقى أبلّغك أول بأول. وكمان هاتّصل بناس فى دمياط ولو شافوه هيبلّغونى على طول.

– آى والنبى يا سيد خليك معايا الكام ساعة اللى جايين دول أحسن أعصابى وأعصاب سميره تلفت عالآخر.

*****

١٨ قطـار النصـر

فى السـاعـة الواحـدة من بعـد منتـصف الليل أُعلن من الإذاعـة ان القوات المعتدية أنسحبت فـجأة تحت جنح الظلام، مهزومة ومكللة بالخزى والعـار فـخـرج الأهالى إلى الشـوارع واتجـه بعضـهم إلى مـعـسكرات الجولف فوجدوها خالية بالفعل ثم اتجهوا إلى الشاطىء فرأوا اضواء السفن خافتة على البعد ولم تلبث أن اختفت بعد وقت قصير. كما أُعلن بعد ذلك ان قطارًا كبيرًا أُطلق عليه «قطار النصر» سيقوم من القاهرة وبه افواج من رجال الصحافة والإعلام والشرطة والصحة والخدمات الأخرى التى تحتاجها المدينة بشدة، وكذلك ممثلو الدول الشقيقة والصديقة.

اتصل وطن بالسيد الدهشان الذى كان فى ذلك الوقت يستمع إلى آخر التطورات. ترك الراديو وتناول سماعة التليفون من زوجته لكن بدا انه كان متضايقًا من اتصالات وطن المستمرة به فقال:

– ياباى... وطن ده هيقرفنى. هاتى اما اقول له اى حاجة عشان يسكت.... أيوه يا وطن. انا كنت لسه هاكلمك والله. إبشر وبشّر سميره كمان. أحمد بخير وهو مسافر الوقت من دمياط على مصر.

– طب ما جاش ليه على هنا؟ ماهو الانجليز طلعوا خلاص!

– ما انا جايلك فى الكلام أهو. ياسيدى بيقول إنه رايح مصر عشان لازم يخلّص شوية شغل فى الجريدة وكمان بيقول انه يمكن يجى

مع وفد الصحفيين فى قطر النصر.

– والله ! الله يطمنك ياسيد، ده انت كده طمنتنى خالص.

– لاااطمن عالآخر. وعلى فكره، أنا كمان لما عرفت ان القطر ده جاى بعتّ لسلوى عشان تيجى فيه.

فقال وطن مبتهجًا:

– يعنى الفرحة هتبقى فرحتين. فرحة رجوع أحمد بالسلامه وفرحتنا بمقابلة سلوى وهى جايه .

وعندما وضع وطن السماعة قال لزوجته:

– أحمد جاى بكره ياسميره. وكمان شفتى الصدفة الحلوه دى.... سلوى جايه معاه على نفس القطر بتاع بكره. هو قال ان وراه شغل فى الجورنال واحتمال يجى، لكن أنا متأكد انه هييجى. معقول حاجة زى دى تفوته؟!

*****

عُرف عن بورسعيد أنها تستعد استعدادًا جيدًا لأى مناسبة وطنية، فالأجهزة الحكومية والشركات والتجار والنقابات والروابط والطرق الصوفية يهيئون لها كل إمكانياتهم وطاقاتهم فتجىء مبهرة. أما فى ليلة الثالث والعشرين من ديسمبر فلم يكن هناك استعداد أو تخطيط أو إمكانيات لأى احتفال قادم. ومع ذلك فبعد نصف ساعة من إعلان الانسحاب أثبتت التلقائية أنها أحيانا أفضل من التخطيط والإستعداد إذ خرجت المدينة فى تلك الليلة عن بكرة ابيها إلى شوارع العرب والافرنج وفتحت المحلات أبوابها لا لتبيع ولكن لتضىء أنوارها الداخلية والخارجية، وخرجت السيارات الملاكى والنقل والأجرة والموتوسيكلات وعلت أصوات أبواقها متصلةً ومتقطعة وركب كلاً منها عددٌ من الناس لو

ازدادوا واحدًا لناءت بثقلهم، وامتلأ فضاء المدينة بطلقات البنادق والمدافع الرشاشة المتوهجة فى ظلمة الليل الحالكة. وكان الإنجليز والفرنسيون قد تباهوا بعد أسبوع من نزولهم أنهم استولوا على كل الأسلحة والذخائر التى كانت مع المصريين وعندما قامت المقاومة الشعبية بعملياتها الفدائية ضدهم قالوا إنها محدودة وإنهم لو لم يجمعوا تلك الأسلحة والذخائر بالفعل لازدادت العمليات ضدهم، لكن مراسلاً صحفيًا دخل المدينة قبل وصول فوج الصحفيين الرسمى بساعات وكتب مندهشًا انه لم يكن يتوقع أن يكون بالمدينة هذه الكميات الضخمة من الأسلحة والذخائر التى أُحسن إخفاؤها عن الانجليز والفرنسيين للاستفادة بها فى هذا اليوم العظيم.

*****

مع شروق الشمس بدأت الجماهير تتحول من الشوارع إلى ميدان المحطة وفى الساعة العاشرة صباحًا أُعلن أن القطار سيصل فى الرابعة عصرًا بدلاً من الواحدة بعد الظهر ومع ذلك ظلت الجماهير واقفة فى صبر خشية أن يفقدوا أماكنهم المتازة، وهم على أى حال معتادون على الوقوف هكذا فى مناسبات أقل أهمية فما بالك بتلك المناسبة السامية التى فجرت فى نفوسهم إحساسًا عظيمًا متدفقًا يتلاشى أمامه أى إحساس بالتعب أو الملل. إنهم ينتظرون قطار النصر الذى سيقل إليهم كبار مسؤولى الدولة الذين سينظرون بعين العطف والاعتبار من الآن فصاعدًا إلى هذه المدينة التى ضحى شعبها من أجل مصر، وسيشاهدون الصحفيين الذين سيكتبون عن معركتهم، والكتاب والشعراء الذين سيستلهمون أفكار إبداعاتهم الجديدة من هذه الأرض

الشجاعة، والسفراء الأجانب الذين كانت سفن بلادهم تمر على بورسعيد مرور الكرام أما الآن فسيشير بحارتها وركابها بأصابع الإعجاب إلى مدينتهم الباسلة.

*****

قبل وصول القطار بساعة اتصلت فردوس بسميرة وأخبرتها أنها ستمر عليها وتأخذها إلى المحطة فقالت سميرة:

– السيد جاى معاك؟

– لأ. السيد رزق هو اللى هيوصلنا. ووطن يبقى يركب جنبه لو حب يجى.

– أيوه متهيألى هييجى لأنه بيلبس أهو.

– طب يامرموره قبل ما اقفل السكة عاوزه اقول لك على حاجة حصلت من أسبوع بس ما جاتش مناسبه أقولها لك.

– خير يا فردوس.!

– ياستى سلوى سابت خطيبها.

– ليه؟... كفى الله شر!

– ما عجبهاش شخصيته.

– والله ده أحمد هيزعل قوى. إنت شفتيه تعب ازاى يوم خطوبتها عشان يخلى اليوم ده أحسن يوم؟ ووالله كان أكتر واحد فينا فرحان لها يافردوس!

– يالله، نصيب. انا حبيت اقول لك عشان بس ما تُفاجئيش لما ما تشوفيش الدبله فى صباعها.

– سلوى ألف مين يتمناها، وما يستهلهاش إلا واحد أمير وابن أمرا.

*****

فى الساعة الرابعة عصرًا لم يكن يُرى شبرٌ واحد فى أرض الميدان الذى تكدست الجماهير فيه من شارع كسرى غربًا إلى أسوار الجمرك شرقًا وقد أُعلن ساعتها أن القطار قد وصل وستفتح أبواب المحطة بعد قليل حتى تستقبل الجماهيرُ ضيوفَ النصر المرموقين. وكانت سلوى الدهشان من بين ركابه لكنها كانت طوال الرحلة تفكر فى أحمد وطن الذى جاءت خصيصًا من أجله، ولتعيد علاقتها معه.

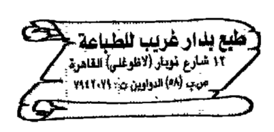
كان فسخ خطوبتها عملاً صائبًا رغم أنها كانت معجبة بخطيبها بعكس ما ادعت أمها. لقد قدمها الرجل إلى عالم مبهر ورائع لكن حياتها معه لم يكن لها طعم الحياة التى عاشتها مع أحمد وطن.

فكرت فيما ستفعله وكيف سيقضيان أوقاتهما معًا بعد ذلك. المؤكد أن المرحلة المقبلة من حياتهما ستكون مختلفة إلى حدٍ كبير عن سابقاتها، فعلى ضوء ما عرفته عن وضع أحمد الجديد فى المدينة وعن أعماله وانجازاته الهائلة فإنها تتنبأ له أن يتبوأ مكانة سياسية واجتماعية لاتقل عن مكانة أبيها وربما فاقتها وبالتالى سيسهل عليها اقناع أبيها أن يقبله زوجًا لها. أما علاقته بياسمين التى سمعت بها أيضا فلا بد أنها علاقة عابرة. فكرت أنه ربما مارس الجنس مع ياسمين بصورةٍ من الصور وهى فى الواقع لا تستبعد ذلك لأنها تعرف طبيعته الحسية وحبه لهذه الأشياء، ومع ذلك فهى على يقين أن هذه العلاقة ستنتهى بمجرد أن تدخل هى بورسعيد وتعود إليه بجسدها وروحها.

*****

تم بحمد الله

رقم الايداع : ٥٧٠٠ / ٢٠٠٠


طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت: ٧٩٤٢٠٧٩

والأغرب من الثراء السريع فى مدينتنا هو زوال الثروة بسرعة أكبر. والمثل الإنجليزى Easy come, Easy go يصدق هنا فى بورسعيد أكثر مما يصدق فى انجلترا. فمعظم الذين أثروا فجأةً وانتقلوا إلى حى الإفرنج لم يمر عليهم أشهر أو حتى أسابيع إلا وقد تبددت ثرواتهم اللقيطة ووجدوا أنفسهم بنقود قليلة لم تكن كافية للإقامة فى الحى الراقى فانتقلوا إلى حى العرب، أو كانوا مفلسين تمامًا فعادوا إلى المناخ لكن فى غير يأس من أن يبدأوا من جديد، فالأحلام لن تلبث أن تداعب رؤوسهم وسيسهل تحقيقها فى مدينة مليئة بالعمل والفرص السهلة.

كانت أماكن تبديد الثروة كثيرة ومتنوعة. فغرز الحشيش والخمارات المتواضعة ومواخير المحطة كانت منتشرة بأعداد كبيرة، لكنها لم تستحوذ إلا على جزء بسيط من الثروة المبددة، أما الجزء الأكبر فكان يُنفق فى كباريهات الإفرنج وباراته الراقية. فإلى جانب فرقعات زجاجات الويسكى والكونياك والشمبانيا على موائد عامرة بأغلى الأطعمة كانت أوراق البنكنوت تُحرق زُلفى لآلهة الحظ والمسرات، وبعضٌ من هؤلاء القاصفين لم تكن لهم تلك العقلية الميتافيزيقية فكانوا يحرقون البنكنوت لأغراض عملية، مثلاً لإشعال سيجارة، أو كانوا يدسونها - بعد طيها - فى مفارق أثداء رفيقات الكأس توطئةً لتحقيق لذةٍ أعظم فى مكان آخر.

وبعض المومسات رأين أنه يمكنهن حيازة قدر [illegible] وال المعروضة أمام أعينهن فى ساحة المتعة الرحيبة فا[illegible] طة ومواخيرها وارتقين من حضيض البغاء الشعبى [illegible] لكة العشيقات الخصوصيات حيث عرضن الجنس مغلفًا ب[illegible] وبة سببت تباريح غرام للزبون العاشق لم يكن يشفى منها إ[illegible] يبه نضوبًا تامًا.